أعلام المسلمين
٣٣

الإمام الطبري

شيخ المفسرين، وعمدة المؤرخين ومقدم الفقهاء المحدثين
صاحب المذهب الجريري
(٢٢٤ هـ - ٣١٠ هـ)

الدكتور محمد الزحيلي

دار القلم
دمشق

أعلام المسلمين
٣٣

الإمام الطبري

شيخ المفسرين، وعمدة المؤرخين ومقدم الفقهاء المحدثين

صاحب المذهب الجريري

(٢٢٤هـ - ٣١٠هـ)

الدكتور محمد الزحيلي

دار القلم
دمشق

الإمام الطبري

الطبعة الثانية
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

هــذا الرّجــل

(محمدُ بنُ جَرير الطبريّ فقيهُ العَالَم).

ابن سُرَيج

(ما أعلمُ تحتَ أديمِ الأرْضِ أعلمُ من محمَّدِ بنِ جَرير).

محمد بن إسحاق بن خزيمة

(كانَ أحَدَ أئمةِ العلم، يُحكم بقوله، ويُرجع إلى رأيه، لمعرفتِه وفضلِه، وكان قد جمعَ من العلومِ ما لم يُشارِكْه فيه أحدٌ من أهل عَصره).

الخطيب البغدادي

(أبو جَعْفر الطبريّ المحدِّثُ، الفقيهُ، المقرِئُ، المؤرِّخُ، المعروفُ، المشهورُ).

ياقوت الحموي

(صاحبُ التفسيرِ الكبيرِ، والتاريخِ الشهيرِ، كانَ إماماً في فنونٍ كثيرةٍ. . .، ولهُ مُصَنَّفاتٌ مليحةٌ في فنونٍ عديدةٍ، تدلُّ على سعةِ علمِهِ، وغزارةِ فضلِه، وكان من الأئمةِ المجتهدين).

ابن خَلِّكان

(العالمُ الكاملُ، الفقيهُ، المقرِئُ، النَّحْوِيُ، اللُّغَويُّ، الحافظُ، الإخباريُّ، جامعُ العلومِ، لم يُرَ في فنونِه مثلُه. . . وصَنَّفَ التصانيفَ الكبارَ).

القِفْطي

(الإمامُ العالمُ، واحدُ الدَّهْرِ، وفريدُ كلِّ عصرٍ، مؤلفُ التاريخِ والتَّفْسيرِ المشهورَيْن، الكبيرَيْنِ. . . ، وقد كانَ له ـ رحمه الله ـ شعرٌ فوق شعرِ العُلماء).

القِفطي

(الإمامُ الجليلُ، المفسِّرُ، أبو جَعْفر، صاحبُ التصانيفِ الباهرةِ. . . ، من كبارِ أئمةِ الإسْلَام المعْتَمدِين).

الحافظ الذهبي

(كانَ أحدَ أئمةِ الإسلامِ عِلْماً وعَمَلاً بكتابِ الله وسُنَّةِ رَسُولِه).

الحافظ ابن كثير

(وهو أحدُ أئمةِ العِلْم، يُحْكَمُ بقوْلِه، ويُرجع إلى رأيِه، وكانَ مُتَفَنِّناً في علومٍ كثيرةٍ، وكانَ واحدَ عصرِه).

ابن تَغْري بَرْدي

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين، الذي أنزل في محكم آياته قوله تعالى: ﴿لقَدْ كانَ في قَصَصِهم عِبْرةٌ لأُولي الأَلْباب﴾ [يوسف/١١١]، نحمده سبحان وتعالى الذي علَّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، وَهَبَه العقل، وأمره بالعلم، وفضّل العلماء على غيرهم بقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الذين آمنُوا مِنكم، والذين أُوتُوا العِلْم دَرَجاتٍ﴾ [المجادلة/١١]، وأثنى على العلماء الذين أدَّاهم العلم إلى تحقيق ثمرته، وجَنْي محصوله، فقال تعالى: ﴿إنَّما يَخْشى اللهَ من عبادِه العلماءُ﴾ [فاطر/٢٨]، وأنكر سبحانه وتعالى على من يُسَوِّي بين العلماء وغيرهم، فقال عزّ وجلّ: ﴿قُلْ: هل يَسْتوي الذين يَعْلمون والذينَ لا يَعْلَمُون؟ إنَّما يتذكَّرُ أُولُوا الأَلْبَاب﴾ [الزمر/٩].

والصلاة والسلام على رسولِ الله ﷺ، المبعوثِ رَحْمةً للعالمين، ونوراً وضياءً وهدى للناس أجمعين، الذي أثنى عليه ربُّه، فقال تعالى: ﴿وإنَّك لَعَلى خُلُقٍ عَظيم﴾ [سورة القلم/٤]، وأَدّبه ربه فأحسن تأديبَه، وبعثه ليتمِّم مكارم الأخلاق، فدعا إلى العلم والتعلّم، وقال: «ليسَ منَّا إلا عَالم أو مُتَعَلِّم»(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: «فَضْلُ العالمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدر على سائرِ الكواكب» وفي رواية ثانية

(١) هذا الحديث رواه ابن النجّار والديلمي في مسند الفردوس عن ابن عمر رضي الله عنهما (الفتح الكبير ٣/٦٨).

«فضلُ العالم على العابد كفضلي على أدْناكم»[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّما بُعِثْتُ معلِّماً»[2]، وقام بهذه الوظيفة المقدسة، وأخرج الناس من الظلمات إلى النُور بإذن ربِّهم، ونقل الأمة من الجاهلية إلى الإسلام والمدنية والحضارة، ومن الأُمِّيَّة والتخلّف إلى العلم والتقدّم، ومن الفوضى إلى النظام والتنظيم، فأيقظ أقواماً نائمين في سُباتهم، وفتح عيوناً عمياً، وآذاناً صمّاً، وقلوباً غُلفاً، وكان من هديه احترام الآباء، وإجلال الأجداد، والاعتراف بالفضل لأهله.

اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه، وعلى أصحابه أجميعن، وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ورحم الله العلماء العاملين، والأولياء المتقين.

وبعد، فإنّ الأمم الحيّة تفخر بماضيها وتاريخها، وإن من مظاهر الحياة في الأمة أن تثير الهمة نحو تاريخها، وتجدِّد الصفحات المشرقة فيه، وتَذْكر الأعلام الذين كان لهم شأن في الحياة، وتأثير في المجتمع، وإذكاء للفكر، وتنوير للعقل، وأيادٍ بيضاءُ في العلم، لتعترف بفضلهم ومآثرهم، وتوجّه الأجيال للتأسِّي بهم، ليكونوا خير خلف لخير سلف، وليعرف الجيل الحاضر جهاد الأجداد، ومنهج حياتهم الذي وصلوا به إلى أطراف المعمورة، وارتفع إلى عَنان السماء، وخلّدوا بصماتهم في مختلف البلدان، وحملوا مشعل الحضارة الإنسانية عدة قرون، وشاركوا في التراث الإنساني في جميع العلوم.

---

(١) هذا الحديث رواه أبو نُعيم في الحلية عن معاذ بن جبل، والرواية الثانية طرف من حديث رواه الترمذي عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنهم (الفتح الكبير ٢/٢٦٨).

(٢) هذا الحديث رواه ابن ماجه (١/٨٣ رقم ٢٢٩) عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، وانظر أحاديث فضل العلم ومنزلة العلماء في كتاب الترغيب والترهيب للمنذري (١/٩٢ وما بعدها).

وإن دراسة تاريخ الأمم والرجال تُعين على كشف الحقائق، ونسبة الآراء والمكتشفات إلى أصحابها، وإعادة الفضل إلى ذويه، ومعرفة المبدع من الحاكي، والأصيل من البديل، والأصل من الفرع، والمخترع من المقلِّد، والمجدِّد من المصوِّر، وهو ما يوجبه الخلق الكريم، والعقل السليم(١).

وقد امتازت الأمة العربية والإسلامية بحفظ تاريخها، وترجمة أعلامها، وظهرت في الثقافة العربية الإسلامية، والتراث الخالد، كتبُ التراجم والأعلام، في مختلف العلوم والفنون، وعلى مر العصور والأيام، لتخليد «أشهرِ الرجال والنساء ذكراً، وأثبتهم في صحيفة الأجيال أعمالاً»(٢)، لأن الحاضر امتداد للماضي، والمستقبل يعتمد على الحاضر، والبشرية تسير في حلقات متتابعة من القديم إلى الحديث ثم إلى الغد، والسابق يقدم للاحق، والكلُّ يشارك في البناء الحضاري، ليتم الصَرْح الإنساني الشامخ، ويزيد النتاج البشري المعطاء، وتتحقق خلافة الإنسان لله في أرضه ﴿وإذ قالَ ربُّك للملائكة: إنِّي جاعِلٌ في الأَرْض خَليفة﴾ [البقرة/٣٠]، ﴿يا دَاودُ إنا جَعَلْناك خَليفةً في الأرْضِ فاحكمْ بينَ الناسِ بالحقّ﴾ [صٓ/٢٦].

ومن هنا برزت فكرة سلاسل الفكر، وسلسلة أعلام المسلمين، ورواد الفكر، والعظماء، والأدباء، وأعلام العرب وغيرهم، وظهر إلى الوجود إقامة الاحتفالات بالشخصيات البارزة والفاعلة والمؤثِّرة في الأمة، واعتادت الأمم والشعوب والدول الإشادة برجالاتها وشخصياتها بمناسبات مختلفة، وبمرور فترات زمنية معيَّنة على وفاتهم أو ولادتهم،

(١) انظر فوائد علم التاريخ في مقدمة ابن خلدون (ص ٣، ٩)، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوي (ص ٣٨٥، ٤٠٦، ٤١٢ ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين).

(٢) انظر: الأعلام للزركلي ١/١٣.

ليقوم العلماء والمفكرون بإحياء ذكراهم والترجمة لهم، والتوسع في معرفة أحوالهم، وأطوار حياتهم، وبيان فضلهم وآثارهم وأعمالهم الخالدة، وشرح مآثرهم المسطورة، تكريماً لنشاطهم، واعترافاً بفضلهم، وإذكاءً لروح الحمية في الأجيال الحاضرة والقادمة للتأسِّي بهم، والسير على منوالهم، والتتبّع لخُطاهم، ليكونوا خيرَ خلف لخير سلف، وتتشابك أواصر الصلة بين القديم والحديث، والسابق واللاحق، والمؤسِّس والمجدِّد، فيبقى مشعل البناء قائماً، ونور الفضيلة مُشعّاً، ومكارم الأخلاق سارية، وسلك الجماعة والوحدة البشرية ممتداً، مُردِّدين قول الشاعر:

أُولئك آبائي فجئني بمثلهم   إذا جَمَعَتْنا يا جريرُ المجامع

ولهذا المعنى أيضاً تطلق الدول أسماء عظمائها في التاريخ على أسماء المدارس والجامعات والشوارع والمؤسسات، والألوية والقطعات، ثم تسمي بهم الأولاد والأبناء.

وإن الدين الحنيف دعا إلى العلم، ورفع مكانة العلماء، وجعلهم ورثة الأنبياء، وأمر بالاعتراف بالفضل لأهله، والدعاء بالرحمة والرضوان للسلف ﴿والذينَ جاءُوا من بَعْدهم يقولُون: ربَّنا اغفرْ لنا ولإخْوانِنا الذينَ سَبَقُونا بالإيمانِ، ولا تَجْعَلْ في قلوبِنا غِلاًّ للذينَ آمنُوا، ربَّنا إنَّك رؤوفٌ رحيمٌ﴾ [الحشر/ ١٠].

وإن العلماءَ مشاعل النور والهدى، وإن احترامَ العلماء احترام للعلم، وإعلاء لشأنه، وإن تكريم العلماء تكريم للعلم ودعوة له، وإقرار بمكانته، وإن السير وراء العلماء دليل على النهج السليم نحو العلم والفضيلة والأخلاق والتقدّم والبناء، سواء أكانوا أحياءً أم أمواتاً، للاستفادة منهم، لأن آراء العلماء لا تموتُ بموت أصحابها، كما يقول علماء أصول الفقه، وإن القيمة العلمية لها لا تفقد أثرها بفقدهم.

من هذه المنطلقات الأصيلة نتّجه بالكتابة عن المفسر الكبير، والمؤرخ العظيم، والفقيه المجتهد، والمحدث الحافظ، والقارىء المجوِّد، والأديب الشاعر، الإمام الشيخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠ هـ) بمناسبة مرور أحد عشر قرناً على وفاته، لتجديد العهد به، والإشادة بأعماله ومؤلفاته، وتخليد آثاره، وإماطة اللِّثام عن سيرته، وبيان فضائله وشمائله، وإحياء ذكراه في قلوب الأجيال الحاضرة والمستقبلة، ليختطَّ الأبناءُ طريق الآباء، ويستنير الأحفاد بضياء الأجداد، ويعرف هذا الخلفُ العاثرُ حقيقة ذلك السلف الناهض، وتتصل حلقات العطاء في هذه الأمة، التي وصفها الحقُّ تبارك وتعالى بقوله: ﴿كُنْتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجت للنَّاسِ، تأمرُونَ بالمعرُوفِ، وتَنْهَوْنَ عنِ المنْكَرِ، وتؤمنون بالله﴾ [آل عمران/ ١١٠]، وبذلك يعمُّ الخير، ويستمر العطاء، وينتشر النور بإذن الله تعالى.

خطة البحث:

وسوف نعيش مع ذكرى الإمام الطبري ساعاتٍ وأياماً، لنتعرّف على سيرته العطرة، وإنتاجه الثرّ، لنرى فيه أنموذجاً للمفكر الإسلامي، والعالم الديني، والمفسر المتألِّق، والمحدث اللامع، والمؤرخ الرائد، والقارىء المتقن، والفقيه المجتهد، والتقي الورع، والزاهد العامل.

وتسهيلاً للدراسة، وتنظيماً للمعلومات، قسمت البحث حسب الخطة التالية:

التمهيد: عن عصر الطبري والدراسات حوله.

الفصل الأول: سيرة الطبري الشخصية، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: هوية الطبري الشخصية.

المبحث الثاني: الطبري يطلب العلم.

المبحث الثالث: إنتاج الطبري وآثاره العلمية.
المبحث الرابع: مواهب الطبري وصفاته.

الفصل الثاني: الطبري مفسِّراً، وفيه ثلاثة مباحث:
المبحث الأول: التفسير والطبري.
المبحث الثاني: وصف تفسير الطبري.
المبحث الثالث: منهج الطبري في التفسير.

الفصل الثالث: الطبري فقيهاً، وفيه أربعة مباحث:
المبحث الأول: الطبري يطلب الفقه.
المبحث الثاني: الطبري فقيهاً شافعياً.
المبحث الثالث: المذهب الجريري في الفقه.
المبحث الرابع: كتب الطبري الفقهية.

الفصل الرابع: الطبري مؤرخاً، وفيه ثلاثة مباحث:
المبحث الأول: علم التاريخ والطبري.
المبحث الثاني: كتب الطبري في التاريخ.
المبحث الثالث: منهج الطبري في التاريخ.

الفصل الخامس: الطبري وبقية العلوم، وفيه أربعة مباحث:
المبحث الأول: الطبري محدثاً.
المبحث الثاني: الطبري قارئاً.
المبحث الثالث: الطبري وعلم أصول الدين.
المبحث الرابع: الطبري وعلم الأخلاق والتربية.

الخاتمة: وفيها خلاصة البحث ونتائجه.

ونسأل الله التوفيق والسداد، وأن يأخذ بيدنا لما يحبه ويرضاه، وأن يتقبل منا هذا العمل، ويدّخره في صحيفة الأعمال، وأن يعلّمنا ما ينفعنا،

وأن ينفعنا بما يعلمنا، وأن يجعلنا ممّن يستمعون القـول فيتبعون أحسنه، ولله الحمد والشكر أولاً وآخراً.

دمشق في ١٥/ ٢/ ١٤١٠ هـ
١٦/ ٩/ ١٩٨٩ م

الدكتور محمّد الزحيلي
وكيل كلية الشريعة للشؤون العلمية

تمهيد
عن عصر الطبري

عاش الطبري (٢٢٤ - ٣١٠ هـ) جميع حياته في ظل الخلافة العباسية التي كانت ترعى المسلمين، وتحمل راية الإسلام، وتلتزم بالأحكام الشرعية، وتقوم على نشر الدعوة الإسلامية، وإمداد الجيوش للفتوحات، والوقوف في وجه دعوات الإلحاد والضلال، والشعوبية والقومية، والتصدي للحركات الانعزالية والانفصالية، والصمود أمام قوات الدول المعادية، والجيوش الجرّارة للدولة البيزنطية، وفي شرق الدولة الإسلامية.

ولكن الدولة العباسية - شأنها في ذلك شأن جميع الدول - مرت بعصر النشأة والإزدهار، وبلغت أوجَها وعزَّها في عصر الرشيد والمأمون، ثم اتجهت إلى التقلّص والضمور، والضعف والانقسام والتشتت، فالدولة الأموية في الأندلس تضطلع بالحكم الكامل، والأَدَارسة في مراكش، والأَغَالبة في تونس، وفي شرق الدولة ظهرت دول جديدة استقلت عن العباسيين في بغداد، كالدولة الطاهرية (٢٠٥ هـ - ٢٥٩ هـ) في خراسان، والدولة الصفارية (٢٥٤ هـ - ٢٩٠ هـ) في سجستان وشمال الهند وخراسان (بعد القضاء على الدولة الطاهرية)، والدولة السامانية (٢٥٠ - ٣٩٥ هـ) في بخاري، وانقضُّوا على الدولة الصفارية وحلُّوا محلها، والدولة الطولونية (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ) بمصر، ثم امتدت إلى سورية في بعض الأحقاب، والدولة الزياديَّة في اليمن (٢٠٤ - ٤١٢ هـ)،

والدولة الزيدية في اليمن (٢٤٦ ـ ٧٠٠ هـ) أيضاً.

فالطبري ولد قبل نهاية العصر الذهبي للدولة العباسية في ولاية الواثق بالله (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ)، وعاش في خلافة المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي، وحتى المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ)، ومات في خلافة المقتدر، وهي عصور تقهقر أو تضعضع أو نهضة وقوة.

وفي هذا العصر ظهر النزاع على السلطة بين الفرس والأتراك والعرب، وبرزت فرق وحركات سياسية وفكرية مناوئة، وتسلط القواد على السلطة ليحكموا من وراء ستار، وينازعوا منافسيهم، ليستبدوا بالأمر[1].

لكن هذه المرحلة التي تضعضعت سياسياً وإدارياً كانت مزدهرة علمياً وحضارياً، ففي القرن الهجري الثاني نضجت معظم العلوم الشرعية، والمذاهب الفقهية، وظهر فيه التدوين والتصنيف، وجمعت السنة النبوية في كتب الصحاح والسنن، وفي القرنين الثالث والرابع بلغت العلوم الشرعية والمذاهب الفقهية درجة الكمال والاستقرار، وتميزت هذه المرحلة ثقافياً وفكرياً وحضارياً، واتجهت العلوم والمذاهب إلى التوسع والانتشار أفقياً ومكانياً، وإلى الإتقان والجودة والعمق عمودياً وموضوعياً.

ولم يكن الوضع السياسي المتأرجح، والانقسامات المتلاحقة، وتعدد الدول، حائلاً أمام العلم والعلماء، بل كان على العكس تماماً، فكان عاملاً مساعداً للرقي العلمي، والتقدم الحضاري، والإزدهار الثقافي، لقيام الخلفاء بتشجيع العلم والعلماء، وتنافس الولاة والأمراء بالتسابق

---

(١) انظر: محاضرات في تاريخ الخلافة العباسية ص ٨٥ وما بعدها، البداية والنهاية ١٠/ ٢٩٣ وما بعدها، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية ٣/ ٢٣٠ وما بعدها، الفتح المبين ١/ ١٢٢، الطبري للحوفي ص ٩، ظهر الإسلام ١/ ٣، ١٥٩ وما بعدها، تاريخ التشريع الإسلامي للخضري ص ١٧٠ وما بعدها.

العلمي، وكسب العلماء، وإنشاء المكتبات، وترجمة الثقافات والفلسفات، وجمع المخطوطات، وفتح المدارس، وإشادة المساجد ودور العلم، وكانت كل بلد تفاخر بما لديها.

ولم تضع هذه الدول والحكومات حاجزاً أمام العلم والعلماء، فكانت جميع البلاد الإسلامية ساحة واسعة أمام الطلاب، وانتقال العلماء، والرحلة في تحصيل العلم، وتبادل المعرفة والفكر والمصنفات والكتب، وكان العلماء ينتقلون من قطر إلى آخر دون أن يجدوا ظلالاً من أثر الخلافات والانقسامات، وكانت المدن والعواصم تستقبل الوافدين لطلب العلم برحابة الصدر، وكرم الضيافة، وحسن الوفادة.

ولذلك ظهر في القرن الثالث والرابع ـ اللذين عاش فيهما الطبري ـ ظهر كبار العلماء والفقهاء، والأدباء والمؤرخين، والمفسرين والمجتهدين في المذاهب، والمحققين لها، منهم الشافعي (٢٠٤ هـ) وأحمد بن حنبل (٢٤١ هـ) وبشر المريسي (٢١٨ هـ) زعيم الطائفة المريسية المرجئة، وإبراهيم النظّام (٢٢١ هـ) رئيس طائفة المعتزلة، وداود الظاهري (٢٧٠ هـ) مؤسس المذهب الظاهري، وفي المذهب الشافعي المزني والبويطي وابن سُرَيْج وأبو حامد المروزي وابن المنذر والقفّال الشاشي والإصطخري، وفي المذهب الحنفي الجصّاص والخصّاف والطحاوي وأبو الحسن الكرخي، وفي المذهب المالكي إصبغ وأبو بكر الأَبْهَري والقاضي أبو الفرج، وفي المذهب الحنبلي أبو بكر المروزي والأثرم وإبراهيم الحربي والخلّال والخرقي، وفي علم الكلام أبو الحسن الأشعري، وأبو منصور الماتريدي[1]، إلى غير ذلك من العلوم المختلفة، والعلماء

---

(١) انظر الفتح المبين ١/١٢٣ وما بعدها، طبقات الفقهاء، ص ٩٧ وما بعدها، محاضرات في تاريخ الخلافة العباسية ص ٢١٥، الفهرست ص/هـ، ظُهر الإسلام ٢/١٥٩.

فيها، كالتفسير واللغة والنحو والصرف والأدب والفلسفة والتاريخ والعلوم العقلية، وظهرت فيها المصنفات والموسوعات، ويضاف إليها الكتب المترجمة من اليونانية والهندية والفارسية، وظهر المزيج الكبير في الثقافة، والتفتّح في العقل، والمراكز للبحث، حتى بلغت الحضارة العربية الإسلامية أوجها، وازدهرت ازدهاراً عظيماً في العصر العباسي عامة وفي القرنين الثالث والرابع خاصة، ويكفي النظر في كتاب «الفهرست» لابن النديم ليرى الإنسان العجب من النشاط العلمي الذي كان في العصر العباسي، وكثرة المؤلفين والمترجمين في جميع نواحي العلم.

ولم يكن هذا النشاط العلمي محصوراً في عاصمة الخلافة العباسية، بل كان كل قطر إسلامي ينافس الأقطار الأخرى، ويقدّم الإنتاج الوفير، ويخرِّج فطاحل العلماء، ففي شرق الدولة الإسلامية بخارى وسمرقند، وفي فارس الريّ وشيراز وخراسان وأصبهان وطبرستان وهَمَذان، وفي العراق بغداد والبصرة والكوفة، وفي بلاد الشام دمشق والقدس وبيروت، وفي الحجاز مكة والمدينة، وفي اليمن صنعَاء وزَبِيد، وفي مصر القاهرة والإسكندرية، وفي المغرب العربي تونس والقيروان ومراكش، وفي الأندلس أُشْبيلية وقرطبة وطليطلة.

وفي هذا الجو السياسي والإداري والفكري والثقافي عاش الإمام الطبري، وشهد الصراعات السياسية بين الدويلات والخلافة العباسية، ولمس الخلافات بين السنة والمعتزلة، والانقسامات النحوية بين البصرة والكوفة، والمناظرات الفقهية بين أصحاب المذاهب، والجدل الحادّ بين أهل الحديث وأهل الرأي، وبين المحدثين وغيرهم، واطلع الطبري رحمه الله تعالى على آراء أصحاب المذاهب المختلفة، والعلوم المتنوعة، ودرسها وأتقن معظمها، ثم بدأ بالعطاء والإنتاج والتأليف، كما سنشاهد في الفصول التالية، حتى مات زمن خلافة المقتدر بالله، ليكون أنموذجاً صادقاً لأعلام

القرن الثالث والرابع، بعد أن أصبح أعظم مفكر مسلم، وألمع محدث، والقارىء للقرآن، وأبرع المؤرخين، وأقدر الفقهاء، ويستحق بجدارة أن يُعرف بشيخ المؤرخين، وأبي المفسرين، والإمام الفقيه المجتهد، وهو ما نحن بصدد بيانه وتفصيله إن شاء الله تعالى في الفصول القادمة، بعد أن نبين لمحة عن الدراسات التي حظي بها الطبري والبحوث التي كُتبت عنه.

الطبري عالم عصره، وهو في سجل الخالدين:

كان الطبري رحمه الله عالم عصره، وفريد دهره، جمع من العلوم والفنون ما لم يجتمع لغيره، وتبوّأ المكانة المرموقة في أمته ومجتمعه، وبين العلماء والطلاب، وكان في سويداء القلب بين أبناء جيله وتلاميذه، الذين نقلوا صورته وأخلاقه وشمائله وعلومه إلى الأجيال اللاحقة، وبقي اسم الطبري وعلمه يتردد في كل مكان.

ولم يكن الطبري رحمه الله تعالى بالرجل المغمور، أو العالم المنسيّ، فقد بارك الله فيه، وفي علمه، وعرف الناس ترجمته الشخصية، وحياته العلمية، وسيرته الذاتية، ورحلاته، وانكبّ العلماء والطلاب على نسخ كتبه، لينهلوا من معينه، ويرشفوا من حوضه، وظل الطبري مشهوراً في اسمه، لامعاً في علمه، أثناء حياته وبعد وفاته، وحتى اليوم، وسيبقى كذلك إلى ما شاء الله تعالى.

وإنّ معظم كتب التراجم والرجال والأعلام والطبقات أوردت ترجمة الإمام الطبري الذي توفي في مطلع القرن الرابع الهجري (٣١٠ هـ) بدءاً من تلامذته، ومن يليهم، بين مطوِّل ومقصِّر، ومُسْهب ومُخْتصِر.

فهذا عبد العزيز بن محمد الطبريُّ يفرد سيرة أبي جعفر الطبري في كتاب مستقل، وهذا أبو بكر بن كامل يسجل أخبار الإمام أبي جعفر الطبري في مصنف آخر، ومن هذين الكتابين استمد ياقوت

الحموي (٦٢٦ هـ) ترجمة مستفيضة للإمام الطبري بما يزيد عن خمس وأربعين صفحة من كتابه «معجم الأدباء»(١).

وترجم للطبري جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (٦٤٦ هـ) في كتابه «المحمدون من الشعراء» وكتابه «إنباه الرواة عن أنباء النحاة» ترجمة مختصرة، ثم قال: «وما منعني من استيفاء خبره إلا ما صنّفته في ذلك مفرداً، وسميته كتاب «التحرير في أخبار محمد بن جرير» وهو كتاب ممتع»(٢)، ولا شك أنه ممتع وشيّق لما يتضمنه من النفحات العطرة عن سيرة الطبري رحمه الله.

وابن النديم (٤٣٨ هـ) أخذ مباشرة عن تلاميذ الطبري، وذكر له ترجمة مطولة، وعدَّد كتبه وبعض تلامذته وأصحابه الذين كانوا على مذهبه(٣).

والخطيب البغدادي (٤٦٣ هـ) يذكر ترجمة الطبري في ثماني صفحات من «تاريخ بغداد» (ج ٢/١٦٢ ـ ١٦٩). وابن السبكي (٧٧١ هـ) ترجم للطبري في ثماني صفحات في كتابه «طبقات الشافعية الكبرى» (٣/١٢٠ ـ ١٢٨)، وابن خلكان (٦٨١ هـ) ترجم للطبري في «وفيات الأعيان» (٣/٣٣٢)، وكثير غيرهم تناول ترجمة الطبري كما سنذكره في الفصل القادم.

وبقي اسم الطبري مرفوعاً، وذكره ساطعاً، وعلمه مُنْساباً، ومكانته مرموقة، وفضله ظاهراً في مختلف الآفاق شرقاً وغرباً، وعلى اختلاف العصور في القديم والحديث، وأصبح في الوقت الحاضر محط أنظار

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٤٠ ـ ٩٤.
(٢) إنباه الرواة ٣/٩٠.
(٣) الفهرست ص ٣٢٦ ـ ٣٢٩.

الباحثين، وقِبلةً للدارسين، ومنهلاً للبحوث والمقالات، نذكر منها:

١ ـ الطبري المفسر، للدكتور سيد أحمد خليل، المدرس بجامعة عين شمس، وهو بحث قدّمه إلى جامعة القاهرة للحصول على الدكتوراة في الآداب سنة ١٩٥٣ م.

٢ ـ كلمة المستشرق الألماني «نولدكه»[١].

٣ ـ بحث المستشرق الألماني «لوت»، وهو فصل في مجلة المستشرقين سنة ١٨٨١ م.

٤ ـ بحث المستشرق الألماني «جولد تسيهر»، وهو فصل في كتابه «مذاهب التفسير الإسلامي»، الذي نقل إلى العربية مرتين، الأولى من الدكتور علي حسن عبد القادر، والثانية من الدكتور عبد الحليم النجار، ونشرتها مكتبة الخانجي في مطبعة السُّنة المحمدية بالقاهرة سنة ١٩٥٥ م، مع وجوب الانتباه إلى السموم التي يدسها جولد تسيهر في كتبه وبحوثه.

٥ ـ مقال للدكتور ولفنسون إسرائيل، بعنوان «جامع البيان في تفسير القرآن للطبري» نشره بجريدة الأهرام ١٩٣٤/١/٤ م.

٦ ـ مقال الدكتور فؤاد حسنين علي، نشره في الأهرام ١٩٣٤/١/٢١ م، ردَّ به على أخطاء وقعت في مقال الدكتور ولفنسون إسرائيل[٢].

٧ ـ بحث الدكتور جواد علي بعنوان «موارد تاريخ الطبري» ويقع في ١٨٤ صفحة كبيرة، نشرها في الأعداد الثلاثة الأولى من مجلة المجمع العلمي العراقي لسنوات ١٩٥٠، ١٩٥٢، ١٩٥٤ م، وفيه

(١) انظر: كتاب مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار، مطبعة السنة المحمدية، بالقاهرة، سنة ١٩٥٥.

(٢) انظر: تفسير الطبري ٤٠١/٣٠.

دراسة عن نشأة علم التاريخ الإسلامي، والمصادر التاريخية الأولى.

٨ ـ مقال للدكتور ناصر الدين الأسد في مجلة معهد المخطوطات العربية ٢/٢٠٧ ـ ٢١١[١].

٩ ـ بحث مطول في كتاب «التفسير ورجاله» للشيخ محمد الفاضل ابن عاشور من تونس.

١٠ ـ بحث مطول في كتاب «التفسير والمفسرون» للدكتور الشيخ محمد حسين الذهبي.

١١ ـ بحث جيد عن تاريخ الطبري للأستاذ شاكر مصطفى في كتابه «التاريخ العربي والمؤرخون».

١٢ ـ الإمام الطبري، بحث في التفسير، قدّمه عبدالله بن عبد العزيز المصلح في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، بدون تاريخ.

١٣ ـ كتاب الطبري للدكتور أحمد محمد الحوفي، من سلسلة أعلام العرب رقم ١٣، بالقاهرة، ثم أعيد طبعه بمجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة.

١٤ ـ مؤتمر الاحتفاء بذكرى الإمام أبي جعفر الطبري الذي عقدته المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «أيسيسكو» في القاهرة بتاريخ ٢٢ ـ ٢٤ ذي الحجة ١٤٠٩ هـ الموافق ٢٥ ـ ١٩٨٩/٧/٢٧ م.

ويضاف إلى ذلك الكتابات المتعددة عن كتب الطبري في «كشف الظنون» و «مفتاح السعادة» و «معجم المؤلفين» وفي مختلف العلوم التي ساهم فيها الطبري، وكتب تاريخ التشريع، وتاريخ الفقه، والمداخل الفقهية، وكذلك البحوث والدراسات التي صُدِّرت بها كتب الطبري عند

---

(١) تاريخ التراث العربي، سزكين ١/٢/١٦٧.

تحقيقها ونشرها، وهي «تاريخ الطبري» بطبعاته المتعددة، كما سيمر معنا، و« تفسير الطبري» بطبعاته الكثيرة، و «تهذيب الآثار» و «اختلاف الفقهاء» وغير ذلك مما ينتج ثروة كبيرة، وذخيرة واسعة عن حياة الطبري، بما يستحقّ عن إنصاف وجدارة، كما سنرى في الفصول القادمة إن شاء الله تعالى.

الفصل الأوّل

سِيرةُ الطَّبريِّ الشَّخْصِيَّة

سأعرض في هذا الفصل سيرةَ الإمام أبي جعفر الطبريّ الشخصية من الناحية التاريخية، لتكوين صورةٍ واضحةٍ عنه، نقتبسُها من كتب التاريخ والتراجم والطبقات، كما نقلها لنا المؤرخون والعلماء، وصنفوها في كتبهم، مما نُقل إليهم، ووصل إلى علمهم عن طريق تلامذته مباشرة، والمعاصرين له.

فنقدم صورة عن هوّيته الشخصية، ونشأته وطلبه للعلم، وشمائله العقلية والخُلُقية، وإنتاجه العلمي وآثاره الخالدة، وذلك في أربعة مباحث.

المبحث الأوّل

هَوِيّةُ الطَّبَريِّ الشَّخْصِيّة

أولاً: اسمه:

هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب(1).

واتفق المؤرخون على اسمه واسم أبيه(2)، ولكنهم اختلفوا في اسم جده، فذكر ابن الجَوْزي وبدر الدين العيني أنَّ جدَّه كثير، لا يزيد، وهذا تسامح منهما وتساهل في ذكر اسم والد الجد مباشرة.

وذهب جمهور المؤرخين والمحققين إلى أن اسم والد جده هو كثير ابن غالب، وهو رأي الخطيب البغدادي، وياقوت الحموي، وتاج الدين السبكي، والنَّوَويّ، والذهبي، وابن كثير، والقفطي ومن تبعهم ولفَّ لفّهم.

---

(1) انظر ترجمة الطبري في طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٠، تهذيب الأسماء ١/٧٨، تذكرة الحفاظ ٢/٧١٠، ميزان الاعتدال ٣/٤٩٨، طبقات الفقهاء ص ٩٣، طبقات القراء ٢/١٠٦، تاريخ بغداد ٢/١٦٢، معجم الأدباء ١٨/٤٠، إنباه الرواة ٣/٨٩، وفيات الأعيان ٣/٣٣٢، المنتظم ٦/١٧٠، البداية والنهاية ١١/١٤٥، المحمّدون من الشعراء ص ٢٦٣، شذرات الذهب ٢/٢٦٠، الفهرست ص ٣٢٦، النجوم الزاهرة ٣/٢٠٥، سير أعلام النبلاء ١٤/٢٦٧، روضات الجنات ٧/٢٩٢، كشف الظنون ١/٦٤، ٣٠٣، مفتاح السعادة ١/٢٥٢، ٢/٨٠، ٣١٥، الطبري للحوفي ص ٣٠، الطبري للمصلح ص ١٠، تاريخ التراث العربي ١/٢/١٥٩، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٣/٤٥، ظهر الإسلام ٢/٣٨، ٢٠٢.

(2) جاء في كشف الظنون ١/٦٤ أن اسم الأب محمد، وهو خطأ وتحريف من الناسخ أو سبق قلم، تداركه المصنف نفسه ١/٢٢٧.

بينما ذهب ابن خلكان وطاش كبري زادة وجعفر الكتاني إلى أن والد جده هو خالد، وضعف ابن خلكان القول الأول[1].

والراجح ـ والله أعلم ـ هو القول الأول الذي سار عليه الأكثرون، وقدّمه المحققون، وإن الأمر لا يحتاج لكل هذا الخلاف، لأن لا يترتب عليه نتائج، ولا نجني منه ـ مع الطبري ـ ثمار.

على أن الطبري نفسه اعتبر ذلك ثانوياً، وإذا سئل عن اسمه ونسبه قال: اسمي محمد بن جرير، فقال له السائل: زدنا في النسب؟ فرفض، وأجابه بجواب فَصْل، متمثِّلاً قول الشاعر رُؤْبة بن العَجَّاج:

قد رفعَ العَجّاجُ ذِكْرِي فادْعُني ... باسمي إذا الأَنْسَابُ طَالَت يَكْفِني[2]

ثانياً: كنيته ونسبه:

يُكنى الطبريّ بأبي جعفر، وعُرف بذلك، واتفق المؤرخون عليه، ولم يكن له ولد اسمه جعفر، لأنه لم يتزوج أصلاً، وإنما تكنّى به التزاماً بآداب الشرع، وسنة الرسول ﷺ بإطلاق الكنية على أصحابه، وأطفال الصحابة وشبابهم، وترغيب المسلمين باتخاذ الكنية للصبيّ، وقبل أن يُولد للرجل، لما روى البخاريُّ ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسولُ الله ﷺ أحسنَ النَّاس خُلُقاً، وكانَ لي أخ يُقال له: أبو عمير، قال: أحسبُه فَطيم، وكان إذا جاء رسول الله ﷺ فرآه قال: يا أبا عُمير، ما فعل النُّغَير»[3].

وهذا من التربية الإسلامية السامية التي تترك أحسن الآثار على الطفل ونشأته ونفسيته، كما تقيم أساس التعاون، وحسن المعاملة، والأدب

---

(١) وفيات الأعيان ٣/٣٣٢، مفتاح السعادة ١/٢٥٢، الرسالة المستطرفة ص ٤٣.

(٢) معجم الأدباء ١٨/٢٧.

(٣) صحيح البخاري ٥/٢٢٩١ ط البغا، صحيح مسلم بشرح النووي ١٤/١٢٨.

الجم في مخاطبة الرجل قبل أن يتزوج، أو قبل أن يولد له ولد، قال ابن القيم: «والكنية نوع تكثير وتفخيم للمكنَّى، وإكرام له»(١).

أما نسبُه فلا خلاف فيه أيضاً، فالطبري نسبة إلى طبرستان، وهي ولاية كبيرة، وناحية واسعة الأرجاء في بلاد فارس، بين جُرْجان والدَّيْلم على بحر قزوين، وتضم قرى كثيرة ينسب أهلها غالباً إليها، وهم كثر(٢)، وهذه أشهر نسبة للإمام أبي جعفر.

كما ينسب الطبري نسبة أخرى فيقال: الآمُلي، نسبة إلى بلده آمُل التي ولد بها، وتقع في قصبة طبرستان، وهي أكبر مدينة فيها ولا تطلق عليه هذه النسبة إلا قليلاً، لأن أكثر من ولد بآمل ينسب إلى طبرستان.

وللطبري نسبة ثالثة، وهي البغدادي، نسبة إلى بغداد التي سكنها، واستوطن فيها، ونشر فيها علمه، وأملى بها معظم كتبه، ثم مات بها، ولذلك قال ابن الجزري: «الإمام أبو جعفر الطبري الآمُلي البغدادي»(٣)، فجمع الأنساب الثلاثة له.

ويرى بعض العلماء أن الطبريَّ ينتسب إلى العنصر العربي، وأكد المستشرق بروكلمان أنه من عنصر أعجمي، وهذا الأمر ليس مهماً لأن العرب اختلطوا بغيرهم من العهد الأموي، وسكن كثير من القبائل العربية بأكملها في خراسان ونيسابور وطبرستان، وكانت الجيوش الإسلامية، وفيها عرب كثر، يستقرون قريباً من الثغور وأطراف الدولة الإسلامية للوقوف في وجه الأعداء، ولأن الإسلام أصلاً لا يعتبر التفاضل بالأنساب، ولا التمايز بالعنصر والجنس، وإنما قرر مبدأه

---

(١) تحفة المودود بأحكام المولود ص ٨٥.
(٢) لب الألباب في تحرير الأنساب ص ١٦٧، مراصد الاطلاع ٢/٨٧٨.
(٣) طبقات القراء ٢/١٠٦.

الخالد ﴿إنَّ أكرَمَكم عند اللهِ أتقاكم﴾ [الحجرات/١٣]، وقال رسول الله ﷺ: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى»[1].

ومع ذلك فإن الطبري عربي العقيدة والإيمان، وعربي اللسان، وعربي الثقافة، وصنف جميع كتبه بالعربية، مما يدل على عظمة الإسلام في توحيد أبنائه وشعوبه في وشائج متعددة، ووحّدهم إلى خدمة الإسلام والإنسانية، وجعل العربية لغة عالمية ولغة العلم والثقافة والتعارف بين الشعوب.

ثالثاً: ولادة الطبري ونشأته:

وُلد الطبري رحمه الله تعالى في مدينة «آمُل» من أعمال طبرستان، وأكبر مدينة فيها، وهذا باتفاق المؤرخين.

وكانت ولادته سنة (٢٢٤ هـ/٨٣٩ م) على الأرجح، وقيل إنه وُلد في سنة (٢٢٥ هـ/٨٤٠ م)، ولعله ولد في آخر سنة (٢٢٤ هـ) أو أول سنة (٢٢٥ هـ)، وذكر الطبريُّ نفسه سبب هذا الشك والتردد عندما سأله عنه تلميذه أبو بكر بن كامل، فقال: كان أهل بلادنا يؤرخون بالأحداث دون السنيـن، فأُرِّخ مولدي بحادث كان بالبلد، فلما نشأتُ سألتُ عن ذلك الحادث، فاختلف المؤرخون، قال بعضهم كان ذلك في آخر سنة أربع وعشرين ومائتين، وقال آخرون بل كان ذلك في أول سنة خمس وعشرين ومائتين، وكثيراً ما يقتصر الكتّاب والمؤرخون على التاريخ الأول[2].

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٤١١/٥)، وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة، وقيم إسلامية مقررة وخالدة.

(٢) معجم الأدباء ١٨/ ٤٠، ٤٨، طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ١٢٠، لسان الميزان ١٠٢/٥، والمراجع السابقة في ترجمته.

ونشأ الطبري بآمل، وتربى في أحضان والده، وغمره برعايته، وتفرَّس فيه النباهة والذكاء والرغبة في العلم، فتولى العناية به، ووجَّهه منذ الطفولة إلى حفظ القرآن الكريم، كما هي عادة المسلمين في مناهج التربية الإسلامية، وخاصة أن والده رأى حُلْماً، تفاءل به خيراً عند تأويله، قال الطبري: رأى لي أبي في النوم أنني بين يديْ رسول الله ﷺ، ومعي مِخْلاة مملوءة بالأحجار، وأنا أرمي بين يديه، ولما قصَّ رؤياه على صديقه قال له: إنَّ ابنك إنْ كبُر نصحَ في دين الله، وذبّ عن شريعته، فحرص أبي على معونتي على طلب العلم، وأنا يومئذ صبي صغير[1].

ويظهر أن الوالد أخبر ولده بهذه الرؤيا، وقصها عليه عدة مرات، فكانت حافزاً له على طلب العلم، والجدّ والاجتهاد فيه، والاستزادة من مَعينه، والانكباب على تحصيله، ثم العمل به، والتأليف فيه، ليدافع عن الحق والدين، ويدخل في سجل الخالدين.

رابعاً: الحالة الاجتماعية للطبري:

عاش الإمام الطبري رحمه الله تعالى أعزب، ولم يتزوَّج، لأنه شُغل بالعلم، وشُغف بالمعرفة منذ الصغر إلى نهاية العمر الذي وصل إلى ست وثمانين سنة.

ولا شك أنَّ العزوبة وترك الزواج ليس من الشرع، وإذا كان متعمداً يأثم صاحبه، لأنَّ رسول الله ﷺ قال: «وأتزوَّجُ النساء... فمنْ رَغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مِني»[2]، ونهى الإسلام عن الترهُّب والرَّهبانية، وهي

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٤٩.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً (الترغيب والترهيب ٣/٤٣).

ترك الزواج وأمور الحياة للانقطاع إلى العبادة والآخرة، ودعا الرسول ﷺ إلى الزواج، ورغب فيه، فقال: «يا معشر الشَّباب منْ استطاعَ منكم البَاءَةَ (وهي القدرة البدنية والمالية على شؤون الزواج) فليتزوج فإنّه أغضُّ للبصر، وأحفظ للفرج، ومنْ لم يستطع فعليه بالصِّيام، فإنّه له وِجَاء»[1].

ولم تذكر لنا المصادر التاريخية سبب عزوف الطبري عن الزواج، وهل كان لعارض جسمي، أم لعلة خَلْقية، أم لضائقة مالية؟.

والشيء الثابت أن الطبري رحمه الله كان متفرغاً لطلب العلم، منكبّاً على تحصيله، ورحل في سبيله ـ كما سنرى ـ، وقضى معظم شبابه في السفر والترحال والانتقال من بلد إلى آخر، ولم يستقر في بلده، ثم في بغداد، إلا بعد الكهولة، وثبت أيضاً أنه كان قليل المال في هذه المرحلة، وكان يوفّر ماله ليستطيع متابعة الرحلة والسفر ونَسْخ الكتب وشرائها، وكان يعتمد في ذلك على والده أولاً، ثم على رَيْع أملاكه التي ورثها من والده، ولما استقر في الإقامة، وبلغ شأوه في العلم والحياة، كان زاهداً بالمال، لا يهتم لجمعه، وبقي منقطعاً للعلم والتأليف والتصنيف والتدريس.

وأغلب الظن أن هذا النَهَم العلمي، والانشغال في طلب العلم، والتفرغ له، كان هو السبب الأساسي في عزوبته وعدم زواجه، فالعلم يشغل صاحبه، ويمنحه متعة نادرة، ولذة خاصة لا يدركها إلا من يجرِّبها، وإذا انغمس فيها الإنسان في شبابه خفت عنده الرغبة بالزواج، وإذا بلغ الكهولة وتقدم به السنّ، وألف العزوبة ومجالس العلم زالت

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً (الترغيب والترهيب ٣/ ٤٠).

عنه هذه الرغبة، وشعر بالمقابل أنها تخفف عنه تبعات الزواج والأولاد والذرية، ليأنس بالمعارف والعلوم، ويصاحب الكتب والمجلدات والمخطوطات، ويشغل وقته بالمطالعة والتصنيف فيكثر إنتاجه، ويغزر علمه، ويزداد عطاؤه، ويعمّ نفعه، وهذا ما حصل مع كثير مِن علمائنا الأعلام كالطبري والنووي وغيرهما، لذلك وصف مَسْلمة بن قاسم أبا جعفر الطبري فقال: «كان حَصُوراً لا يعرف النساء، شَغله طلبُ العلم، وهو ابن اثنتي عشرة سنة، ولم يزل طالباً للعلم، مولعاً به إلى أن مآت»[١].

خامساً: وفاة الطبري:

بارك الله في حياة الطبري فعاش ستة وثمانين عاماً في سبيل العلم ونشره، وتضاعفت هذه الأعوام بما لا يعلمه إلا الله تعالى، لتبقى ذكراه خالدة في التاريخ، واسمه يتردد على الألسنة، وكتبه تنتقل من جيل إلى جيل، وعلمه ينتفع به الناس إلى يوم الدين.

وبقي الطبري مستوطناً في بغداد - عاصمة الدولة العباسية، وأعظم مركز للثقافة والعلم في العالم في ذاك الوقت - يؤدي رسالته، ويلتفُّ حولَه الطلاب والعلماء، ويُملي كتبه التي بدأ بعضها في آخر حياته، حتى أسلم روحه إلى بارئها يوم ٢٦ شوال ٣١٠ هـ/٩٢٣ م، على الصحيح، وذلك في عصر الخليفة العباسي المقتدر بالله، ودفن الطبري في داره الكائنة برَحْبة يَعْقوب ببغداد[٢].

وذهب بعض المؤرخين إلى أنِ وفاته كانت سنة ٣١١ هـ، أو

(١) لسان الميزان ٥/١٠٢.
(٢) معجم الأدباء ١٨/٤٠، طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٦، وفيات الأعيان ٣/٣٣٢، تاريخ بغداد ٢/١٦٦، إنباه الرواة ٣/٩٠.

٣١٦ هـ، وهذه أقوال ضعيفة ومرجوحة لدى أكثر العلماء[١].

كما اختلفوا في يوم وفاته، فذكر الخطيب وغيره أنه توفي يوم السبت ٢٦ شوال ٣١٠ هـ، لأربعٍ بقين من شوال، ودفن يوم الأحد بالغَداة[٢]، وقال ابن كثير وغيره: إن وفاة الطبري وقت المغرب عشية الأحد ليومين بقيا من شوال، أي ٢٧ شوال سنة ٣١٠ هـ[٣]، والخلاف في ذلك بسيط، فقد تكون روحه فارقت الجسد يوم السبت ٢٦ شوال ودفن يوم الأحد ٢٧ شوال، فأرخ بعضهم بيوم وفاته، واقتصر الآخرون على يوم دفنه.

وأجمع العلماء على أن وفاة الطبري كانت ببغداد، وأنه دُفن فيها، لكن ابن خلكان ذكر أنه رأى بمصر في القرافة الصغرى عند سفح المقطم قبراً يُزار، وعند رأسه حجر مكتوب عليه «هذا قبر ابن جرير الطبري» والناس يقولون إنه صاحب التاريخ المشهور، ثم قال ابن خلكان جازماً: «إن هذا ليس بصحيح، بل الصحيح أنه دفن ببغداد، وكذلك قال ابن يونس في تاريخه المختص بالغرباء: «إنَّه توفي ببغداد»[٤].

قال ابن كثير: «ولمّا تُوفي اجتمع الناس من سائر أقطار بغداد: وصلوا عليه بداره، ودُفن بها، ومكثَ النَّاس يترددون إلى قبره يُصلُّون عليه»[٥].

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٩٤، إنباه الرواة ٣/٩٠.

(٢) تاريخ بغداد ٢/١٦٦، معجم الأدباء ١٨/٤٠، المحمدون ص ٢٦٥، إنباه الرواة ٣/٩٠، طبقات القراء ٢/١٠٨.

(٣) البداية والنهاية ١١/١٤٦، طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٦، تاريخ بغداد ٢/١٦٦، تهذيب الأسماء ١/٧٩.

(٤) وفيات الأعيان ٣/٣٣٢.

(٥) البداية والنهاية ١١/١٤٧، وانظر: المحمدون من الشعراء ص ٢٦٥، معجم الأدباء ١٨/٤٠.

وتأثر الناس على وفاة الطبري رحمه الله، وتألموا لفقده، ورثاه عدد من الخطباء والأدباء والشعراء وأهل العلم بالقصائد، نقتطف بعضها لجمالها الفني، ومعانيها السامية، وأفكارها الواضحة، وعواطفها الصادقة[1].

قال ابن الأعرابي:

حَدَثٌ مُفْظِعٌ وخَطْبٌ جليلٌ ... دَقَّ عن مثله اصطبارُ الصبورِ
قامَ ناعي العُلومِ أجمعَ لمّا ... قام ناعي محمد بنِ جريرِ
فهَوَت أنجم لها زاهرات ... مؤذناتٌ رُسُومَها بالدُّثورِ
وتغشّى ضِياءَها النيِّرَ الإشرا ... قِ ثوْبُ الدُّجنَّةِ الدَيْجورِ
وغدا رَوْضُها الأنيقُ هَشيماً ... ثم عادت سُهُولُها كالوُعورِ
يا أبا جعفرٍ مَضَيْتَ حَميداً ... غيرَ وانٍ في الجدِّ والتَشْميرِ
بين أجرٍ على اجتهادِك موفُو ... رٍ وسَعْيٍ إلى التُّقى مشكورِ
مستحقاً به الخلودَ لدى جنَّـ ... ـةِ عَدْنٍ في غبطة وسرور

وقال ابن دُرَيْد مَرْثاة طويلة، أوردها الخطيب البغدادي بتمامها[2]، ونقتطف منها بعض الأبيات:

لنْ تستطيعَ لأمرِ اللهِ تَعْقيبا ... فاستنجِدِ الصَّبْرَ أوْ فاستشعِرِ الحُوبا
وافزع إلى كنفِ التسليم وارضَ بما ... قضى المهيمنُ مكروهاً ومحبوبا
إن العَزَاء إذا عزَّته جائحةٌ ... ذلّت عريكتُه فانقاد مجنوبا
فإن قرنتَ إليه العزم أيّدَهُ ... حتى يعود إليه الحزن مغلوبا

(١) البداية والنهاية ١١/١٤٧، طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٦، تاريخ بغداد ٢/١٦٦، المحمدون من الشعراء ص ٢٦٤ وما بعدها.
(٢) تاريخ بغداد ٢/١٦٧ ـ ١٦٨، وانظر: سير أعلام النبلاء ١٤/٢٨٠.

فارم الأَسَى بالأُسى(١) يطفي مواقِعَها ... جمراً خلال ضلوع الصدر مَشْبُوبا
مَنْ صَاحَبَ الدهرَ لم يَعْدَم مُجَلْجِلَةً ... يظلُّ منها طوالَ العيش منكوبا
إنَّ البليّـةَ لا وَفْـرٌ تـزعـزعـه ... أيدي الحوادث تشتيتاً وتشذيبا
ولا تَفَـرُّقُ أُلَّافٍ يفـوت بـهم ... بَيْنٌ يغادر حبل الوصل مقضوبا
لكنَّ فِقدانَ من أضحى بمصرعه ... نور الهدى وبهاءُ العلم مسلوبا
أوْدَى أبو جَعْفرٍ والعلم مصطحباً ... أَعْظِم بذا صاحباً إذ ذاك مصحوبا
إنَّ المنيَّـة لم تُتلف بـه رجـلاً ... بل أتلفت عَلَماً للدين منصُوبا
أهدى الرَّدى للثَّرى إذ نال مُهْجته ... نجماً على من يعادي الحقَّ مصبوبا
كانَ الزمـانُ به تصفـو مشاربُـه ... فالآن أصبح بـالتكديـر مقطوبـا
كـلَّا وأيامـه الغُـرُّ التي جُعِلتْ ... للعلم نـوراً وللتقـوى محـاريبـا
لا ينسري الدَّهرُ عن شَبَه له أبداً ... ما استوقف الحج بالأنصَاب أرْكُوبا
لا يأمنُ العجْزَ والتقصيرَ مادحُه ... ولا يخاف على الإطناب تكذيبا
ودَّت بقاعُ بلاد اللهِ لـو جُعِلت ... قَبْـراً له فحبـاهـا جسمُـهُ طيبـا
كـانت حياتُـك للدنيا وسـاكِنِها ... نوراً، فأصبح عنها النورُ محجوبا
لو تعلم الأرضُ ما وَارَت لقد خشعت ... أقـطارُها لـك إجلالاً وتـرحيبـا
كنتَ المقوِّمَ من زَيْغ ومن ظَلَعٍ ... وفَّـاك نصحاً وتسـديداً وتـأديبـا
وكنتَ جـامـعَ أخـلاقٍ مـطهَّـرةٍ ... مهذَّباً من قِرافِ الجهل تهـذيبا

رحم الله الطبري، وأنزل عليه شآبيب رحمته، وأسكنه فسيح جنانه، وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً، فإن نَفَد عمره، وفني جسمه، فقد بقي ذكره، وعلت مآثره، وسمت روحه، وخلدت آثاره، لتكون له ذرية علمية، وتراثاً زاخراً، وثروة عظيمة، وتركة طيبة، ولذلك نكتفي بهذه السطور عن هويته الشخصية، لنتعرف على رحلاته العلمية.

---

(١) الأُسى الحزن، والأُسى جمع أسوة، كقوله تعالى ﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب/٢١].

المبحث الثاني
الطَّبَرِيُّ يَطْلُبُ العِلْمَ

العاقل يطلب العلم من المهد إلى اللحد، والإسلام أمر بالعلم والتزوّد منه، واكتساب الخبرة والتدبر في الكون، وجعل الحكمة ضالّة المؤمن أينما وجدها التقطها، ولا خير في يوم طلعت فيه الشمس لم يزدد فيه الإنسان علماً، والإسلام لم يحدد للعلم زمناً معيناً، وسناً محدداً يتوقف المرء عنده، وإنما أوجب عليه كسب المعرفة في كل وقت.

والإمام الطبري رحمه الله تعالى طبّق هذه القيم والمبادىء والحِكَم والتزم بها، وانقطع إلى العلم، وتفرّغ لتحصيله، وانكب عليه من الطفولة حتى آخر رَمَق من حياته، واستمر في جمع أدوات العلم وكتبه ومخطوطاته حتى في السنة التي توفي بها، وقد ناهز ستاً وثمانين سنة.

أولاً: الطبري يبدأ التعلم في آمُل:

بعد أن نشأ الطبري في بيت كريم، وأسرة عريقة، وتلقى التربية الإسلامية في البيت، ورضع لُبان المعرفة والآداب الدينية من أبويه، توجه إلى المساجد ومعاهد القرآن الكريم في بلده ومهبط رأسه آمُل، فحفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين، وأتقن قراءته وعرف أحكامه، فصلى بالناس إماماً وهو ابن ثماني سنوات، ثم بدأ يكتب الحديث، وهو في التاسعة، ووهب نفسه للعلم، وهو في مقتبل شبابه[1].

---

(١) انظر تاريخ التراث العربي ١/٢/١٥٩، معجم الأدباء ١٨/٤٩.

وظهرت على الطبري في طفولته سماتُ النبوغ الفكري، وبَدَت عليه مخايلُ التفتح الحادّ، والذكاء الخارق، والعقل المتَّقد، والملكات الممتازة، وأدرك والده ذلك، فعمل على تنميتها، وحرص على الإفادة والاستفادة منها، فوجهه إلى العلماء ومعاهد الدراسة، وساعده على استغلال كل هذه الطاقات دون أن يشغله بشيء من شؤون الحياة ومطالبها، ورأى له رؤيا تفاءل بها، كما سبق، وخصّص له المال للإنفاق على العلم والتعلم، وسرعان ما حقق الطبري أحلام والده، وزاد له في آماله وطموحه[1].

ثانياً: الطبري في بلاد فارس:

وبعد أن استوعب الطبري علوم بلده ازداد ظَمأً إلى العلم، وبدأ الرحلة في طلبه سنة ست وثلاثين ومائتين، وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وقيل بعد ذلك وله عشرون سنة، فجاب الآفاق، وأكثر التطواف، وانتقل من بلد إلى بلد[2].

وبدأ الطبري رحلته العلمية إلى البلاد المجاورة له في بلاد فارس، وتنقل بين مدن طَبَرستان، ثم اتجه إلى الري وما جاورها ليأخذ عن علمائها الحديث واللغة والتاريخ والتفسير في الليل والنهار، متنقلاً كالنحلة من عالم إلى آخر، ومغرِّداً كالطير من فن إلى غيره.

قال ابن كامل: «فأول ما كتب الحديث ببلده ثم بالري وما جاورها، وأكثر من الشيوخ حتى حصّل كثيراً من العلم، وأكثر من محمد بن حُميد الرَّازي، ومن المُثَنَّى بن إبراهيم الأُبُلِّي وغيرِهما»[3].

---

(١) انظر: معجم الأدباء ١٨/ ٤٩.

(٢) انظر: طبقات القراء ٢/ ١٠٧، لسان الميزان ٥/ ١٠٢، تاريخ الأدب العربي ٣/ ٤٥، ظهر الإسلام ٢/ ٢٠٣.

(٣) معجم الأدباء ١٨/ ٤٩، وانظر: تاريخ التراث العربي ١/ ٢/ ١٥٩، طبقات =

وحدّث الطبري نفسه فقال: «كنّا نكتب عند محمد بن حُميد الرازيّ، فيخرج إلينا في الليل مرات، ويسألنا عما كتبناه، ويقرؤه علينا»، قال: «وكنا نمضي إلى أحمد بن حَمّاد الدُّولابي، وكان في قرية من قرى الرَّيِّ، بينها وبين الرَّي قطعة، ثم نَغْدو كالمجانين حتى نصير إلى ابن حُميد فنلحق مجلسه»[1].

قال ياقوت: «وكتب عن أحمد بن حمَّاد كتاب المبتدأ والمغازي عن سلمة بن المفضَّل، عن محمد بن إسحاق، وعليه بنى تاريخه، ويقال: إنه كتب عن ابن حُميد فوق مائة ألف حديث، قال أبو جعفر: كان يقرأ علينا ابن حُميد من التفسير»[2].

وأخذ فقه أهل الرأي عن أبي مقاتل بالريّ.

ثم بدأت أحلامه بالتوسع، وازداد حبُّه للعلم، وتهيّج شوقه إلى العلماء، وتلظى ظمؤه إلى المعرفة بعد ما ذاقها وعرفها، لأن جبلة الإنسان تدعوه لزيادة النهم العلمي كلما توسع فيه، لما ورد في الأثر عن الحسن أنه قال: «مَنْهومان لا يشبعان، منهوم في العلم لا يشبع منه، ومنهوم في الدنيا لا يشبع منها»[3]، وهذا ما حصل مع الطبري رحمه الله تعالى في طلب العلم، ودفعه للخروج من دائرة فارس ليتجه إلى العراق وما وراءه.

ثالثاً: الطبري في العراق:

اتجه الطبري إلى العراق بشوق ورغبة، ليحصّل العلم من علماء

= الشافعية الكبرى ٣/ ١٢٠.

(١) معجم الأدباء ١٨/ ٤٩.

(٢) معجم الأدباء ١٨/ ٥٠.

(٣) سنن الدارمي ١/ ٩٦.

الأمصار المختلفة، ويأخذ الحديث من أفواه الأئمة مباشرة، ويمّم وجهه إلى بغداد للالتقاء بالإمام أحمد بن حنبل، ولكن المنيَّة عاجلت الإمامَ أحمدَ فتوفي سنة ٢٤١ هـ قبل أن يصل إليها أبو جعفر، فأقام أبو جعفر بمدينة السلام، وهي عاصمة الدولة العباسية، وحاضرة العلم والعلماء، فكتب عن شيوخها وأكثر عنهم، وسمع الحديث من محدثيها، والفقه من العلماء والفقهاء على مختلف المذاهب[١].

ثم انحدر إلى البصرة، ليسمع الحديث ممن بقي من شيوخها في وقته، كمحمد بن موسى الحَرَشِيّ، وعماد بن موسى القَزّاز، ومحمد بن عبد الأعلى الصنعاني، وبشر بن مُعَاذٍ، وأبي الأشعث، ومحمد بن بشّار ابن بُنْدار، ومحمد بن المُعَنَّى أو المعلى[٢].

وانتقل الطبري بعد البصرة إلى واسط، وسمع العلوم والحديث من بعض شيوخها[٣].

ثم صار إلى الكوفة، وأخذ العلم عن كبار علمائها، وكتب الحديث فيها عن أبي كُرَيْب محمد بن العلاء الهَمَذاني (٢٤٨ هـ) وهنّاد بن السَّرِيّ (٢٤٣ هـ) وإسماعيل بن موسى (٢٤٥ هـ) وغيرهم، ويقال: إنه سمع من أبي كُرَيب أكثر من مائة ألف حديث[٤]، وأخذ القراءات عن سليمان الطَلْحي[٥].

وبعد أن جمع علم البصرة وواسط والكوفة رجع ثانية إلى بغداد، لأنه لم يرتوِ منها في المرة الأولى، وفيها من العلم والعلماء ما يحتاج لوقت

---

(١) معجم الأدباء ١٨/ ٥٠.
(٢) معجم الأدباء ١٨/ ٥٠.
(٣) معجم الأدباء ١٨/ ٥١.
(٤) معجم الأدباء ١٨/ ٥١ ـ ٥٢.
(٥) الطبري للحوفي ص ٣٥.

آخر، واندفع إلى دار السلام فكتب بها، ولزم المقام بها مدة، ودرس علوم القرآن عامة، وعلم القراءات خاصة على أحمد بن يوسف التغلبي، وتلقى فقه الشافعي عن الحسن بن محمد الصبّاح الزعفراني (٢٦٠ هـ) وكتب عنه كتاباً في الفقه، ودرسه في بغداد على جماعة منهم أبو سعيد الإِصْطَخْرِيّ (٣٢٨ هـ) وغيره، وظهرت في بغداد شهرته العلمية، وعرفته محافل الدراسة، وأقر بفضله وعلمه العلماء، ودرس الفقه الظاهري على داود بن علي (٢٧٠ هـ) مباشرة[١]، وبعد أن ملأ جعبته العلمية من العراق، أراد أن ينوّع مصادره، ويجدّد ينابيعه، ليطّلع على ألوان شهية فغرّب إلى الشام ومصر.

رابعاً: الطبري في الشام:

كانت الشام حاضرة الدولة الأموية، وكانت دمشق تفوح بعطرها على العالم سياسياً وإدارياً وفكرياً وعلمياً في عهد بني أمية، وبقيت مشاعل العلم تشعّ فيها لتضيء دروب البشرية، وكانت موئل العلماء، ومقصد الباحثين والرحالة، فيمّم الطبريُّ وجهه نحوها، وزار المدن بأجناد الشام والسواحل والثغور، وأخذ القرآن الكريم برواية الشاميين عن العباس ابن الوليد المقرىء البَيْروتي، وأقام مدة في بيروت يلتقي به، وذهب إلى مصر ثم عاد إلى الشام ثانية[٢].

خامساً: الطبري في مصر:

كان الطبري يشتاق إلى مصر وعلمائها، وكانت نفسه تهفو إليها، ويرغب بزيارتها، لأنها كانت غَنِيَّةً بعلمائها، ثريَّة بخيراتها وعطائها، فلم يستقر الطبري طويلاً في بلاد الشام حتى اندفع إلى مصر، فوصل إليها

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٥٣، ٥٤، الأعلام ٣/٨، الفهرست ص ٣٢٦.

(٢) معجم الأدباء ١٨/٥٢، طبقات القراء ٢/١٠٧.

سنة ٢٥٣ هـ في أوائل عهد أحمد بن طولون، وصار إلى الفسطاط، وكان بها بقية من الشيوخ وأهل العلم فأكثر عنهم الكِتابة، وأخذ فقه الإمام مالك على تلاميذ أبي محمد عبدالله بن وهب المتوفى سنة ١٩٦ هـ، وهم يونس بن عبد الأعلى وبنو عبد الحكم: محمد وعبد الرحمن وسعد، وابن أخي ابن وهب، كما درس فقه الإمام الشافعي على يد تلاميذه كالرَّبيع بن سليمان المراديّ (٢٧٠ هـ) والرَّبيع ابن سليمان الأزْدي الجيزيّ (٢٥٦ هـ) وإسماعيل بن يحيى بن إبراهيم المزنيّ (٢٦٤ هـ) ومحمد بن عبدالله بن عبد الحكم (٢٦٨ هـ) الذي جمع بين مذهب مالك ومذهب الشافعي.

أقام الطبري مدة بمصر ثم رغب بالعودة إلى الشام، فقضى إربه العلمي بالشام، ثم رجع ثانية إلى مصر (سنة ٢٥٦ هـ/ ٨٧٠ م) فالتقى يونس بن عبد الأعلى الصَّدفي، وأخذ عنه قراءة حمزة وورش، وكان بمصر وقت دخول الطبري إليها أبو الحسن علي بنُ سراج المصري (٣٠٨ هـ)، وكان متأدّباً فاضلاً، ويَلْقى من يَفِدُ إلى مصر، فتعرّض إلى الطبري وبان له فضله في علوم اللغة، وسأله عن شعر الطِّرماح، وكان الطبريّ يحفظه عن ظهر قلب، فوجده فاضلاً في كل ما يذاكره به من الأدب والعلم والشعر(١)، ودرس الطبري بمصر العَروض بعد أن سئل عنه وأصبح عروضياً(٣).

سادساً: العودة إلى الوطن:

وبعد هذه الرحلة العلمية المباركة عاود الطبريَّ الحنينُ إلى الوطن، فترك مصر، ورجع إلى وطنه، وفي الطريق قصد مدينة السلام بغداد،

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٥٢، ٥٣، طبقات القراء ٢/١٠٧، الفهرست ص ٣٢٦، الطبري للحوفي ص ٣٧، الطبري للمصلح ص ١٧، ٢٣.

(٢) معجم الأدباء ١٨/٥٦.

وكتب فيها العلم، ثم عاد إلى طبرستان، ثم إلى مسقط رأسه وديار آبائه، وهو العالم المتمكِّن، والباحث القدير، والمناظر الفريد، والداعية العامل، وكانت هذه الزيارة لطبرستان هي الأولى منذ أن فارقها في طلب العلم، ولم يُطِل المقامَ في بلده فرجع إلى بغداد، ونزل في قَنْطَرة البَرَدان، واشتهر اسمه في العلم، وشاع خبره بالفهم والتقدم[1].

ثم عاد الطبري ثانية إلى طبرستان سنة ٢٩٠ هـ، ومكث قليلاً، ثم جذبته بغداد مرة أخرى[2].

سابعاً: استقرار الطبري في بغداد:

وآن للمسافر أن يحطّ رحاله، ويلقي ترحاله، فاستقر الطبري في بغداد، وأقام بها، وانقطع فيها للتدريس والتأليف إلى أن ودّع الحياة، وكانت بغداد مركز الفقهاء والعلماء والأدباء والنحويين والمتأدِّبين فالتقى الطبري بهم، وتسامر معهم، وأخذ منهم وأعطى، ونال الثناء العاطر، والمكانة العليا في نفوسهم، واحتل مركز الصدارة، وكانت له مناظرات وجولات مع معظم أهل العلم[3].

قال الخطيب البغدادي: «استوطن بغداد، وأقام بها إلى حين وفاته»[4].

وبذلك يختم الطبري حياته العلمية ورحلته في طلب العلم مع آخر لحظة من حياته سنة ٣١٠ هـ، بعد أن بذل فيه جميع أوقاته، ووهب له حياته، وتفرّغ في جمعه، ورحل في طلبه، وعكف على التصنيف

(١) معجم الأدباء ١٨/٥٦، الطبري للحوفي ص ٤٠، الطبري للمصلح ص ١٨.
(٢) معجم الأدباء ١٨/٥٦.
(٣) معجم الأدباء ١٨/٦٠، ٦١، الطبري للحوفي ص ٤١.
(٤) تاريخ بغداد ٢/١٦٣، وانظر: معجم الأدباء ١٨/٤١.

والتأليف، وجمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وصار الطبري رحمه الله تعالى موسوعة علمية، ودائرة معارف، نسّقها في عقله وفكره، وقدَّمها لطلابه وتلاميذه، وسكبها بإتقان وجودة في كتبه التي تدل على غزارة علمه وفضله، وبعد هذه الرحلة في طلب العلم وتحصيله، والسعي في مناكب الأرض، وأداء وظيفة الإنسان في الحياة يعود الطبري إلى ربه راضياً مرضياً، فيُدفن في التراب من حيث أتى، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ [طه/ ٥٥].

ثامناً: العلم من المهد إلى اللحد:

ولكن الطبري رحمه الله حقّق عملياً وتطبيقياً وسلوكياً المثل القائل «اطلبوا العِلْمَ من المَهْدِ إلى اللَّحْدِ» فبدأ التعلّم في أحضان والديه، وحفظ القرآن في كنف أسرته، واستمر حتى بلغ السادسة والثمانين من عمره، فلم تفتر عزيمته، ولم يخِفَّ نشاطه، ولم يَجِفَّ قلمه، وبقي أمله في العلم، وتفاؤله في خدمة الدين حتى هذه السنة، وكان في شيخوخته قد بدأ بعدة كتب، وقطع في كل منها شوطاً، ولم يتمها، كفضائل علي، وفضائل أبي بكر وعمر، وفضائل العباس بن عبد المطلب رضي الله عنهم، والموجز في الأصول، وتهذيب الآثار، كما وعد وقطع بكتاب الآدَر في الأصول، ولم يخرج منه شيء، وأراد أن يعمل كتاباً في القياس فلم يعمله(١).

قال أبو القاسم الحسين بن حُبَيْش الورَّاقِ: «كان قد التمس مني أبو جعفر أن أجمع له كتب الناس في القياس، فجمعتُ له نَيِّفاً وثلاثين كتاباً، فأقامت عنده مُدَيْدَة، ثم كان من قطعه للحديث قبل موته بشهور ما

(١) معجم الأدباء ١٨/ ٨١.

كان، فردَّها عليّ، وفيها علامات له بحمرة قد علَّم عليها»[1].

وهكذا كانت همة الشيخ قبيل المرض تتجه إلى التصنيف، وزيادة التأليف، فكانت همّةً جبارة بأن يطلب جمع الكتب في الموضوع ليدرسها، ويعتمد عليها، وينقِّح آراءها، ويعرض الأقوال منها، ويبرهن على كل منها، ويستدل لكل مذهب، ثم يبدي رأيه، ويدلي بدلوه، ويعلن الراجح والحق والصواب الذي وصل إليه، كما كان منهجه في سائر كتبه، ليختتم عمره وحياته في العلم، ويلقى وجه ربه بنفس مطمئنة، ليدخل في عباد الله الصالحين، لما روى ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «منْ جاءَه أجلُه، وهو يطلبُ العلم، لقي الله ولم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة النبوة»[2]، وكتب الطبري رحمه الله الكثير مما لا يمكن لإنسان أن يفعله إلا بتوفيق الله تعالى، حتى وصل إنتاجه إلى ستين ألف ورقة، وإن مداد العلماء لَيُوزن بدماء الشهداء، فهنيئاً له ما قدم، ونسأل الله تعالى أن ينفعنا والمسلمين بعلمه، وأن نستضيء بمشاعل نوره.

(١) المرجع السابق ١٨/ ٨١.
(٢) رواه الطبراني في الأوسط، وانظر فضل العلم والترغيب فيه ومكانة العلماء في كتاب الترغيب والترهيب للمنذري (١/ ٩٢ وما بعدها).

المبحث الثالث

إنتاج الطبري وآثاره

أولاً: العلوم التي جمعها الطبري:

لم يقتصر الطبري رحمه الله تعالى على فن وعلم واحد، بل جمع مختلف العلوم الشرعية واللغوية وغيرها، وكان إماماً فيها.

فكان الطبري رحمه الله إماماً في السُّنة وعلوم الحديث، وعدَّه النووي رحمه الله من طبقة الترمذي والنسائي، وسمع الحديث من كثيرين، بعضهم من شيوخ البخاري ومسلم، وحدَّث عنه خلائق من الناس، وصنف في ذلك الكتب النافعة المفيدة، كما سنرى.

وكان الطبري إماماً في القراءات وعلوم القرآن فحفظ القرآن الكريم في صغره، ثم جمع القراءات، واختار لنفسه قراءة، وصنف في القراءات، ودرس التفسير بتعمّق، وصنف تفسير القرآن «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» الذي ضمَّ فيه علوم القرآن المختلفة حتى اعتبر إمام المفسرين أو شيخ المفسرين، كما سنرى.

وكان الطبري إماماً في الفقه، وعلم الخلاف، والفقه المقارن، واختلاف العلماء، وكان من الأئمة المجتهدين، وصاحب مذهب مستقل، وتبعه بعض الناس على مذهبه، وصنف الكتب الجياد في الفقه العام، والفقه المقارن، والفقه المذهبي، كما سنرى.

ويعتبر الطبري إماماً في علم التاريخ، وهو شيخ المؤرخين، وصنف كتابه العظيم «تاريخ الرسل والملوك» وكتابه تاريخ الرجال من الصحابة

والتابعين إلى شيوخه، المعروف «بذيل المذيَّل»، وغيرهما من الكتب، وهو ما نفرده في فصل مستقل.

وكان الطبري مبرِّزاً في علوم العربية من المعاني واللغة والنحو والصرف والعَروض والبيان، وكان عالماً بالفلسفة والمنطق والجدل، وكان عنده شيء من علم الطب والجبر والرياضيات، وكان فصيح اللسان، وله نظم وشعر.

وكان الطبري عالماً بأصول الدين والتوحيد وعلم الكلام، وله كتب في ذلك، وكان عالماً بالحديث، فهو الحافظ المحدث، وصنف الكتب في علم الحديث ومصطلحه، والتزم بمنهج المحدثين في معظم كتبه، وكان عالماً بأصول الفقه وقواعد الاجتهاد والاستنباط، وصنف فيه وعمل به، وكان الطبري عالماً بآداب النفس وعلم الأخلاق والتربية، وصنف فيها، كما سنرى.

قال الخوانساري: «وله مصنفات مليحة في فنون عديدة، تدل على سعة علمه، وغزارة فضله، وكان من الأئمة المجتهدين»[1] ولم يكن الطبري رحمه الله تعالى يعلم طرفاً من هذه العلوم جميعها، أو مطلعاً عليها بل كان متقناً لكلٍ منها علماً وفهماً ودراسة، وتدريساً وتعليماً، وتطبيقاً والتزاماً، ومناظرةً وحفظاً وتصنيفاً.

وصفه الخطيب البغدادي فقال: «وكان أحدَ أئمةِ العلماء، يُحكم بقوله، ويُرجع إلى رأيه، لمعرفته وفضْلِه، وكان قد جمـعَ من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظاً لكتاب الله تعالى، عارفاً بالقراءات، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسُّنن

---

(١) روضات الجنات ٢٩٢/٧، وهذا النص نقله عن ابن خلكان في وفيات الأعيان ٣٣٢/٣.

وطُرُقها، صحيحها وسقيمها، ناسخها ومنسوخها، عارِفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدَهم من الخالِفين في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، عارفاً بِأيام النَّاس وأخبارهم، وله الكتابُ المشهور في «تاريخ الأمم والملوك» وكتاب في التفسير لم يُصنِّف أحدٌ مثلَه، وكتاب سماه «تهذيب الآثار» لم أرَ سواه في معناه إلا أنه لم يتمه، وله في أصول الفقه وفروعه كتبٌ كثيرة، واختيارٌ من أقاويل الفقهاء، وتفرَّد بمسائل حُفظت عنه»[1].

ونقل ياقوت الحموي وصف الطبري عن أبي محمد عبد العزيز بن محمد الطبري، فقال: «كان أبو جعفر من الفضل والعلم، والذكاء والحفظ على ما لا يجهله أحدٌ عَرَفه، لجمعه من علوم الإِسلام ما لم نعلمه اجتمع لأحدٍ من هذه الأمة، ولا ظهر من كتب المصنفين، وانتشر من كتب المؤلفين ما انتشر له، وكان راجحاً في علوم القرآن والقراءات وعلم التاريخ من الرسلِ والخلفاء والملوك، واختلاف الفقهاء مع الرواية. . .، وقد بانَ فضلُه في علم اللغة والنحو على ما ذكره في كتاب التفسير وكتاب التهذيب مُخْبراً عن حاله فيه، وقد كان له قدم في علم الجدل. . .، وكان يحفظ الشعر للجاهلية والإسلام ما لا يجهله إلا جاهل به. . .، وكان أبو جعفر قد نظر في المنطق والحساب والجبر والمقابلة وكثيرٍ من فنون أبواب الحساب، وفي الطب، وأخذ منه قسطاً وافراً يدل عليه كلامه في الوصايا. . .، وكان كالقارىء الذي لا يعرف إلا القرآن، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث، وكالفقيه الذي لا يعرف إلا الفقه، وكالنحوي الذي لا يعرف إلا النحو، وكالحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب، وكان عالماً بالعبادات، جامعاً للعلوم، وإذا

---

(١) تاريخ بغداد ٢/١٦٣، وانظر معجم الأدباء ١٨/٤١، تهذيب الأسماء ١/٧٨، ظهر الإسلام ٢/٢٠٣.

جمعتَ بين كتبه وكتبِ غيره وجدتَ لكتبه فَضْلًا على غيرها»[1].

وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة: «ما أعلم تحت أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير»[2].

وقال أبو علي الحسن بن علي الأَهْوازي المقرىء: «كان أبو جعفر الطبري عالماً بالفقه والحديث والتفاسير والنحو واللغة والعروض، له في جميع ذلك تصانيف فاق بها على سائر المصنفين»[3].

وقال ابن النديم: «وأدرك الأسانيد العالية بمصر والشام والعراق والكوفة والبصرة والري، وكان متفنناً في جميع العلوم: علم القرآن والنحو، والشعر، واللغة، والفقه، كثيرَ الحفظ»[4].

وقال ابن خلكان: «كان إماماً في فنون كثيرة، منها التفسير والحديث والفقه والتاريخ وغير ذلك، وله مصنفات مليحة في فنون عديدة، تدل على سعة علمه وغزارة فضله»[5].

وقال أبو العباس بن سُرَيْج: «محمد بن جرير الطبري فقيه العالم»[6].

وقال الحافظ الذهبي عن الطبري: «الإمام العلَم الفرد، الحافظ أبو جعفر الطبري، أحد الأعلام، وصاحب التصانيف»[7] وقال أيضاً:

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٥٩ ـ ٦١.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات ١/٧٩، البداية والنهاية ١١/١٤٦.

(٣) معجم الأدباء ١٨/٤٥.

(٤) الفهرست ١/٣٢٦ ـ ٣٢٧.

(٥) وفيات الأعيان ٣/٣٣٢.

(٦) طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٣، وقال طاش كبري زادة عن الطبري: «أحد أئمة الدنيا علماً وديناً» مفتاح السعادة ٢/٣١٥.

(٧) تذكرة الحفاظ ٢/٧١٠.

«كان ثقة، صادقاً، حافظاً، رأساً في التفسير، إماماً في الفقه والإجماع، والاختلاف، علاّمة في التاريخ وأيام الناس، عارفاً بالقراءات وباللغة وغير ذلك»[1].

وهذا يدل على ما يتمتع به الطبري من الملكـة العقلية، والتفوّق العلمي، والنبوغ الفكري، الذي كان حافزاً لوالده أن يرعاه في صغره، ويأمل فيه الخير والكثير، ويبذل له المال الدائم، وييسر له النفقات في سبيل طلب العلم، والتفرغ له، والاستزادة منه، والرحلة إلى منابعه ومصادره، وتوفير كل طاقاته للسهر على تحصيله، وصيانة وقته لذلك، دون أن يحتاج للتكسب أو العمل، فجنى الخير العميم في العلوم المختلفة حتى أصبح موسوعة علمية، ودائرة معارف، ينهل منها طلابه، ثم دوّنها في كتبه ومصنفاته لتستفيد منه الأجيال اللاحقة، وتدخر له إلى يوم الدين، وتخلد على مر التاريخ، وتصبح مرجعاً للعلماء في كل عصر، ومصدراً للباحثين في كل مكان، وموئلاً لروّاد المعرفة، وحجّة لطلاب الحق.

ثانياً: مؤلفات الطبري وكتبه:

وهنا نَسْرد أسماء الكتب والمصنفات التي خلَّفها الطبري، وذكرها علماء التاريخ والتراجم في سيرة الطبري، ونكتفي بعرضها تعداداً، ونرجىء دراستها وبيان محتوياتها ومنهجها إلى الفصول الخـاصة لدراسة الطبري، في كل علم من العلوم، وهذه الكتب هي[2]:

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٧٠.

(٢) انظر: معجم الأدباء ١٨/ ٤٢ وما بعدها، تاريخ بغداد ٢/ ١٦٣، طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ١٢١، تذكرة الحفاظ ٢/ ٧١١، مفتاح السعادة ١/ ٤١٦، ٢/ ١٢٦، تاريخ التراث العربي ١/ ٢/ ١٦٢، تاريخ الأدب العربي ٣/ ٤٥ وما بعدها، =

١ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المعروف بتفسير الطبري، وهو موجود، وطبع عدة مرات.
٢ ـ تاريخ الأمم والملوك، المعروف بتاريخ الطبري، وهو موجود ومطبوع.
٣ ـ كتاب ذَيْل المذيَّل، طبع منه جزء، وسوف نعرض له مع كتاب التاريخ تفصيلاً.
٤ ـ اختلاف علماء الأمصار في أحكام شرائع الإسلام، المعروف باختلاف الفقهاء، وهو في علم الخلاف، وبقي منه جزء، وطبع.
٥ ـ لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام، وهو كتاب فقه في المذهب الجريري.
٦ ـ الخفيف في أحكام شرائع الإسلام، في الفقه، وهو مختصر لكتاب «اللطيف».
٧ ـ بسيط القول في أحكام شرائع الإسلام، وهو في تاريخ الفقه الإسلامي ورجاله وأبوابه.
٨ ـ تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار، وسماه القفطي «شرح الآثار» وهو كتاب في الحديث، بقيت منه بقايا طبعت في أربع مجلدات.
٩ ـ آداب القضاة، وهو في الفقه عن أحكام القضاء وأخبار القضاة.
١٠ ـ أدب النفوس الجيدة والأخلاق الحميدة.
١١ ـ كتاب المسنَد المجرَّد، ذكر فيه الطبري حديثه عن الشيوخ، بما قرأه على الناس.
١٢ ـ الرَّد على ذي الأسفار، وهو رد على داود بن عليّ الأصْبهاني مؤسس المذهب الظاهري.

= كشف الظنون ١/٦٤، ٣٠٣، إنباه الرواة ٣/٩٠، الطبري للحوفي ٨٩، الفهرست ص ٣٢٦، الطبري للمصلح ص ٣٨.

١٣ ـ كتاب القراءات وتنزيل القرآن، وسنعرضه مفصّلاً فيما بعد، ويوجد منه نسخة خطية بالأزهر.

١٤ ـ صريح السنة، وهي رسالة في عدة أوراق في أصول الدين.

١٥ ـ البصير في معالم الدين، وهو رسالة في أصول الدين، كتبها لأهل طبرستان فيما وقع بينهم من الخلاف في الاسم والمسمى، وذكر مذاهب أهل البدع والرد عليهم، وسوف نعود إليه.

١٦ ـ فضائل علي بن أبي طالب، وهو كتاب في الحديث والتراجم، ولم يتمه الطبري رحمه الله.

١٧ ـ فضائل أبي بكر وعمر، ولم يتمه.

١٨ ـ فضائل العباس، ولم يتمه.

١٩ ـ كتاب في عبارة الرؤيا في الحديث، مات ولم يتمه.

٢٠ ـ مختصر مناسك الحج.

٢١ ـ مختصر الفرائض.

٢٢ ـ الرد على ابن عبد الحكم على مالك، في علم الخلاف والفقه المقارن.

٢٣ ـ الموجز في الأصول، ابتدأه برسالة الأخلاق، ولم يتمه.

٢٤ ـ الرمي بالنشاب، أو رمي القوس، وهو كتاب صغير، ويشك في نسبته إلى الطبري.

٢٥ ـ الرسالة في أصول الفقه، ذكرها الطبري في ثنايا كتبه، ولعلها على شاكلة «الرسالة» للإمام الشافعي في أصول الاجتهاد والاستنباط.

٢٦ ـ العدد والتنزيل.

٢٧ ـ مسند ابن عباس، ولعله الجزء الخاص من كتاب «تهذيب الآثار» وطبعت البقية الباقية منه في مجلدين.

٢٨ ـ كتاب المسترشد.

٢٩ ـ اختيار من أقاويل الفقهاء.

وهـذه الكتب الأربعة الأخيـرة لم يذكـرها يـاقـوت في «معجم الأدباء»[١].

ثالثاً: السمات العامة لإنتاج الطبري:

يظهر لنا من الاستعراض السريع لكتب الإمام الطبري ومصنفاته بعض السمات العامة التي نسجلها الآن، ونترك الدراسة التفصيلية للفصول القادمة التي تتولى الناحية الموضوعية لعلم الطبري وإنتاجه.

تدل كتب الطبري على غزارة علمه، وسعة ثقافته، ودقته في اختيار العلوم الشرعية والأحكام المتعلقة بها.

وكان فصيح اللسان، جيد اللغة، ناصع البيان، صحيح الأسلوب، متحرزاً من الأخطاء اللغوية والنحوية.

وله قلم سيّال، ونَفَس طويل، وصبر على البحث والدرس، فكان يعتكف على التصنيف، وكتابة الموسوعات العلمية في صنوف العلم، مع ما منَّ الله عليه من ذكاء خارق، وعقل متفتّح، وجَلَد على تحمّل المشاق.

قال الخطيب البغدادي: «وسمعت علي بن عبيد الله بن عبد الغفّار اللغوي السِّمْسِمي يحكي: أن محمد بن جرير مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم أربعين ورقة»[٢]، وهذا يعني أنه كتب نحو ستمائة ألف ورقة.

---

(١) الطبري للحوفي ص ٩٨.

(٢) تاريخ بغداد ٢/١٦٣، وانظر: معجم الأدباء ١٨/٤١، تذكرة الحفاظ ٢/٧١١، طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٢، مفتاح السعادة ١/٤١٦، ٢/١٥٦، الطبري للمصلح ص ٣٧.

ونقل ياقوت الحموي قال: «وحدّث عبدالله بن أحمد بن جعفر الفَرْغاني في كتابه المعروف بكتاب الصِّلة، وهو كتاب وصل به تاريخ ابن جرير: أن قوماً من تلاميذ ابن جرير حصَّلوا أيام حياته منذُ بلغ الحُلُم إلى أن توفي، وهو ابن ست وثمانين، ثم قسَّموا عليها أوراق مصنفاته، فصار منها على كل يوم أربع عشرة ورقة، وهذا شيء لا يتهيّأ لمخلوق إلا بحسن عناية الخالق»[1].

وحدّث الخطيب البغدادي عن القاضي أبي عمر عبيد الله بن أحمد السِّمسار وأبي القاسم بن عقيل الورّاق أن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه «أَتَنْشَطُون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ قال: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: هذا مما يُفْني الأعمار قبل تمامه، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة. ثم قال: تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا، قالوا: كم قدره؟ فذكر نحواً مما ذكره في التفسير، فأجابوه بمثل ذلك، فقال: ماتتِ الهِمم، فاختصرَه في نحوٍ مما اختصر التفسير»[2].

ولم يكن إنتاج الطبري بالغثّ، بل كان سميناً ودسماً ومحيطاً بموضوع البحث وما قيل فيه، ولم يكن مجرد جمع وتدوين لكتب غيره، بل كان ينتقي ويختار، وكانت شخصيته بارزة، وتحليله واضحاً، وتعليله دقيقاً، وتعمقه ظاهراً، وترجيحاته متوفرة تقريباً في كل العلوم والروايات والآراء والأقوال، وكان يصرح بالرأي المختار، والصواب من الأقوال، مع الأمانة العلمية، ونسبة الآراء إلى أصحابها، وعزو الأقوال إلى مصادرها، مع كل الثقة بالنفس والحفظ والضبط، والأدب الجمّ، والتقدير لمن سبقه، والاحترام للناس، مع حملة شديدة على المنحرفين والشاذّين.

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٤٤، وانظر: ظهر الإسلام ٢/٢٠٣.

(٢) تاريخ بغداد ٢/١٦٣، وانظر: معجم الأدباء ١٨/٤٢.

وقد سلمت بعض هذه الكتب من عوادي الدهر، وحوادث الأيام، ونكبات التاريخ، ونجت من الحرق والإتلاف والغَرَق والضياع، ولكن فُقِدَ القسم الأكبر، وضاع معظمه، ولا يزال الأمل كبيراً في العثور على شيء منه.

ومن أهمّ ما تناقلته الأجيال ودلّ على عظمة الطبري، وخلّد ذكره، حتى وصل إلينا سالماً، وطُبع عدة مرات: كتاب تفسير القرآن الكريم «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» في ثلاثين مجلداً، وكتاب التاريخ «تاريخ الأمم والملوك» في ثمانية مجلدات، وقطعتين من كتاب «اختلاف الفقهاء» نشر كلاً منهما أحدُ المستشرقين، وأربع قطع من كتاب «تهذيب الآثار» تمثل جزءاً من مسند عمر بن الخطاب، ومسند علي بن أبي طالب، ومسند عبدالله بن عباس رضي الله عنهم، وهي آخر ما طبع ونشر من كتب الطبري في القاهرة والرياض.

ويوجد بعض النسخ الخطية الأخرى لبعض كتبه مما لم ير النور حتى الآن، وتتجه الأنظار إلى تحقيقها ونشرها.

وسوف نبين ذلك بتفصيل في الفصول الأخيرة، إن شاء الله تعالى، لبيان محتويات هذه الكتب، وموضوعاتها الأساسية، ومنهجها، وخصائصها، والمنشور منها والمطبوع والمخطوط، والموجود والمفقود.

رابعاً: تلاميذ الطبري وأتباعه:

لم يكن إنتاج الطبري محصوراً في كتبه ومصنفاته، ولم يكن الطبري محبوساً بين الجدران الأربعة، وبين أكوام الكتب والمخطوطات، ولم يعش الطبري في بُرْجٍ عاجيّ، بعيداً عن الحياة والمجتمع والأمة والأحداث، ومتفرّغاً للتصنيف والتأليف حتى قدَّم كل هذا العطاء، وإنما كان الطبري منفتحاً على الحياة والناس، سواء في مرحلة الطلب

والدراسة، وفي أثناء الرحلة والانتقال، وعند الاستقرار والثبات، وكان اجتماعياً ودَمِثاً كما سنرى، ويلتقي العلماء من جميع الأصناف، ثم يخالط الناس، ويستمع إلى مشاكلهم، وما يجري معهم، ويتقبّل أسئلتهم، ويعطي الفتاوى لهم، ويُملي على طلابه وتلامذته، ويقرىء القرآن والقراءات[1]، ويحدث بآثار رسول الله ﷺ، ويصلي إماماً في الجماعة ويقصده الناس والقرّاء للصلاة خلفه وسماع قراءته وتجويده[2].

كما كان الطبري يناظر الأئمة في عصره، ويجادل العلماء من أتباع المذاهب الأخرى، ويتبارى مع المحدثين في الأسانيد والمعاني، ويدلي بآرائه وأدلته وحججه فيما يذهب إليه[3].

كما كان الطبري إماماً في الفقه، وصاحب مذهب، وله أتباع وتلاميذ، أخذوا علمه، وحملوا فقهه، ونشروا مذهبه، وعملوا به في الحياة والقضاء أكثر من مائة سنة إلى أن انقرض واندثر من الحياة والتطبيق[4].

لذلك نعتبر أنّ إنتاج الطبريّ وآثاره لا تنحصر في كتبه ومصنفاته، وإنما تشمل طلابه وتلاميذه وأتباعه ومواقفه ومناظراته، ولا نريد أن نفرد

---

(١) قال ابن كامل: «وكان عند أبي جعفر رواية وَرْش عن نافع... وكان يُقصد فيها» (معجم الأدباء ١٨/٦٧).

(٢) قال عبد العزيز بن محمد الطبري: «وكان أبو جعفر مجوِّداً في القراءة، موصوفاً بذلك، يقصده القُرّاء البُعَداء من الناس للصلاة خلفه يسمعون قراءته وتجويده» (معجم الأدباء ١٨/٦٦).

(٣) انظر مناظرته مع المزني، ولقاءه مع ثعلب، ومذاكرته مع ابن حمدان وغيرهم في (معجم الأدباء ١٨/٥٤، ٥٦، ٦٠).

(٤) سأل أبو بكر بن مجاهد أبا بكر بن كامل: «على مذهب من تتفقه؟ فقال على مذهب أبي جعفر الطبري، فقال: رحم الله أبا جعفر» (معجم الأدباء ١٨/٥٤).

هنا أسماء تلاميذه وأتباعه، لأنه ورد بعضهم ضمناً في البحث، وسوف نخصص بعضهم في الفصول القادمة عند كل علم من العلوم.

وكان الطبري رحمه الله يحنو على تلاميذه وطلابه، ويعتبرهم كأبناء وأولاد له، فقد حرم نعمة الأبوة، فكان أباً لطلابه، والعلم رَحِمٌ بين أهله، وقد يفوق نسب العلم نسب الدم، وخاصة بالنسبة للإمام، لأن طلابه سيحملون علمه، وينشرون مذهبه، وينقلون حججه وآراه، وينافحون عنه، وينسخون كتبه.

وكان الطبري رحمه الله يعامل طلابه معاملة كريمة، ويحبهم ويحبونه، ويعطف عليهم، ويساوي بينهم، ويمتنع أن يفاضل بينهم، أو يخصَّ أحدهم بعلم، وإذا غاب أحدهم سأل عنه، وأخّر الدرس والقراءة حتى يحضر، وهذه بعض النقول عن صلة الطبري بتلاميذه.

قال ابن كامل: «جفاني بعضُ أصحابه في مجلسه، فانقطعت عنه زماناً، ثم إنه لقيني فاعتذر إليَّ، كأنه قد جنى جناية، ولم يزل في ترفّقه وكلامه حتى عدتُ إليه»[١].

وقال أبو بكر بن كامل: «وكان عند أبي جعفر رواية وَرْش عن نافع عن يونس بن عبد الأعلى عنه، وكان يُقصد فيها، فحرص أبو بكر بن مجاهد ـ مع موضعه في نفسه، وعند أبي جعفر ـ أن يسمع منه هذه القراءة منفرداً فأبى إلا أن يسمعها مع الناس، فما أثّر ذلك في نفس أبي بكر، وكان ذلك كرهاً من أبي جعفر أن يخصَّ أحداً بشيء من العلم»[٢].

وقال أيضاً: «وكان من أخلاقه ذلك، لأنه كان إذا قرأ عليه جماعة كتاباً، ولم يحضُره أحدهم لا يأذن لبعضهم أن يقرأ دون بعض، وإذا

---

(١) معجم الأدباء ١٨/ ٥٤ ـ ٥٥.
(٢) معجم الأدباء ١٨/ ٦٧.

سأله إنسان في قراءة كتاب وغاب لم يُقرئه حتى يحضر إلا كتاب الفتوى، فإنه كان أيَّ وقت سئل عن شيء منه أجاب فيه»[1].

وكان التلاميذ أوفياء مع أستاذهم وشيخهم، فحملوا علمه، ونشروا كتبه، وعملوا بمذهبه، ودافعوا عن آرائه وحججه، وصنف بعضهم كتباً في سيرته وحياته، وأكمل بعضهم كتابه التاريخ، وحاول آخرون إكمال «تهذيب الآثار» فلم يقدروا، كما سنرى.

خامساً: اتهام الطبري بالتشيّع:

ويتعلق بعلم الطبري وتعلّمه ما أثير حوله من الاتهام بالتشَيُّع، لأنه صنّف في فضائل علي رضي الله عنه، وأثبت الأسانيد والروايات لحديث غديرخُمّ، كما وردت هذه التهمة من أبي بكر محمد بن داود الأصبهاني الفقيه الظاهري، الذي شرع بتصنيف كتاب في الرد على الطبري فيما كتبه من مناظرات مع داود نفسه، فكان ابنه محمد يتكلم في الطبري ويرميه بالعظائم والرفض، كما فَعَل ذلك عوامّ الحنابلة في بغداد[2]، كما سنذكره في المبحث القادم.

وليس المراد بالتشيُّع هنا مجرد حبّ علي رضي الله عنه وشيعته، ومعرفة فضل آل البيت، فهذا جزء من الدِّين، وهو عقيدةُ أهل السنة والجماعة، ولكن المراد بالاتهام التشيعُ المرفوض والمذموم الذي يُغالي في حبّ علي كرم الله وجهه وآل البيت، ويتطرّف في حبهم، ويَصِلُ به إلى الطعن ببقية الصحابة، وازدراء مواقفهم، وسبّهم سراً وعلناً، وهذا ما يَبْرأ منه الطبري رحمه الله تعالى.

قال الذهبي عنه: «ثقةٌ صادق، فيه تشيّعٌ يسير، وموالاة لا تضرّ» ثم

---

(١) معجم الأدباء ١٨/ ٦٨.

(٢) انظر: البداية والنهاية ١١/ ١٤٦.

قال: «أقذَعَ أحمد بن علي السُّلَيْماني الحافظ، فقال: كان يضعُ للروافض، كذا قال السُّلَيْماني، وهذا رجمٌ بالظن الكاذب، بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين، وما ندّعي عصمته من الخطأ، ولا يحل لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى، فإنَّ كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يُتأنّى فيه، لا سيما في مثل إمام كبير، فلعل السُّليماني أراد الآتي، ولو حلفت أن السُّليمانيّ ما أراد إلا الآتي لبَرَرْتُ، والسُّليماني حافظ مُتْقِن، كان يدري ما يخرج من رأسه فلا أعتقد أن يطعن في مثل هذا الإمام بهذا الباطل» والتالي هو «محمد بن جرير بن رُسْتُم، أبو جعفر الطبري، رافضيّ له تواليفُ، منها كتاب الرُّواة عن أهل البيت، رَماه بالرفض عبد العزيز الكتاني»(١)، وقال الذهبي أيضاً: «وكان ابن جرير من رجال الكمال، وشُنّع عليه يسير تشيّع، وما رأينا إلا الخير، وبعضهم ينقل عنه أنه كان يجيز مسح الرجلين في الوضوء، ولم نَرَ ذلك في كتبه»(٢).

وابن رستم هذا يقول بقول الشيعة في مسح الأرجل في الوضوء فنسب خطأ إلى صاحبنا الطبري، وهو بريء من كل ذلك، فالإمام الطبري يخالف الشيعة في معتقدهم في أبي بكر وعمر وخلافة علي رضي الله عنهم، ويكفِّر من يسب الصحابة، ويحرِّم نكاح المتعة، ويقولُ بغسل الرجلين في الوضوء، ويخالف الشيعة والمعتزلة والقدرية في رؤية الله يوم القيامة ونسبة الأعمال إلى أصحابها دون تدخّل لقدرة الله تعالى فيها، مما يدل على بطلان هذه التهمة التي أُلصقت زوراً وبهتاناً بالإمام أبي جعفر الطبري، وهو الذي صنف الكتب في أصول

---

(١) ميزان الاعتدال ٣/٤٩٩، وحقق ذلك بجلاء ووضّحه الخوانساري في روضات الجنات ٧/٢٩٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٤/٢٧٧.

الدين، والتزم بعقيدة أهل السنة والجماعة وسلف الأمة، وقال: إن من ينكر إمامَتَيْ أبي كبر وعمر رضي الله عنهما، إنه يقتل، وأنكر مجرد وصفه بالمبتدع[1].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/٢٧٥، وانظر المرجع نفسه ص ٢٧٩، تذكرة الحفاظ ٢/٧١٢، وسيرد مزيد تفصيل لذلك في مبحث الطبري وعلم أصول الدين، في الفصل الخامس.

المبحث الرابع

مواهِبُ الطّبريّ وصِفاتُه

تمتع الطبري بمواهب فطرية متميزة، جبله الله عليها، وتفضّل عليه بها، كما حفلت حياته بمجموعة من الصفات الحميدة، والأخلاق الفاضلة، والسيرة المشرقة، وذكر لنا معاصروه صفاته الخَلْقية وما كانت عليه حاله، ومنها:

أولاً: نبوغ الطبري وذكاؤه:

إن كثيراً من صفات الإنسان تكون هبةً من الله تعالى، وعطاءً مباركاً من الخالق البارىء، ولا دخل للإنسان فيها، والله يختص برحمته من يشاء، ويفضل بعض الناس على بعض، ويرزق المواهب الخاصة لبعض عباده.

وكان الطبري رحمه الله موهوب الغرائز، وقد حَبَاه الله تعالى بذكاء خارق، وعقل متّقد، وذهن حادٍّ، وحافظة نادرة، وهذا ما لاحظه فيه والده، فحرص على معونته على طلب العلم وهو صبي صغير، وخصَّص له موارد أرضه لينفقها على دراسته وسفره وتفرغه للعلم.

ومما يدل على هذا النبوغ والذكاء ما قصّه الطبري عن نفسه في تعلمه «علم العَروض» في ليلة واحدة، فقال: «لما دخلتُ مصر لم يبقَ أحدٌ من أهل العلم إلا لقيني، وامتحنني في العلم الذي يتحقّق به، فجاءني يوماً رجل فسألني عن شيء من العَروض، ولم أكنْ نَشِطتُ له قبل ذلك، فقلت له: عليَّ قولٌ ألا أتكلمَ اليومَ في شيء من العَروض، فإذا كان في

غدٍ فصِرْ إليّ، وطلبت من صديق لي العَروض للخليل بن أحمد، فجاء به، فنظرت فيه ليلتي فأمسيتُ غير عَروضي، وأصبحت عَروضياً»[1].

وهذا يدل أيضاً على فطانته، وسرعةِ بديهته، وكفاءته في حسن التخلّص من المواقف المحْرجة، وذكرنا سابقاً أنه حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، وصلى بالناس، وهو ابن ثماني سنين، وكتب الحديث وهو ابن تسع[2]، وهذا ينقلنا إلى ما وهبه الله تعالى من حافظة.

ثانياً: حفظ الطبري:

وكان الطبري رحمه الله تعالى يتمتع بحافظة نادرة، ويجمع عدة علوم، ويحفظ موضوعاتها، وأدلتها وشواهدها، وإن كتبه التي وصلتنا لأكبر دليل على ذلك، وهي: كتاب التفسير، وكتاب التاريخ، وكتاب تهذيب الآثار، وكتاب اختلاف الفقهاء.

وصفه تلميذه أبو محمد عبد العزيز بن محمد الطبري فقال: «كان أبو جعفر من الفضل والعلم والذكاء والحفظ ما لا يجهلُه أحدٌ عرفه، لجمعه من علومِ الإسلام ما لم نعلمْه اجتمعَ لأحد من هذه الأمة، ولا ظهر من كتب المصنفين، وانتشر من كتب المؤلفين ما انتشر له» وعدَّد بعضِ كتبه والعلوم اللغوية والأدبية والشرعية التي أتقنها، ثم قال: «وكان يحفظُ من الشعر للجاهلية والإسلام ما لا يجهلُه إلا جاهلٌ به»[3].

وقال أبو الحسن عبدالله بن أحمد بن المُفَلِّس الفقيه عند ذكره فضل العلماء، قال: «والله إني لأظن أبا جعفر الطبري قد نسي مما حفِظ إلى أن مات ما حفظه فلان طولَ عُمُره»[4].

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٥٦.
(٢) معجم الأدباء ١٨/٤٩.
(٣) معجم الأدباء ١٨/٥٩، ٦٠.
(٤) معجم الأدباء ١٨/٦٩.

ونقل أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد صورة عن حافظة الطبري لشعر الشعراء فقال: «سمعت ثَعْلباً يقول: قرأ عليَّ أبو جعفر الطبري شعر الشعراء قبل أن يكثر الناس عنده بمدة طويلة»[(١)]، وأكمل أبو بكر ابن مجاهد الصورة فقال: «قال أبو العباس (يعني ثَعْلَباً) يوماً: منْ بقي عندكم؟ يعني في الجانب الشرقي ببغداد من النحويين؟ فقلت: ما بقي أحدٌ، مات الشيوخ، فقال: حتى خلا جانبُكم؟ قلت: نعم، إلا أن يكون الطبريُّ الفقيهُ، فقال لي: ابنُ جرير؟ قلت: نعم، قال: ذاك من حُذّاق الكوفيين، قال أبو بكر: وهذا من أبي العباس كثير، لأنه كان شديدَ النفس شَرِسَ الأخلاق، وكان قليلَ الشهادة لأحدٍ بالحِذْق في علمه»[(٢)].

وحصل للطبري مثل ذلك مع محمد بن العَلاء الهَمَذَاني، أبو كُرَيْب (٢٤٨ هـ) عندما صار إلى الكوفة، «وكان أبو كُرَيْب شَرِس الخُلُق من كبار أصحاب الحديث، قال أبو جعفر: حضرتُ باب داره مع أصحاب الحديث، فاطلع من باب خَوْخَة له، وأصحاب الحديث يلتمسون الدخول، ويَضِجُّون، فقال: أيُّكم يحفظ ما كتب عنّي؟ فالتفتَ بعضهم إلى بعض، ثم نظروا إليَّ وقالوا: أنت تحفظُ ما كتبتَ عنه؟ قال: قلت: نعم، فقالوا: هذا، فسَلْه، فقلت حَدَّثْتَنا في كذا بكذا وفي يوم كذا بكذا، قال: وأخذ أبو كُرَيْب في مسألته إلى أن عَظُم في نفسه، فقال له: ادخل إليَّ، فدخل إليه، وعَرَف قدْره على حداثتِه، ومكَّنه من حديثه، وكان النَّاسُ يسمعون به، فيقال: إنّه سَمع من أبي كُرَيْب أكثر من مائة ألف حديث»[(٣)].

إلى غير ذلك من مواهبه الفطرية.

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٦٠.
(٢) معجم الأدباء ١٨/٦٠.
(٣) معجم الأدباء ١٨/٥١ ـ ٥٢.

ثالثاً: أوصاف الطبري الخَلْقية وعاداته:

كان الطبري رحمه الله محطُّ الأنظار، وكانت أبصار تلاميذه متعلقة به مادياً ومعنوياً، وكانوا يلازمونه في كثير من أوقات حياته، ولذلك سجلوا لنا بعض الصفات الجسدية لأستاذهم، دون أن يتوسعوا في ذلك، أو يستقصوا جميع أعضائه وحركاته، ونقل علماء التراجم والتاريخ هذه الأوصاف[1]، فقالوا:

كان الطبري أسْمَرَ إلى الأُدْمة، أَعْيَن أي واسع العينين، نحيفَ الجسم، مديدَ القامة، فصيحَ اللسان، أسودَ الشعر، وبقي السواد في شعرِ رأسه ولحيته إلى الوفاة، وظهر فيه بعضُ الشيب ولم يغيِّرْه بصِبْغ وغيره.

وكان الطبري يأكل الخبز من الدقيق الأبيض، بعد غسل القمح أو نزع قشره، لأن من مذهبه أن الشمس والنَّار والريح لا تطهر نجساً، وكان يأكل العنب والتين والرُّطَب، ويشرب حليب الغنم التي ترعى، بعد أن يُصفّى ويوضع على النار حتى يذهب منه جزء، ويصنع منه الثريد من الخبز، ويضاف إليه الصَّعْتر وحبة البركة والزيت، وكان يأكل الحصرم في وقته، وكان يأكل اللحم الأحمر الصرف بعد أن يطبخه بالزبيب، ويتجنب اللحم السمين، ويقول عنه إنه يُلَطِّخ المعدة، كما كان يتجنب السِّمْسم والعَسَل، ويقول: إنهما يفسدان المعدة، ويغيِّران النكهة، كما كان يتجنب أكل التمر ويظن أن التمر يُلَطِّخ المعدة، ويضعف

(١) معجم الأدباء ١٨/٤٠، ٩٠، ٩١، تاريخ بغداد ٢/١٦٦، طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٦، البداية والنهاية ١١/١٤٥، المحمدون من الشعراء ص ٢٦٥، مفتاح السعادة ٢/٣١٦.

البصر، ويفسد الأسنان، ويفعل في اللحم كذا وكذا، ولما عاتبه أحد أصحابه، وهو أبو علي الصوّاف، وقال له: أنا آكلُ التمر طول عمري، ولا أرى إلا خيراً، رد عليه الطبري فقال: «وما بقي على التمر أن يعمل بك أكثر مما عمل»، وكان الصوّاف قد وقعت أسنانُه، وضعُفَ بصرُه، ونحِفَ جسمه، وكثر اصفرارُه. كما كان الطبري يتجنب الثلج.

ولعل ظنه في العسل والتمر كذلك إمّا لمزاج خاص به، وإما لأنه كان مريضاً في معدته أو كبده، مما يسمًّى بذات الجَنْب، وكان المرض يعتاده وينتقض عليه، ويُداوي نفسه به، ويتعالج بأدوية، ويعتمد على كتاب «فردوس الحكمة» الذي أخذه عن مؤلفه علي بن زَيْن سماعاً ومباشرة، وكان الطبري يصف الأدوية منه لغيره[1].

ومن آداب الطبري في الأكل أنه إذا تناول اللقمة سمًّى، ووضع يده اليسرى على لحيته ليوقيَها من الدَّسَم، فإذا حصلت اللقمة في فيه أزال يده، ويتناول الطعام لقمةً لقمةً من جانب واحد من القصْعة، لذلك قال عنه أبو علي محمد بن إدريس الجمال، وكان من وجوه القوم بمدينة السلام: «حضرنا يوماً مع أبي جعفر الطبري وليمة فجلست معه على مائدة، فكان أجمل الجماعة أكلاً، وأظرَفهم عِشْرة»[2]، وقال ابن كامل: «ما رأيت أظرف أكلاً من أبي جعفر»[3].

وكان الطبري إذا جلس لا يكاد يُسمع له تَنَخُّم ولا تَبَصُّق، ولا يُرى له نُخامةً، وإذا أراد أن يمسح ريقه أخذ ذؤابة منديله، ومسح جانبي فيه، قال أبو بكر بن كامل: ولقد حرصت مراراً أن يستوي لي مثل ما يفعله

---

(١) معجم الأدباء ١٨/ ٩٢، ٩٣.

(٢) المرجع السابق ١٨/ ٨٩.

(٣) معجم الأدباء ١٨/ ٨٩.

فيتعذر عليَّ اعتيادُه، قال: «وما سمعته قط لاحناً، ولا حالفاً بالله عز وجل»[1].

وكان الطبري رحمه الله ينظم وقته بين التدريس والتصنيف والنوم والعبادة، فكان ينام قيلولة الظهر، ويصلي الظهر في بيته، ثم يبدأ بالتصنيف إلى العصر، ثم يخرج، فيصلي العصر، ويجلس للناس يُقرىء القرآن، ويُقرأ عليه إلى المغرب، ثم يجلس للفقه والدرس والمذاكرة بين يديه إلى صلاة العشاء الآخرة، ثم يدخل إلى منزله، فإذا دخل منزله بعد المجلس فلا يسمح لأحد بالدخول عليه لاشتغاله بالتصنيف إلّا في أمر مهم، مع المحافظة على حزبه من القرآن الكريم، وكان يقرأ كل ليلة ربعاً أو حظاً وافراً، قال ابن كامل: «وقد قسم ليله ونهاره في مصلحة نفسه ودينه والخلق كما وفقه الله عز وجل»[2].

رابعاً: صفات الطبري الخُلقية:

كان الطبري على جانب رفيع من مكارم الأخلاق، فكسب محبَّةَ أصدقائه ومشايخه وتلاميذه ومعارفه، لأن الأخلاق الحميدة أساسُ التعامل والتعاون والتعارف وتبادل المحبة والثقة، ومفتاحُ العلم والتعلم.

وجمع لنا تلميذُ الطبري عبدُ العزيز بن محمد أخلاقَ أستاذه فقال: «وكان أبو جعفر ظريفاً في ظاهره، نظيفاً في باطنه، حَسَنَ العِشْرة لمجالسيه، متفقداً لأحوال أصحابه، مهذَّباً في جميع أحواله، جميل الأَدَب في مأكله ومَلْبسه، وما يَخُصُّه في أحوال نفسه، مُنْبسطاً مع إخوانه، حتى ربَّما دَاعبهم أحسنَ مُداعبة، وربما جيء بين يديه بشيء من الفاكهة فيُجري في ذلك المعنى ما لا يَخْرُجُ من العلم والفقه

(١) معجم الأدباء ١٨/ ٩٠.

(٢) معجم الأدباء ١٨/ ٨٨، ٩٢، وانظر المرجع نفسه ١٨/ ٨٦، ٩٢.

والمسائل، حتى يكون كأجدّ جِدٍّ، وأحسن علم»[1].

وكان الطبري يجلُّ أهل العلم والفضل، ويتمسك بما عليه الجماعة من السلف، ويلتزم بطريق أهل العلم، ويقف على السُّنن، ويُدافع عن الحق، فردَّ على من غمز حديث غدير خُمّ وصنف كتاباً في ذلك، ثم صنف في فضائل أبي بكر وعمر، ولما ظهر سب الصحابة أظهر الحق، وكفّر من فعل ذلك، ولما أملى الطبريُّ كتابه «ذَيْل المُذَيَّل» ذكر أبا حنيفة، وأطراه، وقال: كان فقيهاً عالماً ورعاً، فتكلم تلميذه الصوّاف في ذلك الوقت في الطبري لأجل مدحه لأبي حنيفة، وانقطع عنه، وبسط لسانه فيه[2]، وكان الطبري يحضر مجالس داود بن عليّ الظاهريّ ويأخذ عنه ويناقشه في العلم حتى ضاق أحد أصحاب داود بالطبري وكلّمه كلاماً فظّاً، فقام الطبري من المجلس، وبدأ في تصنيف كتاب للرد على داود ومناقشة مذهبه، وأخرج منه مائة ورقة، فلما مات داود قطع الطبري كتابه، فقام محمد بن داود للردّ على أبي جعفر، وتعسّف عليه، وأخذ في سب الطبري، إلى أن جمعتهما المصادفة في منزل، فلما عرفه الطبريّ رحَّب به وأخذ يُثني على أبيه ويمدحه ويصفه بالصفات الكريمة، ، مما حمل ابن داود على قطع كتابه[3].

ويمتاز الطبري ببعض الصفات الأخلاقية التي سنفردها له في الفقرات التالية.

خامساً: ورع الطبري وزهده:

وهاتان الصفتان من فضائل الأخلاق، ومن أشدّ الصفات التي يجب أن يتحلى فيهما العالم والدّاعية، والمربِّي والإمام.

---

(١) معجم الأدباء: ١٨/٨٦.

(٢) معجم الأدباء ١٨/٨٤.

(٣) معجم الأدباء ١٨/٧٩، ٨٠.

وكان الطبري رحمه الله تعالى على جانب كبير من الورع والحذر من الحرام، والبعد عن مواطن الشُّبَه، واجتناب محارم الله تعالى، والخوف منه، والاقتصار في المعيشة على ما يَرِدُه من رَيْع أرضه وبستانه الذي خلّفه له أبوه[1].

يقول أبو محمد عبد العزيز بن محمد الطبري كلاماً جميلاً في وصف أبي جعفر، وفيه «وكان فيه من الزُّهْد والوَرَع والخشوع والأمانة وتصفية الأعمال وصدق النِّية وحقائق الأفعال ما دلَّ عليه كتابه في آداب النفوس»، وقال: «وكان عازِفاً عن الدنيا، تاركاً لها ولأهلها، يرفع نفسه عن التماسها»[2].

وقال أبو محمد أيضاً عن الإمام أبي جعفر: «وكان شديد التوقي والحَذَر والنزاهة والوَرَع، يدلُّ على ذلك ما أودَعه كتابه «آداب النفوس» المنبِّه على دينه وفضله»[3].

وقال ابن كثير: «وكان من العبادة والزَّهادة والورع والقيام في الحق لا تأخذه في ذلك لومة لائم وكان من كبار الصالحين».

وكان الطبري رحمه الله تعالى زاهداً في الدنيا، غير مكترث بمتاعها ومفاتنها، وكان يكتفي بالقليل القليل أثناء طلبه للعلم، وبما يقوم به أوْدُه، ويمتنع عن قبول عطايا الملوك والحكام والوزراء، وله في ذلك قصص وأمثلة، نذكر بعضها:

قال أبو محمد الفَرْغانيّ، صاحبُ ابن جرير: «أرسل العباس

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٥.
(٢) معجم الأدباء ١٨/٦٠، ٦١.
(٣) معجم الأدباء ١٨/٨٦.
(٤) البداية والنهاية ١١/١٤٦.

ابن الحسن الوزير إلى ابن جرير: قد أحببت أن أنظر في الفقه، وسأله أن يعمل له مختصراً، فعمل له كتاب الخفيف، وأنفذه، فوجّه إليه ألف دينار فلم يقبلها، فقيل له: تصدقْ بها، فلم يفعل»[1].

وقد أراد الخليفة المقتدر في بعض الأيام أن يكتب كتاب وقف تكون شروطه متّفقاً عليها بين العلماء، فقيل له: لا يقدر على استحضار ذلك إلا محمد بن جرير الطبري، فطلب منه ذلك، فكتب له، فاستدعاه الخليفة إليه، وقرّب منزلته عنده، وقال له: سل حاجتك، فقال: لا حاجة لي، فقال: لا بدَّ أن تسألني حاجة أو شيئاً، فقال: أسأل أمير المؤمنين أن يتقدم أمره إلى الشرطة حتى يمنعوا السُّؤال يوم الجمعة أن يدخلوا إلى مقصورة الجامع، فأمر الخليفة بذلك»[2].

وقال أبو بكر بن كامل: «قال لنا أبو جعفر: لما وَرَدْت مصر في سنة ست وخمسين ومائتين نزلت على الرَّبيع بن سليمان، فأمر من يأخذ لي داراً قريبة منه، وجاءني أصحابه فقالوا: تحتاج إلى قَصْريةٍ و زِيرٍ وحِمارَيْن وسُدَّة، فقلت: أما القَصْرية فأنا لا ولدَ لي، وما حللت سَراويلي على حَرام ولا حلال قطُّ، وأما الزِّيرُ ممن الملاهي، وليس هذا من شأني، وأما الحِماران فإنَّ أبي وَهَب لي بضاعةً أنا أستعين بها في طلب العلم، فإن صرفتُها في ثمن حمارَيْن فبأي شيء أطلبُ العلم؟ قال: فتبسموا، فقلت: إلى كمْ يحتاج هذا؟ فقالوا: يحتاجُ إلى درهمين وثلثين، فأخذوا ذلك مني، وعلمت أنَّها أشياء مُتَّفِقة، وجاؤوني بإجّانة (وهي إناء تغسل فيه الثياب) وحُبّ (وعاء ماء، وهو المسمى بالزير) للماء، وأربع خَشَبات، قد شدُّوا وَسَطها بشريط، وقالوا: الزِّيرُ للماء، والقَصْرية للخبز، والحماران والسُّدة تنام عليها من البراغيث، فنفعني

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٤.

(٢) البداية والنهاية ١١/١٤٦، طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٤.

ذلك، وكثرت البراغيثُ، فكنت إذا جئت نزعت ثيابي، وعلّقتها على حبل قد شَدَدْته، واتّزرْتُ، وصعدت إلى السُّدّة خوفاً منها»[1].

وقال الفرغاني: «رحل ابن جرير من مدينة آمُل لما ترعرع، وسمح له أبوه بالسفر، وكان طول حياته يُنفذ إليه بالشيء بعد الشيء إلى البلدان، فسمعته يقول: أبطأت عني نفقة والدي، واضطررت إلى أن فتقْتُ كُمَّي القميص، فبعتُهما»[2].

وهكذا عاش الطبري رحمه الله على شظف العيش في سبيل العلم، فحصّل ما حصّل، وجمع فأوعى، وأعطى فأثرى، وهذا يؤكد كلمة الإمام الشافعي: «ما أفلح في العلم إلا من طلبه عن قلة»، وقال رسول الله ﷺ لرجل: «ازْهَد في الدُّنيا يُحِبُّك الله، وازهَدْ فيما عندَ النّاسِ يُحبُّك النَّاسُ»[3].

سادساً: عفة الطبري وإباؤه:

وكان الطبري رحمه الله عفيفَ اللسان، يحفظُه عن كل إيذاء، لأن فعل اللسان قد يتجاوز أحياناً ضرب السِّنان، ولأن جُرح السيف قد يشفى ويَبْرأ، ولكن هيهات أنْ يشفى جريحُ اللسان، ولذلك حذّر رسول الله ﷺ من فلت اللسان وعظائم أمره، وقال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «ألا أخْبرُك بمَلاك ذلك كلِّه؟ قلتُ: بلى يا رسول الله، فأخذَ بلسانِهِ، وقال: كفَّ عليك هذا، قلت: يا نبيَّ الله، وإنَّا لمؤاخذونَ بما نتكلمُ به؟ فقال: ثَكِلَتْكَ أمُّك يا معاذ، وهل يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٥٥ ـ ٥٦.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٥، وانظر رواية أخرى للقصة في (سير أعلام النبلاء ١٤/٢٧١).

(٣) حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره (الأربعين النووية رقم ٣١).

على وجوههم، أو قال: على مَنَاخِرِهم، إلا حصائدُ ألسنتهم»[1].

وكان الطبري رحمه الله متوقفاً عن الأخلاق التي لا تليق بأهل العلم ولا يُؤْثِرها إلى أن مات، ولما كان يناظر مرة داود بن علي الظاهري في مسألة، فوقف الكلام على داود، فشق ذلك على أصحابه، فقام رجل منهم، وتكلم بكلمة مَضَّة ومُوجعة لأبي جعفر، فأعرض عنه، ولم يردَّ عليه، وترفّع عن جوابه، وقام من المجلس، وصنف كتاباً في هذه المسألة والمناظرة[2].

وقال أبو بكر بن كامل: «سألت أبا جعفر عن المسألة التي تناظر فيها هو والمزنيُّ فلم يذكرها، لأنه كان أفضلَ من أنْ يرفعَ نفسه، وأن يذكرَ ظفَرَهُ على خصمٍ في مسألة، وكان أبو جعفر يفضِّلُ المزنيَّ فيُطْرِيَه، ويذكر دينه»[3].

وتناظر الطبريّ مع عبدالله بن حمدان في الدِّيْنَور عند رجوعه إلى طبرستان، وأغرب أبو جعفر عليه ثلاثة وثمانين حديثاً، وأغرب عليه ابن حمدان ثماني عشر حديثاً، مع محافظة الطبري على أدب المناظرة وحفظ اللسان، ويكتفي بالقول: هذا خطأ من جهة كذا، ومثلي لا يذاكر به، فيخجل وينقطع[4].

وكان الطبري عفيفَ النفس أكثر من ذلك، فهو مع زهده لا يسأل أحداً، مهما ضاقت به النوائب، وينفق على نفسه مما تنتجه أرضه في قرية تركها له أبوه بطبرستان، ويعفُّ عن أموال الناس، ويترفع عن

---

(١) رواه الترمذي وقال حسن صحيح. (الأربعين النووية رقم ٢٩).
(٢) معجم الأدباء ١٨/ ٧٨ ـ ٧٩.
(٣) معجم الأدباء ١٨/ ٥٤.
(٤) انظر معجم الأدباء ١٨/ ٥٧.

العطايا، ومما يدل على عفة نفسه الأبيّة ما قاله عن نفسه شعراً[1]:

إذا أَعْسَـرتُ لم يعلم رَفـيقـي ... وأسْتَغْني فـيَسْتَغْـني صَـديـقي
حيَـائي حـافظٌ لي مـاءَ وَجْهي ... ورِفْقي فـي مُـطَالبـتي رَفـيقـي
ولـو أنّي سَمَحْتُ ببذلِ وَجْهي ... لكنتُ إلى الغِنَى سَهْلَ الطريق

وكأن الطبريّ رحمه الله تعالى يقتبس هذه الصفـات الحميدة، والمعاني السامية من إمامه الأول الشافعيّ الذي يقول:

أمتُّ مـطامِعي فـأرحْتُ نَفْسي ... فـإنَّ النَّفْسَ مـا طَمِعَتْ تَهُـونُ
وأحْيَيْتُ القَنُـوعَ وكـانَ مَيْتـاً ... ففي إحيـائِه عِـرْضي مَصُـونُ

ولما تقلَّد الخانقانيُّ الوزارة، وجّه إلى أبي جعفر الطبري بمال كثير، فأبى أن يقبله، فعرض عليه القضاء، فامتنع، فعاتبه أصحابه، وقالوا له: لك في هذا ثواب، وتحيي سُنَّة قد دَرَسَت، وطمعوا في أن يقبل ولاية المظالم، فانْتَهَرَهم، وقال: قد كنت أظنّ أني لو رَغِبْتُ في ذلك لنَهَيْتُمونـي عنه، فانصرفوا خَجِلين[2].

وفي هذا الخصوص حصلت قصة طريفة نذكرها هنا: جمعت الرحلة بين محمد بن جرير الطبري، ومحمد بن نَصْر المَرْوَزي، ومحمد ابن هارُون الرُّوْيانيّ، ومحمد بن إسحاق بن خُزَيمـة، بمصر، وهم المحدّثون وعلماء الحديث فيها، فأرْمَلوا ولم يبق عندهم ما يقوتهم، وأضرَّ بهم الجوع، فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون إليه، فاتفق رأيُهم على أن يَسْتَهموا ويضربُوا القرعة، فمن خرجت عليه القرعة سأل لأصحابه الطعام، فخرجت القرعةُ على محمد بن إسحاق بن خزيمة، فقال لأصحابه: أمهلوني، حتى أتوضأ وأصلي صلاة الخِيرة، فاندفع في

(١) البداية والنهاية ١١/١٤٦، وفيات الأعيان ٣/٣٣٢، تاريخ بغداد ١١/١٦٥.
(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٥، سير أعلام النبلاء ١٤/٢٧٥.

الصلاة، فإذا هم بالشُّموع وخِصِي من قِبَل والي مصر يدقّ الباب، ففتحوا البابَ، فنزل عن دابته، فقال: أيكم محمدُ بن نَصْر؟ فقيل: هو هذا، فأخرج صُرّةً فيها خمسون ديناراً فدفعها إليه، ثم قال أيُّكم محمد بن جرير؟ فقالوا: هو ذا، فأخرج صُرّة فيها خمسون ديناراً فدفعها إليه، ثم قال: أيُّكم محمد بن هارون؟ فقالوا: هو ذا، فأخرج صُرّةً فيها خمسون ديناراً فدفعها إليه، ثم قال: أيّكم محمد بن إسحاق بن خزيمة؟ فقالوا: هو ذا يُصلي، فلما فرغ دفع إليه الصرّة، وفيها خمسون ديناراً، ثم قال: إن الأمير كان قائلاً بالأمس (أي نائماً في الظهيرة) فرأى في المنام خيالاً، قال: إن المحامد طَوَوْا كَشْحهم جياعاً، فأنفِذْ إليهم هذه الصِّرار، وأقسم عليكم إذا نفِدت فابعثوا إليَّ أمدّكم»(١).

وكان الطبري رحمه الله يكره البَطَر من الغنيّ، والمذلة من الفقير، وكان ينشد شعراً(٢):

خُلُقان لا أرْضَى طريقَهما ... بَطَرُ الغِنى ومَذَلَّةُ الفَقْرِ
فإذا غَنِيتَ فلا تكن بَطِراً ... وإذا افتقرتَ فتَهْ على الدَّهْرِ

وهذا يدل على نفسه الأبيّة، وعزته المحمودة طوال حياته من الصغر وأثناء طلب العلم، وفي كهولته وشيخوخته.

ومما يدل على عفة نفس الطبري وإبائه، وزهده في الدنيا، وترفّعه على ما فيها، وعلى ما في أيدي الناس، أنه كان يقبل الهديّة، ثم يُهدي مقابلها، فإن كان عاجزاً عن الجزاء والثواب والمقابل امتنع عن أخذ الهدية.

قال عبد العزيز بن محمد: «وكان إذا أهدى إليه مُهدٍ هديةً مما يمكنه

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٢/ ٢٥١، تاريخ بغداد ٢/ ١٦٤ ـ ١٦٥، معجم الأدباء ١٨/ ٤٦، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٧٠.

(٢) تاريخ بغداد ٢/ ١٦٥.

المكافأة عليه قبلها وكافأه، وإن كانت مما لا يمكنه المكافأة عليه ردَّها، واعتذر إلى مُهْديها، ووجّه إليه أبو الهَيْجاء بنُ حَمْدان ثلاثة آلاف دينار، فلما نظر إليها عجب منها، ثم قال: لا أقبل ما لا أقدر على المكافأة عنه، ومن أين لي ما أكافىء عن هذا؟ فقيل: ما لهذا مكافأة، إنما أراد التقرب إلى الله عز وجل، فأبى أن يقبله وردّه إليه»[1].

وكان أبو الفرج بن أبي العباس الأصبهاني يختلف إلى الطبريّ ليقرأ عليه كتبه، فطلب الطبري حصيرة لغرفة صغيرة له، فدخل أبو الفرج وأخذ مقدار الغرفة وعمل لها الحصير متقرّباً بذلك له، فلما جاء به ووقع موقعه أخذ الطبريُّ أربعة دنانير ودفعها إلى ابن أبي الفرج، فأبى أن يأخذها، وأبى أبو جعفر أن يأخذ الحصير إلا بها. وأهدى إليه أبو الحسن المحرِّر جارُه فَرْخين فأهدى إليه ثوباً[2].

وأهدى أبو عليّ محمد بن عبيد الله الوزير إلى أبي جعفر برمَّانٍ فقبله، وفرَّقه في جيرانه، فلما كان بعد أيام وجه إليه بوعاء فيه بَدْرةٌ فيها عَشْرة آلاف درهم، وكتب معها رقعة، وسأله أن يقبلها، وقال الوزير لمن حملها: إن قبلها وإلاّ فاسألوه أن يفرقها في أصحابه ممن يستحق، فلما دخل عليه، وأوصل إليه الرسالة، قال: يغفر الله لنا وله، اقرأ عليه السلام، وقل له: ارددْنا إلى الرُّمان، وامتنع من قبول الدراهم، فقال له الرسول: فرّقها في أصحابك على من يحتاج إليها ولا تردَّها، فقال: هو أعرف بالناس إذا أراد ذلك، وأجاب عن الرسالة، وبعد مدة جاءه مالُ ضَيْعته، فجعله بضاعة، وأرسله إلى الوزير، وفيها ما قيمته أربعون ديناراً[3].

---

(١) معجم الأدباء ١٨/ ٨٧.
(٢) معجم الأدباء ١٨/ ٨٧.
(٣) معجم الأدباء ١٨/ ٨٧ - ٨٨.

سابعاً: تواضع الطبري وعفوه:

وكان الطبري شديد التواضع لأصحابه وزُوّاره وطلابه، دون أن يتكبَّر بمكانته، أو يتعالى بعلمه، أو يتعاظم على غيره، فكان يُدعى إلى الدعوة فيمضي إليها، ويُسأل في الوليمة فيجيب إليها، ويكون حضوراً مشهوداً من أجله، وشريفاً بحضوره، وكان بعضهم يخرج إلى الصحراء فيأكل معهم(١)، ووصفه عبد العزيز بن محمد فقال: كان جميلَ الأدب في مأكله ومَلْبسه، وما يخصُّه في أحوال نفسه، مُنْبَسِطاً مع إخوانه، حتى ربَّما داعبهم أحسنَ مُداعبةٍ(٢).

وكان أحد أتباع الطبري واسمه أبو فرج بن الثلاج يتعسف في كلامه، وقال: أكلت طباهقة بدلاً من طباهجة (وهو طعام من بيض وبصل ولحم مشروح) فبدل الجيم قافاً، فلما سئل قال: ألا ترى أن العرب تعمل الجيم قافاً، فقال له أبو جعفر: فأنت إذاً أبو الفَرَق، ابن الثلاق، فصار يعرف بأبي الفرق بن الثلاق، ويمزح معه بذلك(٣).

وكان أبو بكر بن الجواليقي يتنطَّع في كلامه، ويأخذ لسانه بالإعراب ويكثر الإشارات فيه إلى حدّ البغض، فأخذ يوماً في ذلك، فقال له أبو جعفر: أنت بغيض، فسمي بغيض الطبري(٤).

وكان الطبري لا يحمل الحقد والضغينة، وله نفس رضيَّة، يتجاوزُ عمن أخطأ معه ويعفُو عمن أساء إليه.

قال أبو بكر بن كامل: حضرت أبا جعفر حين حضرته الوفاة، فسألته

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٨٩.
(٢) معجم الأدباء ١٨/٨٦.
(٣) معجم الأدباء ١٨/٩٣.
(٤) معجم الأدباء ١٨/٩٣.

أن يجعل كل من عاداه في حِلّ، وكنت سألته ذلك لأجل أبي الحسن ابن الحسين الصوّاف لأني كنت قرأت عليه القرآن، (وهو الذي عادى الطبري لمدحه أبا حنيفة وثنائه عليه)، فقال: كل من عاداني وتكلم في حلٍ إلا رجلاً رماني ببدعة[1].

وكان محمد بن داود الظاهري قد اتهم الطبري بالأباطيل، وشنَّع عليه، وأخذ بالردّ عليه، لأن الطبري ناظر والده، وفنّد حججه، وردَّ آراءه، فلما التقى الطبري بمحمد بن داود تجاوز عن كل ذلك، وأثنى على علم الوالد حتى وقف الولد عن تجاوز الحد، وإشاعة التهم على الطبري[2].

ومع كل هذا التواضع، وسماحة النفس، والعفو والصفح، كان الطبريُّ لا يسكت عل باطل، ولا يمالىء في حق، ولا يساوم في عقيدة أو مبدأ، فكان يقول الحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، ثابت الجَنان، شجاع القلب، جريئاً في إعلان الصواب، مهما لحق به من أذى الجهال، ومضايقة الحسَّاد، وتخرُّصات الحاقدين.

ويعلن الطبري مخالفته لأهل الاعتزال، ويرد على القدرية والروافض، ويبرأ ممن يسيء إلى صحابة رسول الله ﷺ، ويرد على من لمز وضَعّف حديث غَدير خُمّ، وكتب في فضائل أبي بكر وعمر عندما سمع بطبرستان أن سب أصحاب رسول الله ﷺ قد انتشر، فأملى في فضائل أبي بكر وعمر، وكان سلطان البلدة يؤيِّد السبَّ، ويكره ما كتبه الطبري حتى أرسل في طلبه لحبسه، وكان رجل في المجلس فذهب وأخبر الطبري فخرج من البلد، ولما علم السلطان بذلك ضرب

(١) معجم الأدباء ١٨/٨٤.
(٢) انظر: معجم الأدباء ١٨/٨٠، البداية والنهاية ١١/١٤٦.

الشخص ألف سَوْط بسبب ذلك، وقدّر الله أن يحضر هذا الشخص إلى الطبري بعدما صار شيخاً مُسنّاً، فأكرمه واعترف له بالفضل السابق، وكان وفيّاً معه[1].

قال أبو محمد الفرغاني: «كان محمد لا يأخذه في الله لومة لائم مع عظم ما يلحقه من الأذى والشناعات من جاهل وحاسد وملحد، فأما أهل الدين والعلم فغير منكرين علمه وزهده ورفضه للدنيا وقناعته بما يجيئه من حصة خلّفها له أبوه بطبرستان يسيرة[2].

ثامناً: الطبري والحنابلة:

شاع كثيراً في كتب التراجم أن الطبريَّ رحمه الله لما قدِم بغداد من طبرستان، واستقرّ في بغداد، وظهر علمه وفضله تعصَّب عليه جماعة منهم أبو عبدالله الجصَّاص وجعفر بن عرفة والبياضي، وأوغر الحسدُ صدورَهم عليه، كما قصده الحنابلة فسألوه عن رأيه في الإمام أحمد ابن حنبل وآرائه الفقهية، ورأيه في حديث الجلوس عل العرش، وخاصة أن الطبري لم يذكر الإمام أحمد بين الفقهاء في كتاب «اختلاف الفقهاء» فأجابهم أبو جعفر: أما أحمد بن حنبل فلا يُعَدُّ خلافُه، فقالوا له: فقد ذكره العلماء في الاختلاف، فقال: ما رأيتُ رُوي عنه، ولا رأيت له أصحاباً يُعوَّل عليهم، أي في الفقه، وأن الإمام أحمد كان إمام الأئمة في الحديث، ولم ينشىء مذهباً فقْهياً، فلما سمع ذلك الحنابلة منه وأصحاب الحديث آذَوْه وضايقوه، ورَمَوْا الحجارة على بابه، حتى تدخّل نازُوك صاحب الشرطة ومنعهم من ذلك.

وما كان من الإمام الطبري إلا أن يخاطبهم بمقدار عقولهم وفهمهم

---

(١) انظر تمام القصة في معجم الأدباء ١٨/٨٥ ـ ٨٦.

(٢) تذكرة الحفاظ ٢/٧١٢، طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٥.

وتعصبهم، وكتب كتاباً في الاعتذار إليهم، وذكر مذهبه واعتقاده الذي يتّفق مع عقيدة الإمام أحمد والسَّلف، وجرَّح من ظن فيه غير ذلك، وذكر فضل الإمام أحمد بن حنبل، وقرأ عليهم الكتاب، وانتهت المشكلة، ولكن بقي بعض الحنابلة يتحاملون عليه، وذكر محمد بن إسحاق بن خزيمة وغيره أن الحنابلة ظلموه في تصرّفهم، وأن بعض عوام الحنابلة أساؤوا التصرف عند دفنه(١).

وأخيراً نختم الكلام عن مواهب الطبري وصفاته بجملة قالها طبيب ذمِّي لأبي جعفر، وذلك أن الطبري كان يعاني من ذات الجَنْب، وكانت تعتاده وتنتقض عليه، ويعالج نفسه منها، ويتداوى لها، فلما علم الوزير علي بن عيسى بذلك بعث له طبيباً ليعالجه، فسأل الطبيب أبا جعفر عن حاله، فعرّفه حاله وما استعمل وأخذه لعلّته، وما انتهى إليه في يومه ذاك، وما كان رسمُه أن يعالج به، وما عزم على أخذه من العلاج، فقال الطبيب: ما عندي فوق ما وصفته لنفسك شيء، ثم قال عبارته الخالدة: «**والله لو كنتَ في ملتنا لعُدِدت من الحواريين**، أي كرسل السيد المسيح عليه الصلاة والسلام، وفقك الله»(٢).

وكان الطبري رحمه الله كأحد الحواريين، وقام بعلمه وعمله ودينه وورعه وتقواه ما يصل إلى تلك الدرجة وزيادة، تطبيقاً لما جاء في الأثر «علماء هذه الأمة كأنبياء بني إسرائيل»(٣).

---

(١) انظر: معجم الأدباء ١٨/ ٥٩، طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ١٢٤، البداية والنهاية ١١/ ١٤٦.

(٢) انظر: معجم الأدباء ١٨/ ٩٤.

(٣) ذكره بعض العلماء بأنه حديث مرفوع، وقال آخرون: لا أصل له. (انظر: كشف الخفا ٢/ ٨٣).

تاسعاً: ثناء العلماء على الطبري:

لقي الطبري رحمه الله تعالى ثناءً عاطراً، ومدحاً رقيقاً، ووصفاً جميلاً من العلماء الأعلام الذين عرفوا فضله ومكانته، وتقواه وورعه، ، وعلمه وتصانيفه، فكان يستحق هذه الألقاب والأوسمة عن جدارة، ونحن نقتبس بعضها:

١ ـ قال الخطيب البغدادي (٤٦٣ هـ): «كانَ أحدَ أئمةِ العلماء، يُحكم بقوله، ويُرجع إلى رأيه لمعرفته وفضْله، وكان قد جمعَ من العلوم ما لم يشاركْه فيه أحدٌ من أهل عصره»[1].

٣ ـ قال ياقوت الحموي (٦٢٦ هـ): «أبو جعفر الطبريّ، المحدِّثُ، الفقيهُ، المقرِىء، المؤرِّخُ، المعروفُ، المشهورُ»[2].

٣ ـ قال جمال الدين القفطي (٦٤٦ هـ): «العالمُ، الكاملُ، الفقيهُ، المقْرِىءُ، النحويّ، اللغـويُّ، الحافظ، الأخبـاري، جامـع العلوم، لم يُر فـي فنونه مثلُه، وصنّف التصانيف الكبار»[3].

٤ ـ وقال القفطي أيضاً: «الإمام، العالم، واحدُ الدهر، وفريدُ كل عصر، مؤلف التاريخ والتفسير المشهوريْن الكبيريْن، إلى ما انضاف إليهما من تصانيفه العزيزةِ الوجود، الغريبةِ بين أمثالها في الجَوْدة والموجود، وقد كان له رحمه الله شعر فوق شعر العلماء»[4].

٥ ـ قال ابن خَلِّكـان (٦٨١ هـ): «صاحبُ التفسير الكبير، والتاريخ الشهير، كان إماماً في فنون كثيرة. . .، له مصنفات مليحة في

---

(١) تاريخ بغداد ٢/١٦٣.

(٢) معجم الأدباء ١٨/٤٠.

(٣) إنباه الرواة ٣/٨٩.

(٤) المحمدون من الشعراء ص ٢٦٤.

فنون عديدة تدل على سعة علمه، وغزارة فضله، وكان من الأئمة المجتهدين»[1].

٦ ـ قال مؤرخ الإسلام الحافظُ أبو عبدالله الذهبيُّ (٧٤٨ هـ): «الإمام الجليل، المفسر، أبو جعفر، صاحب التصانيف الباهرة. . .، من كبار أئمة الإسلام المعتمدين»[2].

٧ ـ وقال الذهبي أيضاً: «الإمام العَلَم، المجتهدُ، عالم العصر، أبو جعفر الطبريّ، صاحب التصانيف البديعة. . .، أكثر الترحالَ، ولقي نبلاءَ الرجال، وكان من أفراد الدَهْر علماً، وذكاء، وكثرة تصانيف، قلَّ أن ترى العيونُ مثلَه» ثم قال: «قلت: كان ثقةً، صادقاً، حافظاً، رأساً في التفسير، إماماً في الفقه والإجماع والاختلاف، علاّمةً في التاريخ وأيام الناس، عارفاً بالقراءات، وباللغةِ، وغير ذلك»[3].

٨ ـ وقال تاج الدين ابن السُّبْكيّ (٧٧١ هـ): «الإمامُ الجليلُ، المجتهدُ المطلقُ، أبو جعفر الطبريُّ، من أهل آمُل طَبَرِسْتان، أحدُ أئمة الدُّنيا علماً وديناً»[4].

٩ ـ وقال الحافظ ابن كثير (٧٧٤ هـ): «روى الكثيرَ عن الجمّ الغفير، ورَحل إلى الآفاق في طلب الحديث، وصنّف التاريخ الحافل، وله التفسير الكامل الذي لا يُوجد له نظير، وغيرها من المصنفات الحافلة في الأصول والفروع، ومن أحسن ذلك: «تهذيب الآثار» ولو كمل لما احتيج معه إلى شيء، ولكان فيه الكفاية لكنه لم

(١) وفيات الأعيان ٣/٣٣٢.
(٢) ميزان الاعتدال ٣/٤٩٨.
(٣) سير أعلام النبلاء ١٤/٢٦٧، ٢٧٠.
(٤) طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٠.

يتمه. . .» ثم قال: «قلت: وكان من العِبادةِ والزَّهادةِ والوَرَع والقيام في الحق، لا تأخذه في الله لَوْمةُ لائم، وكان حَسَن الصوت بالقراءة مع المعـرفة التـامة بـالقراءات على أحسن الصفات، وكان من كبار الصالحين، وهو أحد المحدثين الذين اجتمعوا بمصر في أيام ابن طولون»، ثم قال: «بل كان أحد أئمة الإسلام علماً وعمـلاً بكتاب الله وسنة رسوله»(١).

١٠ ـ وقال يوسف بن تَغْري بَرْدي (٨٧٤ هـ): «وهو أحد أئمة العلم، يُحكم بقولِه، ويُرجع إلى رأيه، وكان مُفَنَّناً في علوم كثيرة، وكان واحدَ عصره»(٢).

١١ ـ وقال أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبري زادة (٩٦٨ هـ): «كان حافظاً لكتاب الله، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن»(٣).

---

(١) البداية والنهاية ١١/١٤٥، ١٤٦.
(٢) النجوم الزاهرة ٣/٢٠٥.
(٣) مفتاح السعادة ٢/٣١٥.

الفصْل الثاني

الطَّبريُّ مُفَسِّرًا

القرآن والتفسير:

القرآن الكريم كتاب الله الخالد، ودستور المسلمين، ومنبع الحياة الروحية والأخلاقية والاجتماعية والتشريعية والثقافية والحضارية للمسلمين خاصة في كل زمان ومكان، وللبشرية والإنسانية أجمع.

وقد تكفّل الله بحفظه نصّاً وروحاً، وعكف المسلمون عليه بفضل الله تعالى، ولقي من العناية والرعاية ما لم يتوفّر نصيب منه لكتاب في هذا الكون، وكان القرآن الكريم هدية السماء للأرض، ونور الله وبيانَه للرسول ﷺ، ثم صار هدية العرب للعالم أجمع عند الفتوح، ومع مختلف الاتصالات، وقام على تفسيره وتأويله، وشرحه وبيان معناه، ومعرفة حِكَمِه وأحكامه ما لا يُحْصى من العلماء في مختلف العصور، ومن مختلف الأجناس والأقوام.

ومن هؤلاء الإمام أبوجعفر الطبري الذي تبوأ القمَّة، وبلغ الذروة في تفسير القرآن العظيم في كتابه «جامع البَيَان عن تأويل آي القرآن» حتى عُرف قديماً وحديثاً بأنه «**شَيْخ المفسرين**» أو «**إمام المفسرين**» أو أنه «**أبو التفسير**»، وأودع في كتابه ما حَبَاه الله تعالى به من العلوم الشرعية المختلفة التي تتكون منها ثقافته الواسعة، حتى أصبح تفسيره «**عُمْدة المفسرين**».

وفي هذا الفصل نتحدث عن الطبري مفسراً، فنبيِّنُ معنى التفسير وأهميته ونشأته، وتعلُّمَ الطبري للتفسير، وجمعَه للعلوم التي تتصل به من مختلف علوم القرآن، ثم نعرض لدراسة تفسير الطبري ووصفه

وعناية العلماء به، ومصادره، وانتشاره، وطباعته، لنصل إلى منهج الطبري في التفسير، وأنه واضع أصول التفسير، وأنه جمع بين التفسير بالمأثور والرأي، ثم نبين المنطلقات الرئيسة التي التزمها الطبري في تفسيره، وذلك في ثلاثة مباحث.

المبحث الأوّل

عن التفسير والطّبري

أقدّم بين يدي البحث فكرة مختصرة عن علم التفسير، ونشأته، وتطوره، والحاجة إليه، واهتمام المسلمين به، ثم نعطي نبذة مختصرة أيضاً عن رغبة الإمام الطبري بالتفسير، وطلبه له، ومؤهلاته لتفسير القرآن، ورأيه في حاجة المسلمين للتفسير.

أولاً: علم التفسير:

هو أحد العلوم الشرعية الأساسية، لأنه يتعلق بالقرآن العظيم الذي أنزله الله تعالى هداية للناس، ورحمة لعباده، ونوراً للبشرية.

ويبحث علم التفسير عن معاني كلام الله تعالى الذي أمرهم بتدبُّره، وتفهُّم معانيه، ومعرفة أحكامه، ليدركوا عظمة الله تعالى، وفضله عليهم، وحقه عندهم، ليقوموا بما أُمرهم به، ويجتنبوا ما نهاهم عنه، قال تعالى: ﴿كتابٌ أَنْزَلْناه إليكَ مُبارَكٌ ليدَّبَرُوا آياتِه، وليَتَذَكَّرَ أُولُو الألباب﴾ [سورة ص/٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُون القُرْآنَ﴾ [النساء/٦٢].

ثانياً: تعريف علم التفسير:

التفسير لغة: الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى: ﴿ولا يأتونَك بمَثَلٍ إلا جِئْنَاكَ بالحق، وأحسن تفسيراً﴾ [الفرقان/٣٣]، أي بياناً وتفصيلاً.

والتفسير في الاصطلاح الشرعي له عدة تعريفات، ترجع كلها إلى معنى واحد، وهو بيان كلام الله تعالى، أو أنه المبيِّن لألفاظ القرآن

ومفهوماتها، أو أنه علـم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية[1].

وعرّفه الزَّرْكشي بأنه: «علم يُبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد من حيث دلالته على مراد الله تعالى، بقدر الطاقة البشرية»[2].

وهذا التعريف شامل لمعظم علوم القرآن الكريم، مع أن علم التفسير أحد علوم القرآن، لكنه أهمها على الإطلاق نظرياً وعملياً وعلمياً، وأن المفسِّر يتناول أكثر علوم القرآن عند محاولته لكشف المعنى المراد من الآية الكريمة، وهو ما فعله الإمام الطبري رحمه الله تعالى كما سنرى في منهجه، ولذلك يدخل علم القراءات في التفسير، لأن المعنى قد يختلف باختلاف القراءتين أو القراءات، ويدخل في التفسير علم الرسم، لأن المعنى قد يختلف أيضاً باختلاف الرسم القرآني في المصحف، وهو أحد أركان القراءة المقبولة عند علماء القراءات، وهكذا علم أسباب النزول، وتاريخ القرآن وجمعه وتدوينه ونسخه، وإعراب القرآن، ومكيُّه، ومدنيُّه، وبلاغته وبيانه، وإعجازه، وأحكامه، وألفاظه وجمله، وتراكيبه ومعانيه، وناسخه ومنسوخه، وهذا ما يتناوله التفسير الموسَّع، كما هو الحال في تفسير الطبري، ونجد بعضه في التفاسير المتوسطة والوجيزة، بحسب اهتمام المفسر ومنهجه وغايته[3].

ثالثاً: الهدف من علم التفسير:

ويهدف علم التفسير إلى تحصيل القدرة الكافية على استنبـاط

---

(١) انظر: التفسير والمفسرون ١/١٤، مفتاح السعادة ٢/٦٢، تاريخ الأدب العربي ٤/٧.

(٢) انظر: الإتقان للسيوطي ٢/١٧٣، البرهـان للزركشي ٢/١٤٧.

(٣) عدد السيوطي العلوم التي تدخل في التفسير، وأوصلها إلى خمس وخمسين نوعاً، (انظر: تمام الدراية ص ٢٦، النقاية ص ٢٦٢).

الأحكام الشرعية بوجه صحيح، ومعرفة المنهج الإلهي القويم، والتذكير بحق الله على عباده، من إنقاذهم من شرك الضلال، وشباك الشيطان، وتغذية قلوبهم ونفوسهم وأرواحهم من كلام الله تعالى، والارتواء من حوض القرآن الكريم، ومَعينه الذي لا يَنْضَب، مع الاتعاظ بحِكَمه، والاستزادة من فضله، والأنس بجانبه، والاهتداء بهديه، ليخرجَ الناس من الظلماتِ إلى النور، تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿إنَّ هَذَا القرآنَ يَهْدي للتي هي أَقْومُ﴾ [الإسراء/ ٩].

رابعاً: نشأة علم التفسير:

ظهر التفسير حقيقة مع نزول القرآن الكريم، وذلك بأن يبيِّن القرآن معنى آية بآية أخرى، أو يشرح لفظاً مُجْملاً بلفظ مُبيَّن، أو يحدِّدَ المراد من اصطلاح شرعي خاص، وهو ما يُعرف بتفسير القرآن بالقرآن، وهو أول أنواع التفسير، وأهم الأنواع، وأعلاها درجة، مثل قوله تعالى: ﴿فتلقَّى آدم من ربِّه كلماتٍ﴾ [البقرة/٢٣]، فجاء القرآن الكريم مفسِّراً هذه الكلمات بقوله تعالى: ﴿قالا ربَّنا ظلمنا أنفسَنا، وإن لم تَغْفِر لنا وتْرحَمْنا لنكونَنَّ من الخاسرين﴾، وآيات خلق الإنسان من تراب، أو من طين، وبيان المراد من الخيط الأبيض والخيط الأسود وأنه الفجر والنور في قوله تعالى: ﴿وكلُوا واشربُوا حتى يتبين لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ من الفجر﴾ [البقرة/١٨٧]، ومثل ذلك كثير.

وتجلّى التفسير بشكل أوسع في بيان الرسول ﷺ وتوضيحه، وذلك بتفسير آيات القرآن الكريم، وتحديد معناها، ومعرفة أحكام الله تعالى الواردة في القرآن الكريم عن طريق الحديث الشريف الذي صدر عن رسول الله ﷺ قولاً وفعلاً وتقريراً، فكان رسول الله ﷺ أول مفسر من البشر للقرآن الكريم نظرياً وعملياً، وهو أعلم البشر بمعاني كتاب الله تعالى، وإدراك أسراره، ومعرفة مقاصده.

وهذا هو النوع الثاني للتفسير، وهو تفسير القرآن بالسنة، ويأتي بالدرجة الثانية بعد تفسير القرآن للقرآن، وإن تفسير الرسول ﷺ وبيانه للقرآن أحد الوظائف النبوية، والمهمات الدينية المكلَّف بها من الله تعالى، بقوله عز وجل: ﴿وأَنْزَلْنا إليكَ الذِكْرَ لتُبَيِّنَ للنَّاس ما نُزِّلَ إليهم﴾ [النحل/٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وما أَنْزَلْنا عليكَ الكتابَ إلا لتُبَيِّنَ لهم الذي اختلفُوا فيه، وهُدىً ورَحْمةً لقوم يؤمنون﴾ [النحل/٦٤].

والقرآن الكريم نزل بلغة عربية على أمة عربية، فكان الصحابة يدركون معانيه، ويفهمون ألفاظه، ويحيطون بمقاصده وتراكيبه، ويعلمون أسباب نزول الآيات ومناسباتها، وإذا أشْكل عليهم منه شيء، أو ورد فيه اصطلاحُ دينيٌّ معيّن، فَزِعوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه عنه، ويقفون على مراد الله تعالى فيه.

وكان القرآن الكريم دستورَ حياتهم، ومنهجَ معيشتهم، وغذاءَ أرواحهم، وملجأً قلوبهم، ومهوى أفئدتهم، وملء عيونهم وجفونهم، لذلك ظهرت آثاره عليهم بالتربية والتوجيه، والإعداد والإصلاح، والتقدّم والازدهار، فكانوا بحق جيل القرآن الفريد بفهمه والتفاعل معه.

وبعد وفاة الرسول ﷺ والتحاقه بالرفيق الأعلى تولّى الصحابة رضوان الله تعالى عليهم وظيفة البيان والتعليم والتفسير، وتصدّى كبار الصحابة إلى بيان المعنى الصحيح، والتفسير المقبول لآيات الله تعالى، اعتماداً على ما أخذوه وفهموه من رسول الله ﷺ أولاً، واستناداً إلى اللغة العربية وعادات العرب ومقاصد الشريعة وأسباب النزول ثانياً، وإعمالاً لعقولهم وتفكيرهم واجتهادهم ومَلَكاتهم وإدراكهم وعلمهم ثالثاً، وهنا ظهر التفسير بالرأي والاجتهاد والاستنباط.

وتبوّأ عدد من الصحابة مركز الصَّدارة في تفسير القرآن الكريم، وأبرز المفسرين من الصحابة: الخلفاء الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان

وعلي، رضوان الله عليهم، وأكثر من تصدّى لذلك منهم الإمام علي كرَّم الله وجهه الذي كان يقول: «سلوني عن كتاب الله تعالى، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليلٍ نزلت أم بنهار، أم في سهلٍ أم في جبل» وكان يقول أيضاً: «والله ما نزلت آية إلا وقد علمتُ فيمَ أُنزلت، وأينَ نَزلت، إنَّ ربي وَهَب لي قلباً عقولاً، ولساناً سؤولاً»[1].

ومن الصحابة المفسرين عبدالله بن مسعود الذي كان يقول مثل ما قال عليّ[2]، ومنهم أبيٌّ بن كعب، وزَيْد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن عباس رضي الله عنهم. وعُرف ابنُ عباس بأنه ترجمان القرآن، وحَبْر الأمة، ورئيس المفسرين. كما ورد شيء من التفسير عن أنس وأبي هريرة وجابر وابن عمرو[3].

وروى التفسير عن ابن عباس في مكة عدد من كبار التابعين، منهم مجاهد وسعيد بن جُبَيْر وعِكْرِمة مولى ابن عباس، وطاوُس، وعطاءُ ابن أبي رَبَاح، كما رَوى التفسيرَ عن ابن مسعود عدد من علماء الكوفة كعَلْقَمة والأسود بن يزيد النخعي وعَبِيدة بن عمرو السَّلْماني وعمرو ابن شُرَحبيل وغيرهم.

وقام التابعون برواية التفسير عن النبي ﷺ، وعن الصحابة، ثم أدَّوْا وظيفتهم، وأضافوا اجتهادهم ورأيهم واستنباطهم من الكتاب الكريم، وسمّي مجموع ذلك ـ فيما بعد ـ التفسير بالمأثور.

---

(١) انظر: مفتاح السعادة ٢/٦٤، تفسير القرطبي ١/٣٥، الإتقان ٢/٢٣٩.

(٢) قال عبدالله بن مسعود: «والله الذي لا إله غيره ما نزلت آية في كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت، وأين نزلت، ومتى نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منّي تناله المطايا لأتيتُه» (تفسير الطبري ١/٣٦، وانظر: صحيح البخاري ٤/١٩١٢، تخريج أحاديث البزدوي ص ٢٣٨).

(٣) انظر: مفتاح السعادة ٢/٦٤، الإتقان ٢/١٨٦، التفسير والمفسرون ١/٦٣.

خامساً: تدوين التفسير:

اعتمد التفسير في عصر الصحابة والتابعين على الرواية، وكان ينقل ويدرج مع الحديث الشريف، ولما دوَّن المحدِّثون الحديث الشريف جعلوا التفسير فرعاً من فروعه، ولا يزال أثر ذلك واضحاً في كتب السنة وأمهات مصادر الحديث حتى اليوم.

وجاءت الطبقة التالية من صغار التابعين وتابعي التابعين فدوَّنوا الروايات السابقة في التفسير، وأفْردوها عن علم الحديث، وظهرت لأول مرة ما عُرف بكتب التفسير بالمأثور التي تجمع أحاديث التفسير، وأقوال الصحابة والتابعين في القرن الثاني الهجري، مثل تفسير مُجاهد (١٠٤ هـ) وتفسير عطاء الخراساني (١٣٣ هـ) والناسخ والمنسوخ لقتادة (١١٨ هـ) والناسخ والمنسوخ وكتاب التنزيل للزهري (١٢٤ هـ) وكان عبد الملك بن جُرَيْج (١٤٩ هـ) أول من جمع الأخبار المتعلقة بالتفسير في كتاب[1].

وفي هذا العصر دُوِّنت العلوم، وتطور تصنيف التفاسير بجمع الروايات المختلفة مع ذكر أسانيدها، أو حذف الأسانيد، وظهر التأثر بالعلوم المختلفة كالنحو والإعراب، والقراءات وأسباب النزول، والفقه وعلم الكلام، والعلوم العقلية والفلسفية، وصنفت التفاسير مع مراعاة العلم الذي يُتقنه المفسر، أو يراه مهماً ومؤثراً لفهم كلام الله تعالى، فظهرت التفاسير المتنوعة بحسب الموضوعات مع التفسير بالرأي، وتفسير مفردات القرآن، أو التفسير الإشاري، وتفسير آيات الأحكام، والتفسير اللغوي والبلاغي...[2].

---

(١) انظر: التفسير ورجاله ص ٢١، تاريخ التراث العربي ١/١/٥٦، التفسير والمفسرون ١/١٠٤ و ١٤٠، كشف الظنون ١/٢٩٨.

(٢) انظر: كشف الظنون ١/٣٠٠، مقدمة ابن خلدون ص ٤٤٠، التفسير ورجاله =

ولا بدَّ من التنويه أنّ تفسير القرآن الكريم يعتمد على أصول محدَّدة، وقواعد معيَّنة، ومُقَدّمات أساسية، وعلوم ضرورية، كاللغة العربية، وأصول الفقه، وأصول الدين، وأسباب النزول، ودلالة الألفاظ حقيقة ومجازاً وعرفاً، والجدل، وغيره.

وبدأ في القرن الثالث الهجري منهج النقد للروايات والنصوص المتعلقة بالتفسير، لبيان الصحيح والضعيف، والراجح والمتروك، مع وضع القيود والشروط للمفسِّر، وهذا ما نص عليه إمام المفسرين محمد ابن جرير الطبري في مقدمة تفسيره، وصنف بعدها أعظم تفسير وأقدم تفسير وصل إلينا كاملاً، وهو «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» أو تفسير الطبري[1].

سادساً: رغبة الطبري في التفسير:

كان القرآن الكريم ـ وما يزال ـ مهوى الأفئدة، وأول كتاب يفتح المسلم عينيه عليه، وقد حفظ الطبري رحمه الله تعالى القرآن الكريم من الصغر، كما سبق، ثم اتجه إلى تدبره وفهمه، ودراسته ومعرفة معناه، من العلماء الذين أخذ عنهم في مختلف الأقطار الإسلامية، واطلع على بيان القرآن الكريم في السنة الشريفة التي رواها وجمعها وحفظها حتى صار مُحَدِّثاً فيها، وعكف على كتاب الله تعالى، كما هو مطلوب في الشرع، ومنصوص عليه في آيات القرآن الكريم، ورغّب فيه الرسول عليه الصلاة والسلام، ونهج عليه الصحابة والسلف الصالح، وهو ما يجب الالتزام به في كل زمان، ومن كل مسلم، حتى يتم الانتفاع الحقيقي والكامل من كلام الله تعالى القائل: ﴿كتاب أَنْزَلْناه إليك ليدَّبَّروا

= ص ٢٣، الإتقان ٢/١٨٨ وما بعدها.

(١) انظر: تاريخ التراث العربي ١/١/٥٥، ٦٣، ٨٣، ١١٨، الإتقان ٢/١٩٠، تفسير الطبري ١/٥، ٣٥، ٤٠.

آياتِه، وليتذكَّرَ أولُو الألْباب﴾ [سورة ص/٢٩]، وحضَّ القرآن الكريم على التدبر، ونعى على من يترك ذلك فقال تعالى: ﴿أفلا يتدبَّرُونَ القُرْآن، أم على قلوبٍ أقْفالها﴾ [محمد/٢٤].

فاتجهت رغبة الطبريّ ـ رحمه الله تعالى ـ إلى رعاية كتاب الله، والعناية بتدبّره وفهمه، وتحصيل الأدوات اللازمة، والعلوم الضرورية لذلك، كما سنرى.

سابعاً: طلب الطبري للتفسير:

وتحقيقاً للغاية السابقة، والرغبة الصادقة فقد اتجه الطبري رحمه الله تعالى إلى تعلّم ودراسة جميع ما وصل إليه علم التفسير في القرنين الماضيين من التفسير بالمأثور، وأقوال العلماء في ذلك، واستقصاء ما يتعلق بعلوم القرآن من اللغة والقراءات وأسباب النزول والاجتهادات في آيات الأحكام، وجمع الشعر الذي يوضِّح معاني كتاب الله، لقول عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: «عليكم بديوانكم لا تَضلّوا، هو شعْر العرب، فيه تفسيرُ كتابكم، ومعاني كلامكم» وهو ما أكدّه ترجمان القرآن عبدُالله بن عباس رضي الله عنهما بقوله: «الشعرُ دِيوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغتِهم رجعنا إلى ديوانهم فالتمسنا معرفة ذلك منه»(١)، إلى أن ملك الطبري ناصية العلوم، وعكف على التأليف والتصنيف في مختلف العلوم التي ساعدته على فهم كتاب الله ثم الشروع في التفسير بعد أن استخار الله تعالى في عمل كتاب التفسير، وسأله العون على ما نواه ثلاث سنوات قبل البدء به، ثم شرح الله صدره لذلك، وأعانه على عمله وإتقانه وإكماله(٢).

---

(١) انظر الإتقان ٢/١٠.

(٢) انظر: معجم الأدباء ١٨/٦٢، وانظر المقومات التي يجب أن تتوفر بالمفسر، ويجب مراعاتها في الإتقان ٢/١٨٥، والبرهان للزركشي ١/٣٤.

ثامناً: مؤهلات الطبري لتفسير القرآن:

جمع الإمام الطبري الوسائل الأساسية التي تؤهله لتفسير القرآن الكريم، قبل أن يفكر بذلك، وقبل أن يشرع في التفسير، ويخوض في كلام الله تعالى، وأول خطوة في ذلك حفظ القـرآن الكريم عن ظهر قلب، ثم إتقان القراءة، ومعرفة القراءات، وهذا ما توجه إليه الطبري، فجمع القراءات، وصـار إمامـاً فيها، ثم صنف كتـاباً في ذلـك، وصلت منه نسخة إلى يومنا والحمد لله، كما سنرى، وتفرّد بقراءة مستقلة، وجمع أقوال الصحابة والتابعين في التفسير بالمأثور، وكان محدّثاً، وجمع الأحاديث، وصنف فيها الكتب النافعة، وصار إماماً في السُّنة وعلوم الحديث، وعدَّه النووي رحمه الله تعالى من طبقة الترمذي والنسائي، وأتقن علوم القرآن وما يتعلق بالناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، والروايات والأخبار التي أشار إليها القرآن الكريم، كما كان الإمام الطبري مبـرِّزاً في اللغة العربية وعلومها من المعاني والبيان والنحو والإعراب والشعر وفقه اللغة والبديع والأدب، وكان واسع الباع في الفقه، والأحكام الشرعية، والحلال والحرام، وآيات الأحكام، وأصول الفقه، وآلات الاجتهاد والاستنباط والاستدلال، وكان عارفاً بجدل القرآن الكريم، وما يتعلّق بالتوحيد والعقيدة والصفات التي كانت مثار جدل واختلاف بين الفرق الكلامية والاعتقادية في عصره، وما بعده.

ويُضاف إلى ذلك ما وهب الله تعالى به الإمام الطبري من الملكة العقلية، والنبوغ الفكري، والذكاء الحاد، والزهد الإسلامي، مما خوّله إلى التفوّق العلمي، ليصبح موسوعة كبرى في مختلف العلوم عامة، وفي علوم القرآن والتفسير خاصة.

وهذه المؤهلات العلمية التي حباها الله تعالى للإمام الطبري لم يقف

عندها ليمد يده لتفسير كتاب الله تعالى المنزَّل، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، بل تجاوز ذلك ليضع قواعد علم التفسير، ويرسم أصول التفسير، ويحدِّد المنهج القويم لكل من يريد تأويل كلام الله تعالى، وفهم مراده بشكل صحيح وسليم، فكان الطبري بحق: مؤسس أصول التفسير، وباني حدوده وقواعده، ودوَّن هذه الأسس في مقدمة تفسيره ـ كما سنرى ذلك ـ وتَقَدَّم الخطوة المميزة والحاسمة باتباع هذا المنهج، والسير على هذه الأسس في نفس التفسير، وفي هذا المجال نستأنس برأي هذا الإمام بتفسير القرآن الكريم والحاجة إليه.

تاسعاً: الحاجة إلى تفسير القرآن ووجوب تعلمه:

يرى الإمام الطبري رحمه الله تعالى أن من أعظم مِنَنِ الله تعالى على عباده تنزيل القرآن الكريم، الذي هو دستور الحياة، وناموس الوجود، وفيه الهدى والخير والنور، وأنه الفضيلة العظمى التي شرّف الله بها أمة محمد ﷺ على سائر الأمم، فقال رحمه الله تعالى[1]: «فإن من جسيم ما خصَّ الله به أمَّةَ محمدٍ ﷺ من الفضيلة، وشرَّفهم به على سائر الأممِ من المنازل الرفيعةِ، وحَبَاهم به من الكرامة السَّنيَّة: حفظه ما حفظ ـ جلَّ ذِكْرُه وتقدست أسماؤه ـ عليهم من وحيه وتنزيله، الذي جعله على حقيقة نبوة نبيِّهم ﷺ دلالةً، وعلى ما خصّه به من الكرامة علامةً واضحةً، وحجةً بالغة. . . فجعله لهم في دُجى الظُّلَم نوراً ساطعاً؛ وفي سُدَف الشبه شهاباً لامعاً، وفي مَضَلَّة المسالك دليلاً هادياً، وإلى سبيل النجاة والحق حادياً، ﴿يَهْدي به اللهُ منْ اتَّبَع رضوانَه سُبُلَ السلام ، ويُخْرِجُهم من الظلماتِ إلى النورِ بإذنهِ، ويَهْديهم إلى صراطٍ مُستقيم﴾ [المائدة/١٦].

وبما أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، وأنه أُنزل للتطبيق

---

(١) تفسير الطبري ١/٤.

والعمل، وتنظيم الحياة للأفراد والمجتمع، والأمة والدولة، وأنه كتاب للتدبُّر والتفكُّر، والاعتبار والفهم، والاستدلال والاستنباط؛ فإن الإنسان يحتاج إلى تفسيره لما يتضمنه من أساليب اللغة المختلفة، ففيه الحقيقة والمجاز، والصريح والكناية، والإيجاز والإطناب، والقصص والأمثال، والأخبار والأحكام، والعقيدة والشريعة، والتربية والأخلاق، والمصطلحات الشرعية، والاعتبارات العرفية الزمانية والمكانية، وفيه المجمل والمفسر، والمحكم والمتشابه، بل هو - كما قلنا سابقاً - كتاب الوجود، وناموس الكون، وسنن الحياة حتى تقوم الساعة، وظهرت هذه الحاجة للتفسير منذ نزول الوحي، فبيَّن القرآن الكريم بعضه ببعضه، ونهض رسول الله ﷺ بالبيان بذاته، وهرع إليه الصحابة رضوان الله عليهم للاستفسار عن مراد الله وغايته وهدفه، ثم نهض كبار الصحابة وعلماؤهم بهذه الوظيفة المقدّسة.

لذلك يرى الطبري رحمه الله تعالى وجوب تعلُّم التفسير، واتجه بنفسه إلى تعلمه، وجاب البلاد في دراسته وأخذه من أفواه العلماء، وعكف على مطالعة ما كتب من التفاسير قبله، وجمع آلات المفسر، ووسائل التفسير، ثم فكر بتصنيف تفسير خاصّ، أداءً للواجب، وشعوراً بالمسؤولية أمام الله تعالى، ونشراً للعلم، فتردد وهاب الموقف، وسأل الله العون على ذلك ثم استخار الله تعالى في الشروع بهذا العمل الجليل ثلاث سنين، إلى أن شرح الله صدره، وبدأ به، وهو ينادي بالسعادة التي تغمر من يتلو كتاب الله بفهم وتدبُّر، ويقول: «إني لأعجبُ ممنّ قرأ القرآنَ، ولم يعلمْ تأويلَه، كيف يلتذُّ بقراءتِه؟»(١).

ثم عقد الطبري فصلاً في مقدمة تفسيره بعنوان: «ذكر بعض الأخبار

---

(١) انظر: معجم الأدباء ١٨/٦٣، تفسير الطبري ١/٦ وما بعدها، سير أعلام النبلاء ١٤/٢٧٤.

التي رُويت في الحض على العلم بتفسير القرآن، ومن كان يفسره من الصحابة» وبدأه بالحديث الموقوف عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كانَ الرجلُ منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزْهنَّ حتى يعرفَ معانِيَهُنّ، والعملَ بهن» ثم قال الطبري رحمه الله تعالى: «وكان الله جل ثناؤه قد أمر عباده بتدبُّره، وحثهم على الاعتبار بأمثاله»[1].

ثم أفاض الطبري - رحمه الله تعالى - بذكر فضل التفسير، وأهميته، وثواب القائمين عليه، وبيان منهجه، وإرساء قواعده، ووضع أصوله، وضبط قوانينه، من اللغة والعقل والقرآن والسنة وأقوال السلف.

وجاء «**جامع البيان عن تأويل آي القرآن**» أعظم تفسير، وعُدَّ أصلاً لبقية المفسرين، ومرجعاً لكل قاصد لفهم كتاب الله تعالى وتأويله وتفسيره، وصار الطبري أعظم مفسِّر، وأعلم المفسرين، واستحق أن يلقب بجدارة بشيخ المفسرين، كما اعتبر أبا المفسرين.

ومن هنا نرى أنه آن أوان الشروع للوصف الدقيق والمباشر لكتاب الطبري رحمه الله تعالى في التفسير، وبيان خصائصه وميزاته في المبحث الثاني، ثم لعرض منهجه ومجمل محتوياته في المبحث الثالث إن شاء الله تعالى.

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٣٥ - ٣٧.

المبحث الثاني

وَصْفُ تَفْسِيرِ الطَّبَرِيّ

"جامعُ البيانِ عن تأويلِ آيِ القُرآن"

يُعَدّ تفسير الطبري رحمه الله تعالى باتفاق العلماء موسوعة علمية كبرى، ودائرة معارف متنوِّعة، لأنه يحتوي مختلف صنوف العلوم الدينية واللغوية، مما يندُرُ وجوده في تفسير آخر، ولذلك بلغ القمة، واستقرَّ على الذروة، وبقي في المكان الشامخ، يقصده كل دارس، ويستفيد منه كل مفسر، ويستعين به كل من تناولِ علماً من علوم القرآن.

ويقع هذا التفسير في ثلاثين جزءاً من الحجم الكبير، يبدأ بمقدمة ثم يتناول تفسير القرآن الكريم، بحسب ترتيبه المتلوّ، سورة سورة، وآية آية، ابتداء من سورة الفاتحة، وانتهاء بسورة الناس.

وسوف نتناول بالوصف الشامل هذا التفسير في الفقرات التالية:

أولاً: محتويات تفسير الطبري:

إن أَوْلى الناس بمعرفة الكتاب هو صاحب الكتاب ومصنِّفه ومؤلِّفه، ﴿بَلِ الإِنْسَانُ على نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ وصاحب الدار أدرى بمن فيها، وأهل مكة أدرى بشعابها، والإمام الطبري رحمه الله تعالى أعرف الناس بمحتويات كتابه، ولذلك نصَّ عليها في مقدمته العظيمة للتفسير، وهي مقدمة مطوَّلة، نقف عندها كثيراً، ونستعين بها في هذا البحث، كما يقف عندها الدارسون والمفسرون والعلماء.

وشرح الإمام الطبري المحتويات بطولها، وأوجزها ياقوت الحموي

رحمه الله تعالى في معجم الأدباء فقال: «وكتاب التفسير كتاب ابتدأه بخُطْبةٍ ورسالةِ التفسير، تدلّ على ما خَصَّ الله به القرآنَ العزيز من البلاغة والإعجازِ والفصاحةِ التي نافى بها سائرَ الكلام، ثم ذكر من مُقدماتِ الكلامِ في التفسير، وفي وجوهِ تأويلِ القرآنِ، وما يُعلم تأويلُه، وما وَرَدَ في جوازِ تفسيره، وما حُظِر من ذلك، والكلام في قول النبي ﷺ: «أُنْزِلَ القرآنُ على سَبْعةِ أحرفٍ»، وبأي الألسنةِ نَزَل؟ والردّ على من قالَ: إن فيه أشياءَ من غير الكلامِ العربي، وتفسير أسماء القرآن والسور، وغير ذلك مما قدّمه، ثم تلاه بتأويل القرآن حَرْفاً حَرْفاً، فذكر أقوالَ الصحابةِ والتابعين ومن بعدهم من تابعي التابعين، وكلامَ أهل الإعراب من الكوفيين والبصريّين، وجُمَلاً من القراءات، واختلافَ القراءة فيما فيه من المصادر واللغات، والجمع والتثنية، والكلامَ في ناسخِه ومنسوخِه، وأحكامَ القرآنِ، والخلافَ فيه، والردَّ عليهم من كلامِ أهل النظر فيما تكلَّم فيه بعضُ أهل البِدَع، والردَّ عليهم، على مذاهب أهل الإثبات ومُبْتَغي السنن، إلى آخر القرآن»(١).

ثانياً: اسم التفسير وعنوانه:

يُعرف هذا التفسير باسم «تفسير الطبري» واشتهر بين العلماء والناس، وبين أيدي الطلاب والنسّاخ والمكاتب بهذا الاسم، ولكن الإمام الطبري رحمه الله تعالى سمّى كتابَه باسم «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» ليكونَ الاسمُ دليلاً على المسمّى، والعنوانُ مشيراً إلى المضمون، وكان ذلك كذلك، وحقق الإمام الطبريّ ما قصدَ ووضع وأراد، فجاء التفسيرُ بحقٍ يجمعُ وجوه البيان، وأقوال العلماء، وآراء المجتهدين، واجتهاد الصحابة والتابعين، في المأثور والمنقول، والرأي

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٦٣.

والمعقول، ووازن بين الآراء المختلفة، ورجَّح ما وجده أقربَ، أو أقوى من اللغة وكلام العرب، وبما هو ثابت في الشرع، وأصح تاريخاً وعقلاً.

وجاء استعمال الطبري لكلمة «تأويل» مقصوداً، لأنه يريد بالتأويل درجة بعد التفسير، خلافاً لقول بعض العلماء بأنَّ التفسير والتأويل مترادفان، بينما يرى أكثر المتأخِّرين أنَّ التفسير بيان المعاني التي تستفاد من وضع العبارة، أو أنه يرجع إلى معرفة المعنى بالنقل والرواية، وأن التأويل بيان المعاني التي تستفاد بطريق الإشارة، أو أنه معرفة المعنى بالاجتهاد والاستنباط والرأي، وترجيح محتملات اللفظ، والاستدلال على ذلك بالأدلة المختلفة العقلية والنقلية، والتاريخية واللغوية، واستنباط الأحكام وتحديد العقيدة، وبيان المراد من النص[1]، وهذا ما أراده الطبريّ رحمه الله تعالى، فالتفسير عنده مقدمةٌ للتأويل، وأنَّ التفسير هو بيان المراد باللفظ، وهو ما نقله من مرويات الصحابة والتابعين، وأن التأويل يبين المعاني المختلفة التي تحتملها ألفاظ القرآن، مع ما ورد فيها عن السلف، ثم يعمد إلى الترجيح والموازنة، ونقد الأسانيد، واستخدام اللغة والإعراب في بيان المراد، مع الاستشهاد بالتاريخ، واستنباط الأحكام، وهذا ما حَرِصَ عليه الإمام الطبريُّ، وقصده في عنوانه، والتزمه في تفسيره، وامتاز به عن جميع التفاسير بالمأثور التي سبقته، ولذلك جاء تفسير الطبري في الحقيقة جامعاً للتفسير والتأويل معاً.

---

(١) انظر كتابنا تعريف عام بالعلوم الشرعية ص ٤٦، تفسير الطبري ٣٠/٣٩١ وما بعدها، التفسير بالمأثور ومناهج المفسرين ص ٥١ وما بعدها، التفسير والمفسرون ١/١٥ وما بعدها، البرهان ٢/١٤٦، ١٤٩، الإتقان ٢/١٤٢، ١٧٣، دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر للدكتور فتحي الدريني ١/٢٩٦، ٢٩٨.

ثالثاً: مصادر تفسير الطبري:

عاش الإمام الطبري في القرن الثالث الهجري الذي يمثل قمة الثقافة، والنمو العقلي والتفتح الذهني، وازدهار العلوم الشرعية والمعارف الدينية، وترجمة العلوم المختلفة عن الأمم السابقة، وكان لهذا الظرف تأثير كبير على الإمام الطبريّ الذي تمثّل هذه العلوم، واستوعب ثقافة عصره، ثم بدأ بالعطاء الموسوعي، والثقافة الواسعة، ليكون الطبريّ أصدقَ صورة، وأوضح مثل لعلماء القرن الثالث الهجري.

وسبق أن ذكرنا أن تفسير الطبري احتوى على العلوم الدينية واللغوية والعقلية والتاريخية، وأنه جمع جهود العلماء الذين سبقوه في هذا الخصوص، وصاغها في كتابه العظيم، ليترك لنا أكبر ذخيرة من ذخائر الإسلام في ذلك العصر[1].

لذلك كانت مصادر تفسير الطبري متنوعة من جهة، وكثيرة من جهة أخرى، مع ما أضافه إليها من معارفه واجتهاده وفكره، مما نشير إليه، ونذكّر به:

منها كتب التفاسير المصنفة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وسعيد بن جُبَيْر، ومجاهِد بن جَبْر، وقَتَادة بن دِعَامة، والحسن البَصْري، وعِكْرِمة مولى ابن عباس، والضحَّاك بن مُزَاحم، وعبدالله بن مَسْعود، وعبد الرحمن بن زَيْد بن أسلم، وابن جُرَيْج، ومُقَاتل بن حيَّان، وغيرهم من مفسري الصحابة والتابعين.

---

(١) قال أبو محمد الفرغانيُّ عن الطبريّ: «ثمَّ من كتبه التفسير الذي لو ادّعى عالم أنْ يُصَنِّف منه عشرةَ كتب، كلُّ كتاب منها يحتوي على عِلْم مفْرَدٍ مستقصى لفعل» انظر سير أعلام النبلاء ١٤/٢٧٣.

ولم يُدخل الطبري في تفسيره شيئاً من كتاب محمد بن السَّائب الكلبي، ولا مُقَاتل بن سليمان، ولا محمد بن عمر الوَاقدي، لأنهم أظنَّاء، كما لم يتعرض لتفسير غير موثوق، لكن إذا رجع إلى التاريخ والسِّيَر وأخبار العرب حكى عن محمد بن السّائب الكلبي، وعن ابن هشام، وعن محمد ابن عمر الواقدي وغيرهم فيما يفتقر إليه، ولا يأخذ إلا عنهم.

وكان الطبريُّ رحمه الله يعتمد على كتب الحديث ومشهور كتب السنة في الروايات والأحاديث والآثار في التفسير.

ويعتمد في اللغة والمعاني على كتاب علي بن حمزة الكِسَائي، وهو أحد القراء السبعة، وكان إماماً في النحو واللغة، وعلى كتاب يحيى بن زياد الفَرّاء، وهو أبرع الكوفيين وأعلمهم في النحو واللغة وفنون الأدب، وعلى كتاب أبي الحسن سعيد بن مَسْعَدة الأَخفْشَ الأوسط، وهو أحد نحاة البصرة، ومن أئمة اللغة، وعلى كتاب أبي عليّ قُطْرب محمد بن المستنير النحوي اللغوي البصري، الإمام صاحب التصانيف المشهورة(١).

كما اعتمد الطبريّ رحمه الله على كتب تابعي التابعين، وعلماء التفسير في القرن الثاني الهجري، ومنها: تفسير سُفيان بن عُيَيْنَة، ووَكيع بن الجرّاح، وشُعْبَة بن الحجَّاج، وعبد الرزاق بن همَّام الصَّنْعاني، وآدَم بن أبي إياس، وإسحاق بن رَاهوْية، ورَوح بن عُبَادة، وعَبْد بن حُميد، وسعيد بن بشير الأَزْدي الشامي، وأبي بكر بن أبي شيبة وآخرين.

ومن هنا ذكر السيوطي رحمه الله تعالى في «الإتقان» عن طبقات المفسرين، طائفة من مفسري الصحابة ثم طبقة التابعين وقال عنهم: «وهؤلاء قدماء المفسرين، وغالب أقوالهم تلقَّوْها عن الصحابة، ثم بعد هذه الطبقة أُلِّفت تفاسير تجمع أقوال الصحابة والتابعين... وبعدهم

(١) انظر: معجم الأدباء ١٨/ ٦٤ بتصرف.

محمد بن جرير الطبري، وكتابه أجلُّ التفاسير وأعظمها»[1].

ويضاف إلى هذه الكتب مصادر أخرى في تفسير آيات الأحكام وعلم الجدل والعقيدة، مما سنشير إليه في المبحث الثالث في منهج الطبري إن شاء الله تعالى.

رابعاً: أهمية تفسير الطبري:

يُعتبر تفسير الطبري من أعظم التفاسير الإسلامية قدراً، وأرفعها شأناً، وأكثرها أهمية، وأنه ذخيرة من ذخائر الإسلام، ويحتل المكانة السامية، والدرجة الأولى في نظر العلماء.

وأرى أن هذه الأهمية ترجع إلى ثلاثة أسباب أساسية، وهي:

١ ـ **الناحية التاريخية**: إن تفسير الطبريّ أقدم كتاب وصل إلينا من القرون الثلاثة الأولى، فقد بدأ في تصنيفه سنة **٢٨٣** هـ، وانتهى من إملائه سنة **٢٩٠** هـ[2]، وجمع بين مجلّداته كتب التفسير التي سبقته، وهو ـ في الماضي والحاضر والمستقبل ـ المرجع الأمين لجمع أقوال الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، ورصد آرائهم، وتخليد ذكراهم، وحفظ أعمالهم واجتهاداتهم، ولولا كتاب التفسير للطبريّ لضاع كثير من الآراء، وطُمست معظم المعالم، وتشوّهت كثير من الحقائق، ودخلت في حيِّز النّسيان، فجاء تفسير الطبري وسجَّل لنا صورة مشرقة عن السلف الصالح في القرنين الأول والثاني الهجريَّينْ، الذين كانوا أوعية للعلم، ويمثلون مرحلة انتقالية مهمة وخطيرة بين العهد النبوي وعصر الصحابة والخلافة الراشدة والأموية، وبين مرحلة استقرار العلوم وتدوينها في العهد العباسي عامّة، والقرن الثالث خاصة.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ١٨٦/٢ ـ ١٩٠، وانظر: تفسير الطبري ٣٩٥/٣٠.
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء ٢٧٣/١٤.

وإن كتب التفسير التي سبقت الطبري ـ والتي أشرنا إليها سابقاً ـ والمحاولات التفسيرية قبله قد ذهبت بمرور الزمن، ولم يصل إلينا منها إلا النادر القليل، وما ضمّنه الطبريّ في ثنايا كتابه العظيم، وسِفْره الخالد، مما يدعو إلى التقاط وتجميع هذه التفاسير الأولى من تفسير الطبري وغيره[1].

٢ ـ الناحية العلمية والموضوعية: جمع الطبريّ في تفسيره مختلف فنون العلوم الدينية، وسَبَك بينها، واستخدمها في تفسير القرآن الكريم، كما سبق في مصادره، وكما سنذكر في منهجه، فيعتمد على الحديث وعلومه، وعلوم القرآن عامة والتفسير وأسباب النزول والقراءات خاصة، وعلوم اللغة والأدب والبيان والنحو والبلاغة، وعلوم التاريخ والسِّير والأخبار، وعلم التوحيد والفِرَق، وعلم الفقه وأصول الفقه والفقه العام، والفقه المقارن، وجمع أقوال الفقهاء والاستدلال لهم ومناقشة الأدلة، والوصول إلى الترجيح، وغير ذلك من العلوم التي يستمتع بها القارىء، وكأنه في حديقة غَنّاء تجمع مختلف الأزهار، وتغرِّد فيها أشجان الطيور، وتتناغم فيها صنوف الثمار.

---

(١) إذا وجد أحد التفاسير من القرن الثاني الهجري مثلاً فإن تفسير الطبري يُعتبر المرجع الأصيل لتصحيح المخطوطة، وتوثيق النص، وهذا ما حصل في تفسير مجاهد المتوفى سنة ١٠١ هـ أو ١٠٣ هـ المطبوع في دولة قطر، قدم له وحققه عبد الرحمن الطاهر بن محمد السورتي، وقال في مقدمته (ص ٢٥، ٦٠): «إن ما جاء في تفسير مجاهد هذا، من الروايات والآثار المسندة إلى مجاهد أكثريّتها مرويّة في الطبري بإسناده عن مجاهد، بألفاظها تماماً، أو باختلاف يسير، وذلك يؤيد صحة انتسابه إلى مجاهد» ثم يقول: «إن أكثر اعتمادنا في تصحيح مخطوطتنا على تفسير الطبري... وكذلك الزيادات التفسيرية عن مجاهد التي أضفناها إلى أصلنا، فإن معظمها من تفسير الطبري». وانظر حواشي التحقيق لترى ذكر الطبري يتردد في معظمها عدة مرات، وانظر: تفسير الطبري ٣٠/٣٩٦ ـ ٣٩٧، ويظهر الأمر نفسه في «تفسير الثوري» (١٦١ هـ) الذي حققه امتياز علي عرشي ـ مدير مكتبة رضا ـ رامبور ـ الهند، وطبع بالهند، ثم طبعته ونشرته دار الكتب العلمية في بيروت ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م، =

ولم يكتف الطبري رحمه الله بالجمع بين هذه العلوم، والحفاظ على التفاسير قبله، بل نقّاها من الشوائب، وصفّاها من الكدر، يقول الشيخ محمد الفاضل بن عاشور: «كان التفسير عندما انتهى إلى الطبري، في أوائل القرن الثالث: نَهْراً مُزْبِداً، ذا رُكام ورَواسب، قد انصبَّ إلى بحرٍ خِضَم عُبَاب، فامتزج بمائه، وتشرب من عناصره، وصفا إليه من زبده، وتطهّر لديه من رُكامه ورواسبه»[1].

٣ ـ الناحية التراثية: وتبلورت الناحيتان السابقتان لتجعل من تفسير الطبري تراثاً حضارياً موروثاً، وفكراً مؤصَّلاً خالداً، ومَوْرداً للعلم، وينبوعاً للعطاء، ويصبح عمدة المتأخرين بعده، ومرجعاً مهماً لجميع المفسرين، وأصحاب العلوم المتصلة بالقرآن الكريم وعلومه ومعارفه، ويعتبر كَعْبة للعلماء وطلاّب العلم ومحبِّي الدراسة وعُشّاق المعرفة، وينكبّون حوله للرشف منه، واكتساب المعرفة من صفحاته.

وتظهر هذه الأهمية لتفسير الطبري من خلال تأثيره في غيره، وتأثّر من جاء بعده به، وافتقار كل باحث ومفسِّر ودارس لعلوم القرآن للرجوع إلى تفسير الطبري، حتى اصطبغت جميع التفاسير بعده بصبغته، واقتبسوا من مَعينه، ورشفوا من حوضه، مع اختلاف المشارب والاتجاهات والمذاهب، فاختطّ لهم سبيلاً رشَداً التزموا سلوكه.

يقول الشيخ ابن عاشور: «وأن الذي ينظر نظر المقارنة بين تفسير الطبري، والتفاسير التي جاءت بعده: من ابن عطية والزمخشري، إلى الفخر الرازي والبيضاوي، إلى الذين ساروا على خطاهم، واغترفوا من بحارهم: من ابن عرفة إلى أبي السعود، أو الذين تحرَّرُوا من اتِّباعهم، متوخِّين الابتكار

= وتظهر الإحالة لمعظم تخريج النص وتحقيقه إلى تفسير الطبري.

(١) التفسير ورجاله ص ٣٠، وانظر: التفسير والمفسرون ١/٢٠٩.

في الأسلوب، والاستقلال في الفهم: من ابن تَيْميّة وابن القَيِّم إلى محمد عبده ورشيد رِضا: ليجد من وحدة الأساليب، وتقارب الطرائق على مر تلك الألف سنةٍ وزيادة بين الطبري والذين جاؤوا من بعده، ما لا يوجد في أي من الفتون بين أوضاع القرن الثالث وأوضاع القرون المتعاقبة من السادس إلى الرابع عشر»[1].

وتتأكد أهمية تفسير الطبري من خلال آراء الأئمة والفقهاء، والعلماء والمفسرين فيه، وثنائهم عليه، بعبارات خالدة، وحِكَمٍ مأثورة، وتناد منقطع النظير، مما سنفرده في الفقرة التالية.

خامساً: أقوال العلماء في تفسير الطبري:

احتلّ تفسير الطبري سويداء القلب عند العلماء على مرّ التاريخ في القديم والحديث، وحظي بالرعاية والعناية، وأثنى عليه الأئمة والعلماء، والمؤرِّخون والمفسِّرون، وسطَّروا الجُمَل المذهَّبة حوله، وعلّقوا عليه أوسمة الفخار، مما يدلّ على أهميته ومكانته، وهذه بعض عباراتهم:

قال أبو بكر بن خُزَيمة بعد أن استعار تفسير الطبري من ابن خَالَوَيْه وردَّه بعد سنين، قال: «نظرتُ فيه من أوّله إلى آخره فما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير»[2] وهذه شهادة من عالم كبير بعد الخبرة والاطلاع والدراسة.

وقال الإمام النَّوويّ رحمه الله تعالى عن تفسير الطبري: «لم يُصنِّف أحدٌ مثلَه»[3].

---

(١) التفسير ورجاله ص ٣٢.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٧٠، طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ١٢٤، تاريخ بغداد ٢/ ١٦٤، معجم الأدباء ١٨/ ٤٢.

(٣) تهذيب الأسماء ١/ ٧٨، وهو ما قاله ابن السبكي في طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ١٢٢.

وقال العلامة الشيخ أبو حامد الإسْفراييني: «لو سافر رجل إلى الصين حتى يَحْصل على كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيراً»(١).

وقال مؤرخ الإسلام المحدث الحافظ الذهبي: «وله كتاب التفسير، لم يُصنِّف أحدٌ مثلَه»(٢).

وقال القفطي: «وصنف التصانيف الكبار، منها تفسير القرآن، الذي لم يرُ أكبر منه ولا أكثر فوائد»(٣).

وقال العلامة الحافظ المفسِّر جلال الدين السيوطيّ: «وكتابه ـ يعني تفسير الطبري ـ أجلُّ التفاسيرِ وأعظمُها... فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، والإعراب، والاستنباط، فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين...» ثم قال السيوطي رحمه الله تعالى: «فإن قلتَ: فأي التفاسير ترشد إليه، وتأمر الناظر أن يعوِّلَ عليه؟ قلتُ: تفسير الإمام أبي جعفر بن جرير الطبريّ، الذي أجمع العلماء المعتَبرون على أنه لم يؤلَّف في التفسير مثلُه»(٤).

وقال أبو عمر الزاهد، غلام ثَعْلب: «قابلت هذا الكتاب من أوله إلى آخره، فما وجدتُ فيه حرفاً خطأً في نحوٍ أو لُغة»(٥).

وقال العلامة الزركشي: «ثم إنَّ محمد بن جرير جمع على الناس أشتات التفاسير، وقرّب البعيد»(٦).

---

(١) انظر: معجم الأدباء ١٨/٤٢، طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٣، تاريخ بغداد ٢/١٦٣، تهذيب الأسماء ١/٧٩.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٤/٢٧٠.
(٣) إنباه الرواة ٣/٨٩.
(٤) الإتقان ٢/١٩٠.
(٥) انظر مقدمة الأستاذ محمود شاكر لتفسير الطبري ١/١٢ طبعة دار المعارف.
(٦) البرهان في علوم القرآن ٢/١٥٩.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وتفسير محمد بن جرير الطبري وهو من أجل التفاسير، وأعظمها قدراً...» وقال: «وأما التفاسير التي في أيدي الناس، فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتَّهمين كمقاتل ابن بَكير والكلبي»[1].

وقال الشيخ محمد الفاضل بن عاشور: «فكان جديراً بالتفسير، حين تناوله الطبريُّ بتلك المشاركة الواسعة وذلك التفنُّن العجيب، أن يبلغ أوجَه، وأن يستقر على الصورة الكاملة التي تجلت فيها منهجيته، وبرزت بها خصائصه، مسيطرة على كل ما ظهر من بعده من تآليف لا تُحصى في التفسير»[2].

وقال الشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي: «وقد اعتُبر الطبريُّ أبا التفسير، كما اعتُبر أباً للتاريخ الإسلامي، وذلك بالنظر لما في هذين الكتابين من الناحية العلمية...»، ثم يقول: «يُعتبر تفسير ابن جرير من أقوم التفاسير وأشهرها، كما يُعتبر المرجع الأول عند المفسرين الذين عُنُوا بالتفسير النقلي، وإن كان في الوقت نفسه يُعتبر مرجعاً غير قليل الأهمية من مراجع التفسير العقلي، نظراً لما فيه من الاستنباط، وتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، ترجيحاً يعتمد على النظر العقلي، والبحث الحرّ الدقيق»[3].

وكان أبو بكر بن كامل ـ تلميذ الطبري ـ قد وصف لنا إملاء الطبري لتفسيره وقراءته على طلابه سنة ٢٧٠ هـ، ثم قال: «واشتهر الكتاب،

(١) مجموع فتاوى ابن يتيمة ١٣/٣٦١، ٣٨٥.
(٢) التفسير ورجاله ص ٣١.
(٣) التفسير والمفسرون ١/٢٠٦، ٢٠٧.

وارتفع ذكره. . . ، وحمل هذا الكتاب مشرقاً ومغرباً، وقرأه كل من كان في وقته من العلماء، وكلٌّ فضّله وقدّمه»(١).

سادساً: طباعة تفسير الطبري:

انتشر تفسير الطبري في الآفاق قديماً وحديثاً، وحاز شهرة عالمية عند المسلمين وغيرهم من المستشرقين، وانكبَّ الناس على نسخه وقراءته والاستفادة منه والأخذ عنه، والاقتباس من عباراته وفقراته، ولكن نظراً لسعته وكبر حجمه وعمق بحوثه، والتفنّن في عرضه وعلومه لم يصبح كتاباً مقرراً في التدريس ومعاهد العلم على الطلاب، لأنه أعلى مستوى من ذلك، وبقي مرجعاً للعلماء والباحثين والمصَنِّفين.

وشاعت نسخ تفسير الطبري في مشرق العالم الإسلامي ومغربه، وكان معروفاً على كل لسان، وفي رَدَهات العلم والمكتبات العامة والخاصة.

وتحت الظروف القاسية التي مرّ بها العالم الإسلامي في عهد الركود والجمود في القرنين الماضيين، وفي عصر الاستعمار الأوربي للبلاد العربية والإسلامية غاب تفسير الطبري عن الأنظار، وكاد يُفقد من المكتبات، وخُيِّل لبعضهم أنه من الكتب الضائعة، والتراث المفقود، حتى أن صاحب كتاب «كشف الظنون» لم يطّلع عليه، وكاد الناس أن يعتبروه مفقوداً لا وجودَ له، وعبّر عن ذلك المستشرق الألماني نولدكه بقوله: «لو حَصَلْنا على هذا الكتاب، لاستطعنا أن نستغني عن كل كتب التفسير المتأخِّرة عنه، ولكنه يبدو ـ للأسف ـ مفقوداً بالكلية»(٢)، واتّجه

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٦٢، ولعل الطبري بدأ تفسير القرآن سنة ٢٧٠ هـ، بينما نقل آخرون أنه أملاه سنة ٢٨٣ هـ.

(٢) انظر: مذاهب التفسير الإسلامي، جولد تسيهر، ترجمة النجار، مطبعة السنة =

الباحثون إلى التقاط النُّتَف والعبارات المنقولة عنه من الكتب الأخرى ليجمعوها، ويعتمدوا عليها، ويحلِّلوا جُمَلها، ويتلمسوا أهميتها، وشارك في ذلك عدد من المستشرقين الذين أُولعوا بتفسير الطبري، وأطلقوا عليه صفات الإجلال والثناء، وعقدوا الأماني على رؤيته والعثور عليه.

وكان فضل الله تعالى على هذه الأمة عظيماً، فحفظ لنا هذا التفسير المبارك، ونجت نسخُه من الدمار والاندثار والحرق والإتلاف والعبث وعوادي الزمن، واكتُشف منه لأول وهْلة ثلاث نسخ، نسخة عند أمراء نجد من آل الرشيد، ونسخة من دار الكتب المصرية، وثالثة من دار الكتب الأحمدية بحلب.

وأسرع آل الحلبي بالقاهرة إلى جمع هذه النسخ، وعملوا على طبعه ونشره فنالوا شرف الريادة في ذلك، وكان لهم فضل السَّبْق، واكتسبوا الأجر العظيم والثواب العميم في وضع هذا الكتاب بين أيدي المسلمين، وفاجؤوا العالم بهذا الكنز، وبدَّدوا أوهام الضياع والفقد.

وبيَّن عميد آل الحلبي الثاني السيد مصطفى البابي الحلبي في مقدمته للطبعة الأولى «حرص هذه الأسرة على إمتاع المسلمين في جميع الآفاق، بالعزيز النادر من تراث سلفهم الصالح، غير مدّخرين مالاً ولا جُهْداً في سبيل الوصول إلى تحقيق تلك الرغبات والأماني العزيزة، التي ناطها بهم العلماء في جميع الأصقاع الإسلامية»، وقال: «وبعد: فيقول الفقير إلى الله تعالى «مصطفى بن محمد البابي الحلبي الكتبي»: إني طالما رأيت علماء الغرب المسيحيين، مُولَعين بالبحث عن الكتب الإسلامية القديمة العهد، ومجتهدين في الحصول على ما فيها من

= المحمدية، (عن تفسير الطبري ٣٠/٤٠١)، التفسير والمفسرون ١/٢٠٧، التفسير ورجاله ص ٣٧، وانظر مخطوطات هذا التفسير ونسخه في تاريخ التراث العربي ١/٢/١٦٦.

العلوم، ويُسمّى المشتغل منهم بذلك «مستشرقاً» أي دأبه البحث عن الكتب الشرقية. ومن أهم ما كانوا يَجدُّون في البحث عنه «تفسير القرآن، للإمام محمد بن جرير الطبري» حتى إنَّ الواحد منهم إذا سمع بوجود قطعة من التفسير المذكور في بعض «دور الكتب» يعمل كل وسيلة للاطّلاع عليها، ونسخ ما يهمُّه منها، ولا يبالي بصرف الوقت والمال في سبيل ذلك، وكنت أكاد أذوب خجلاً وأسفاً، عندما أرى بعض الكتب العربية سبقنا أهل أُوربة إلى طبعه ونشره، ولم يصل إلينا إلاّ مِنْ أيديهم، بعد فترة من الزمن، مع أننا أحق بالمسابقة في نشر كتبنا، ولم يجىءْ هذا إلا من تساهل أفراد الأمة الإسلامية، فيما هم أحقّ به. . . ولما كنت ممّن وفقني الله لنشر بعض الكتب العالية، محبة في الخير، وتسهيل السبيل إليه، بادرت بطبع كتاب «تفسير الإمام محمد بن جرير الطبري» الذي مضى على وفاة مؤلفه «ألف وإحدى عشرة سنة» محبةً لنشر العلم، وخوفاً من أن يسبقنا الأوربيون لطبعه، وإظهاره إلى عالم الوجود»[1].

وتمت طباعة هذ التفسير، ونشره في العالم، والحمد لله تعالى، خمس مرات حتى الآن وهي:

١ ـ **الطبعة الأولى**: في المطبعة الميمنية، لشركة مصطفى البابي الحلبي وأخويه، سنة ١٣٢١ هـ، وذلك على ثلاث نسخ خطية.

٢ ـ **الطبعة الثانية**: بمطبعة بولاق الأميرية بمصر في سنة ١٣٢٣ هـ، إلى سنة ١٣٣٠ هـ، اعتماداً على نسختين خطيتين بدار الكتب المصرية، وعلى هامش تفسير الطبري طبع تفسير النيسابوري.

وظهر في هاتين الطبعتين كثير من الأخطاء لاضطراب النسخ الخطية، وتدارك المصححون بعضها بالرجوع إلى كتب التفسير، وخاصة «الدرُّ المنثور» للسيوطي.

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٣٠/٣٨٨.

٣ ـ **الطبعة الثالثة**: أخرجتها «شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده» بمصر سنة ١٣٧٣ هـ/ ١٩٥٤ م، واستمرت في المطبعة أربع سنوات وظهر الجزء الثلاثون سنة ١٣٧٧ هـ/ ١٩٥٧ م، وقام على تصحيح هذه الطبعة، والعناية بها، واستدراك الأخطاء والتحريف، ومراجعة نسخ خطية جديدة، هيئة من العلماء الأجلّاء، وعلى رأسهم الأستاذ مصْطَفى السَّقّا الذي كتب خاتمة للتفسير، وتعريفاً به، وبيّن عمل اللجنة في التصحيح، وأنهم جعلوا لكل جزء ثلاثة فهارس، إحداها للآي المفسَّرة، والثانية للموضوعات، والثالثة للقوافي، وألحقوا بآخر الجزء الثلاثين فهرسة جامعة للقوافي في جميع أجزاء الكتاب، ليسهل عل المُراجع الوقوف على ما في التفسير من مادة شعرية غزيرة.

ثم قامت هذه الشركة والمطبعة بتصوير هذه الطبعة سنة ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م، وفي أولها كلمة تعريف وبيان للناشر محمد محمود الحلبي.

٤ ـ **الطبعة الرابعة**: في مطبعة دار المعارف بمصر، وبُدىء بها سنة ١٣٧٤ هـ، وظهر منها ستة عشر مجلداً كبيراً، وقام على تحقيقها وضبطها ومراجعة النصوص والشواهد والشعر وتخريج الأحاديث والروايات والأخبار العالمان الجليلان ابنا الشيخ محمد شاكر، وهما الأديب المؤرِّخ العالم محمود، والفقيه القاضي المحدث الشيخ أحمد رحمه الله تعالى، ولا تزال الآمال معقودة، والأنظار متّجهة إلى الأستاذ محمود شاكر لإتمام هذا العمل الجليل، والسفر الخالد، والتحقيق الدقيق، والضبط الكامل، والعرض الحسن، والفهارس التفصيلية، والترتيب المفصَّل، أمدَّ الله في عمره، وأعانه على تحقيق هذا المراد.

٥ ـ **الطبعة الخامسة**: في دار الفكر بلبنان، وهي تصوير للطبعة الثالثة في مطبعة الحلبي، مع حذف مقدمة الناشر محمد محمود الحلبي،

واستبدالها بمقدمة للشيخ خليل المَيْس مدير أزْهر لبنان عن ترجمة الطبري ونبذة عن تفسيره في أربع صفحات، وإضافة فهرس رابع للأحاديث النبوية في كل جزء بالإضافة إلى الفهارس الثلاثة المطبوعة سابقاً: الأول للآيات المفسَّرة، والثاني للموضوعات (وجاء في المفسرة باسم فهرس مواضيع الآيات)، والثالث للقوافي، وليس في النسخة المصورة إشارة لطبعة الحلبي. وصوِّرت في بيروت سنة ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨ م.

سابعاً: مختصرات تفسير الطبري وترجماته:

ومن صور إقبال النَّاس على تفسير الطبري، واعتباره عمدةَ التفاسير، حرصهم على تقريبه للناس، وتسهيل الانتفاع به، وتلخيصه وترجمته، ولكن نظراً لتنوّع العلوم فيه، وسعة المعلومات التي يتناولها لم يكثر تلخيصه كما حصل لغيره من التفاسير، ومن هذه المختصرات:

١ ـ **مختصر ابن صُمَادِح**، وهو أبو يحيى محمد بن صُمادح التُجيبي الأندلسي (٤٨٤ هـ)، وكان متداوَلاً بين طلبة العلم بالأندلس حتى القرن الثامن الهجري، ويعرف بـ «تلخيص الطبري».

وهو مجرد تفسير لغريب القرآن الكريم مأخوذ من تفسير الطبري، ولم يتناول تفسير الآيات، ولم يعرض لآراء المفسرين في الآية، ويوجد منه نسخة بصنعاء برقم ١٠٧ تفسير، ويتكوّن من ٢٤٢ ورقة، وقام السيد محمد أبو العزم الزفيتي بتحقيقه وطبعه في مجلدين، ثم طبعته دار الشروق على هامش المصحف، وأسمته «مصحف الشروق المفسّر الميسَّر» عام ١٣٩٧ هـ، ويقع في ٧٢٤ صفحة من الحجم الكبير[١].

---

(١) ويقوم الآن أحد طلابنا المتخرجين من كلية الشريعة بطبع هذا المختصر في بيروت سنة ١٩٨٩ م.

٢ ـ اختصار تفسير الطبري، لأبي بكر، أحمد بن علي بن بيغجور، المعروف بابن الإخشيذ، من رؤساء المعتزلة وزهّادهم، وكان فصيحاً، وله معرفة بالعربية والفقه، ومن تصانيفه «نقل القرآن» و«الإجماع» و«اختصار تفسير الطبري»، وذكر هذا المختصر ابن النديم في «الفهرست» والزركلي في «الأعلام».

٣ ـ مختصر تفسير الطبري، للشيخ محمد علي الصابوني والدكتور صالح أحمد رضا، وهو تلخيص موجز، لا يبيِّن رأي الطبري من رأي غيره من المفسِّرين، ولا يتعرّض للقراءات والأسانيد والشعر وأسباب النزول إلا ما ندر، ولا لاستنباط الأحكام، ويقع في مجلدين،وطبعته دار القرآن الكريم ببيروت عام ١٤٠٣ هـ، وبهامشه تحقيقات وتعليقات نافعة.

وكان الإمام السيوطي يحلَم بتلخيص تفسير الطبري، فقال في (طبقات المفسرين ص ٩٦): «قد منَّ الله عليَّ بإدامة مطالعته والاستفادة منه، وأرجو أن أصرف العناية إلى اختصاره وتهذيبه، ليسهل على كل أحد تناوُله إن شاء الله تعالى».

وذكر الأستاذ فؤاد سزكين وبروكلمان أن تفسير الطبري تُرْجم إلى اللغة الفارسية، من قبل مجموعة من العلماء بأمر أبي صالح منصور ابن نوح الساماني (المتوفى سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٧٧ م) ويوجد نسخة من الترجمة في المتحف البريطاني وفي باريس والبنغال وألمانيا. وذكر بروكلمان ترجمة لتفسير الطبري بالتركية، ويوجد منه نسختان في ألمانيا وتركيا.

كما تُرجم مختصره لشخص غير معروف إلى اللغة الفارسية، ويوجد منه عدة نسخ في دور الكتب.

كما قام الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي بعمل جليل لتفسير الطبري،

وصنف «تخريج أحاديث وآيات وتعليق تفسير الطبري» بالقاهرة سنة ١٩٥٨ م[١].

ثامناً: التفسر عربي والطبري فارسي:

ومما يستوقف الباحث والناظر والقارىء أن يرى تفسير الطبري «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» جاء بلغة عربية سليمة، وأسلوب عربي فصيح، ويتضمن البلاغة اللغوية، والإعجاز البياني، ويحوي مئات الشواهد وأبيات الشعر، ويذخر بثروة لغوية يندر وجودها في تفسير آخر، ويعتمد على أمهات كتب اللغة، فقد صاغه الطبري رحمه الله تعالى بحسب معطيات اللغة العربية، دون أن يرتكب خطأ، أو يقع في غلط، كما شهد بذلك العالم اللغوي غلام ثعلب، وأصبح تفسير الطبري مرجعاً للمختصين بالأدب والشعر واللغة، وكُتبت البحوث والدراسات عن اللغة والشعر في تفسير الطبري.

وسبق البيان أن الطبري من أهل فارس، ووُلد في آمُل طبرستان، ونشأ بها، وتعلّم فيها، وانتقل إلى الري ـ قرب طهران الآن ـ ثم رحل في طلب العلم، فكيف تمَّ الجمع بين هذا التفسير العربي المبين مع هذا المصنِّف الفارسي؟.

لا حاجة للتذكير بأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي، ولا يمكن تفسيره وفهمه إلا حسب اللغة العربية، وبناءً على أصولها وقواعدها واستعمالاتها ودلالاتها.

والمهم هنا أن نشيد بعظمة الإسلام الحنيف، الذي لم يقتصر على إخراج الأمة العربية من الظلمات إلى النور، وتوحيد قبائلها، والقضاء

---

(١) انظر: تاريخ التراث العربي ١/٢/١٦٧، الطبري المفسِّر للدكتور محمد عبد السلام أبو النيل ص ٦٠، الفهرست ص ٣٢٧، الأعلام ١/١٦٥، تاريخ الأدب العربي ٢/٤٩.

على الأوثان والأصنام فيها، وتوجيه طاقاتها إلى خير الإنسانية، وحَمْلِ رسالة السماء، بل تجاوز ذلك فانتقل هذا الدين الرشيد من الجزيرة العربية إلى العالم أجمع، فحرّر شعوبها من العبودية والاستكبار والذلّ، وفتح عيونها على الهدى والنور فدخلت في دين الله أفواجاً طائعة مختارة، ثم انصهرت مع الأمة العربية عقيدة وفكراً، وثقافة وعزاً، مع الاحتفاظ بلغاتها وقوميّاتها، ونهضت هذه الشعوب مجتمعة لرفع راية التوحيد، ونشر نور العلم والحضارة على العالم أجمع، مع وحدة الهدف والغاية، وصارت اللغة العربية ـ لغة القرآن والإسلام ـ لغة العلوم والثقافات، وأضحت لغة عالمية لجميع شعوب الأرض، ومختلف صنوف المعارف، فنشر القرآن اللغة العربية، وجنّد لها جهابذة المسلمين من العرب وغيرهم لخدمتها وتدوينها والسهر عليها.

وشارك المسلمون غير العرب في هذا العمل الجليل، وقدّموا لدينهم وإسلامهم وأمّتهم الأعمال الخالدة، والجهود المضنية، حتى جاءت بعض العصور التي انفردوا فيها في خدمة الدين والإسلام، كما برز كثير منهم في الدراسات العربية، والمعاجم اللغوية، وفاقوا أبناء العروبة، حباً بلغة القرآن، واقتداءً بنبيّ الإسلام، وطمعاً في الثواب والأجر عند رب العالمين، وحققوا أروع الأمثلة في التقاء الأمم والشعوب على الخير، والتعاون على البرّ، والتكاتف في وجه الطغاة والبغاة والظلمة والمستعمرين، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿يا أيُّها النَّاسُ، إنَّا خَلَقْناكم من ذكر وأنثى، وجَعَلْناكم شُعُوباً وقَبَائِلَ لتَعَارَفُوا إنَّ أكْرَمَكُم عِنْدَ اللهِ أتْقاكُم، إنَّ الله عليمٌ خَبيرٌ﴾ [الحجرات/١٣]، وظهر التنافس بين هذه الأمم والشعوب إلى الأعمال الصالحة، وخير البشرية، وليس إلى التدمير والاستعمار والحروب الباردة والساخنة، والعداوة والتقاتل والعنصرية.

وهذا هو الأمل الذي يحدونا اليوم للعودة إلى الإسلام، والتمسك

بأحكام الدين، والالتفاف حول مائدة القرآن لتذوب فوارق الجنس واللون والثروات، ويتم التعاون الدولي الحقيقي، ويتم السلام العالمي بين شعوب الأرض قاطبة، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ويَحْظَون بمرضاته.

ومن هذا المنطلق، وبهذا التصور تنتفي الغرابة بين تفسير الطبري العربي، وكون الطبري فارسياً، بل نجد أن ذلك هو الأمر الطبيعي المنسجم مع رؤية الإسلام، ليرتقي كل مسلم ـ مهما كان لونه وجنسه ولغته ـ إلى ذروة المجد والقيادة والريادة في جميع المجالات بما يقدِّم من جهد وعمل، ويأتي الطبري شيخاً لمفسِّري كتاب الله تعالى، ويلمع اسمه بعمله، وينضمّ إلى العلماء المسلمين من غير العرب كأبي حنيفة والفيْروزَبَادي والبُخَاري ومسلم والجُوَيْني والبَيْضاوي[1]، ولعلنا نذكر أن الطبقة الثانية التي حملت دعوة الإسلام ومشعل العلوم الإسلامية كادت أن تكون من غير العرب، وهم طبقة التابعين الذين جاؤوا بعد الصحابة، ثم أعقبهم عدد من العلماء في مختلف العلوم، لا يُعَدُّون بالآلاف بل بالملايين، وكتب التراجم والتاريخ خير شاهد.

ويعبر الثَّعالِبي النَيْسَابُوريّ (المسلم غير العربي) عن هذه المعاني بصدق وإخلاص وجلاء ووضوح، فيقول:

«فإنَّ مَنْ أحبَّ اللهَ تعالى أحبَّ رسولَه المصطفى ﷺ، ومن أحبَّ الرسولَ العربيَّ أحبَّ العربَ، ومن أحبَّ العربَ أحبَّ العربيةَ التي بها نزل أفضلُ الكتب على أفضلِ العرب والعجم، ومن أحبَّ العربيَّةَ عُنِي

(١) انظر هذا الموضوع في كتابنا «الإمام الجويني» ص ٤٣، وكتابنا «القاضي البيضاوي» ص ٣٣ وما بعدها، وبحثنا عن «العروبة عند إقبال عقيدة وفكراً»، وانظر بحث الطبري عن «القول في اللغة التي نزل فيها القرآن» في تفسير الطبري ١٣/١.

بها، وثابرَ عليها، وصرف همَّته إليها. . . »، ثم يقول: «والعربُ خيرُ الأمم، والعربيةُ خيرُ اللغات والألسنةِ، والإقبالُ على تفهُّمها من الدِّيانة، إذ هي أداةُ العلم، ومفتاحُ التفقه في الدِّين، وسببُ إصلاح المعاش والمعـاد».

رحم الله أبا منصور الثعالبي النَيْسابوري الذي التزم ما قاله، وعبَّر به عن الحقيقة الإسلامية والعربية، وكان لسان صدق لهم، وكتب هذه الأحرف من نور في مقدمة كتابه «فقه اللغة»[1].

---

(١) فقه اللغة ص ٢.

المبحث الثالث

منهج الطبري في التفسير

لم يُقْدم الطبري رحمه الله على تفسير كتاب الله تعالى إلا بعد نضوج الفكر، واكتمال العقل، وتحصيل العلوم، والتزوّد بآلات التفسير ووسائله.

ولم يجرؤ الطبري رحمه الله على تفسير القرآن العظيم بمجرد الهوى والتشهِّي والرأي، بل سار على منهج واضح، وخطة حكيمة، وفوق ذلك فقد رسم الخطوط العريضة لتفسير القرآن الكريم، ووضع القواعد الصحيحة، واستنَّ القوانين الحكيمة، ووضع السياج الأمين للحفاظ على مقاصد الشريعة.

وقدَّم الطبري رحمه الله تعالى مقدمة مستفيضة لكتابه، تحتوي أصول التفسير في الإسلام، ليلتزم بها بنفسه، ويرسم الطريق لمن يأتي بعده، ويحدِّد الحدودَ لتناول كتاب الله تعالى، ليؤمنَ الفهمَ السليم، ويكشفَ عن مراد الله تعالى، ويحقق الاستفادة الكاملة منه، ويجني الثمار من تدبُّره وفهمه وتفسيره وتأويله، ويضمن المناعة من الانحراف فيه قصداً أو بدون قصد، ويجتثَّ العبث منه، ويمنع التلاعب حوله.

ونأخذ منهج الطبري في التفسير مباشرة من أقواله وعباراته في المقدمة، كما نلمسها لمس اليد من قراءة كتابه الواسع، وذلك في الفقرات التالية:

أولاً: أصول التفسير جملة في مقدمة الطبري:

عرض الإمام الطبري منهجه بإيجاز، بعد أن بيَّن فضل محمد ﷺ بالنبوة والمعجزات، وفضل الله تعالى على هذه الأمة بحفظ كتابها، ومعجزة نبيِّها، ثم بيَّن فضل العناية بكتاب الله تعالى، ثم قال: «ونحن في شرح تأويله، وبيان ما فيه من معانٍ منشئون ـ إن شاء الله ذلك ـ كتاباً، مستوْعِباً لكل ما بالنَّاس إليه الحاجة من علمه جامعاً، ومن سائر الكتب غيره في ذلك كافياً، ومخبرون في كل ذلك، بما انتهى إلينا من اتفاق الحجَّة، فيما اتفقت عليه الأمَّةُ، واختلافها فيما اختلفت فيه منه، ومبيِّنُو عِلَل كل مذهب من مذاهبهم، وموضِّحو الصحيح لدينا من ذلك، بأوجز ما أمكن من الإيجاز في ذلك، وأخصر ما أمكن من الاختصار فيه، واللهَ نسأل عونه وتوفيقه، لما يقرِّب من محابِّه، ويُبْعد من مَسَاخطه، وصلى الله على صفوته من خلقه، وعلى آله، وسلم تسليماً كثيراً»[1].

ثم شرع الطبري بتفصيل منهجه في أصول التفسير مع ذكر الأدلة الشرعية واللغوية، وضرب الأمثلة العملية من القرآن الكريم والسنة وكلام العرب واللغة والشعر، ونورد خلاصة عنه فيما يلي.

ثانياً: ملخص منهج الطبري في التفسير:

لخصَ لنا الأستاذ الفاضل محمد محمود الحلبي ـ في كلمة الناشر للطبعة الثالثة ـ منهج الطبري باختصار فقال:

«وهو تفسير ذو منهج خاص، يذكر الآية أو الآيات من القرآن، ثم يعقُبها بذكر أشهر الأقوال التي أُثرت عن الصحابة والتابعين من سلف الأمة في تفسيرها، ثم يورد بعد ذلك روايات أخرى متفاوتة الدرجة في الثقة والقوة في الآية كلها أو في بعض أجزائها، بناءً على خلاف في

(١) تفسير الطبري ١/٥.

القراءة، أو اختلاف في التأويل، ثم يُعقِّبُ على كل ذلك بالترجيح بين الروايات، واختيار أَوْلاها بالتقْدِمَة، وأحقّها بالإيثار، ثم ينتقل إلى آية أخرى، فينهج نفس النهج: عارضاً، ثم ناقداً، ثم مرجِّحاً».

«وهو إذ ينقدُ، أو يرجِّحُ، يردُّ النقد أو الترجيح إلى مقاييسَ تاريخيةٍ من حال رجال السَّند في القوة والضعف، أو إلى مقاييسَ علميةٍ وفنية: من الاحتكام إلى اللغة التي نزل فيها الكتاب، نصوصها وأقوال شعرائها، ومن نقد القراءة وتوثيقها أو تضعيفها، ومن رجوع إلى ما تقرّر بين العلماء من أصول العقائد، أو أصول الأحكام أو غيرهما من ضروب المعارف التي أحاط بها ابن جرير، وجمع فيها مادة لم تجتمع لكثير من غيره من كبار علماء عصره..»(١) إلى آخر كلامه. ونكتفي بهذا القدر من الموجز لنذكر بعض الفقرات تفصيلاً.

ثالثاً: مجال المفسرين في القرآن الكريم:

صنّف الإمام الطبري رحمه الله تعالى آيات القرآن الكريم بالنسبة إلى فهم معناها، وإدراك حقيقتها، وتحديد المراد منها إلى ثلاثة أصناف، وحَصَر مجال العلماء والمفسِّرين في الصنف الثالث فقط، وأنه لا يحق لهم تخطِّي ذلك ولا تجاوزه، وسمى هذه الأصناف ثلاثة وجوه(٢)، وهي:

أحدها: الآيات الكريمة التي أنزلها الله تعالى على نبيه ﷺ، ولا يعلم تأويلها إلا الله، ولا سبيل إلى الوصول لمرادها، وهي مما استأثر الله تعالى بعلمها، وحجب علمَـه عن جميع خلقه فيها، وتنحصر غالباً في الآجال التي ضربها الله تعالى للأمور الحادثة، وأخبر الله في كتابه

---

(١) تفسير الطبري ١/٤.

(٢) انظر تفسير الطبري ١/٣٣، ٤١ مع التصرف.

أنها كائنة، مثل وقت قيام الساعة، ووقت نزول عيسى ابن مريم، ووقت طلوع الشمس من مغربها، والنفخ في الصور، وما أشبه ذلك مما لا يعلمُ أحدٌ حدودَها، ولا يعرف أحدٌ تأويلَها، إلا الخبر بأشراطها، لاستئثار الله بعلم ذلك على خلقه، وكان رسول الله ﷺ إذا سُئل عن شيء منها أجاب: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ثم يبيِّن الأشراط، كأشراط الساعة، وصفات الدجّال.

ثانيها: الآيات الكريمة التي أنزلها الله على نبيه ﷺ، وأمره بتفسيرها، وكلّفه ببيانها في قوله تعالى: ﴿وأَنْزَلْنا إليكَ الذِّكْرَ لتبيِّن للنَّاس ما نُزِّل إليهم، ولَعَلَّهُم يتفكَّرُونَ﴾ [النحل/٤٤]، وقوله تعالى: ﴿ومَا أنْزَلْنا عليكَ الكِتَابَ إلا لتُبَيِّنَ لهم الذي اختلفُوا فيه وهُدَىً ورحْمةً لقوم يؤمنون﴾ [النحل/٦٤]، وخصَّ الله تعالى نبيَّه دون سائر أمته بعلم تأويلها، لأن الأمة بحاجة إلى ذلك، من آيات أمره ونهيه، وندبه وإرشاده، ووظائف حقوقه وحدوده، ومبالغ فرائضه، والمقادير والأنصبة التي تتعلق بها الأحكام، وهذه الآيات لا يجوز لأحد القول فيها، ولا تفسيرها أو تأويلها إلا ببيان رسول الله ﷺ أو تأويله، بنصٍ منه عليه، أو بدلالة قد نصبها دالّةً أمّتَه على تأويلها.

ثالثها: الآيات الكريمة التي أنزلها الله تعالى، ويعلم تفسيرها وتأويلها كلُّ ذي علم باللسان الذي نزل به القرآن، وعلم بدلالات ألفاظ هذا اللسان، وأسلوب التعبير فيه، وذلك بإقامة إعرابه، ومعرفة المسَمَّيات بأسمائها اللازمة، وما أَلِفَتْه العرب من وجوه استعمالات الألفاظ والتراكيب مما يتعلق بالحقيقة والمجاز، والمشترك والمُجْمل، وما يثبت عن نقل العُدُول الأَثْبات فيما لم يكن فيه نقل مستفيض، أو بالنقل المستفيض من جهة اللسان، وبالشواهد من أشعار العرب السائرة، ومن منطقهم ولغاتهم المعروفة، وهذا يدركه العالم، ويقوم به المفسِّر مستعيناً

بما ورد في السنة، وما نُقل عن السلف من الصحابة والأئمة، والخلف من التابعين وعلماء الأمة، وهذه هي دائرة التفسير لكتاب الله تعالى.

رابعاً: إنكار الطبري للتفسير بالرأي:

بعد أن بيَّن الطبري رحمه الله تعالى الآيات الكريمة التي تقع في مجال التفسير، ويمكن للعلماء والمفسرين أن يبيِّنوا تفسيرها وتأويلها ومعناها، لم يترك الحبل على غاربه، وإنما وضع قواعد التفسير، وأصول التأويل، وحذَّر من التفسير بالرأي، والتلاعب في كلام الله تعالى بحسب الأهواء الشخصية، والأغراض الخاصة التي دفعت ـ ولا تزال تدفع ـ بعض الناس من تأويل بعض الآيات بما يخدم مصالحها، وتحرِّف معاني كتاب الله تعالى ليوافق آراءها المذهبية، وأفكارها الطائفية، ومزاعمها الباطلة، وأورد الأحاديث الكثيرة بأسانيدها إليه في تحريم ذلك، فمن ذلك ما رواه عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قالَ في القرآنِ بَرْأيه، أو بما لا يَعلم، فليتبوأ مقْعَدَه من النَّار» وفي رواية أخرى: «منْ قالَ في القرآنِ بغير علمٍ فليتبوَّأ مقْعدَه من النَّارِ»[1]، وذكر عدة آثار في ذلك، منها ما رواه عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «أيُّ أرضٍ تُقِلُّني، وأيُّ سماء تُظِلُّني إذا قلتُ في القرآن برأيي أو بما لا أعلم».

ولذلك تجنَّب الطبري التفسير بالرأي المجرد فقط، أو الرأي الناشىء من بدعة مضلة، أو مذهب خاص، أو طائفة منحرفة، أو يهدف إلى مطمع سياسي أو تعصب ممقوت، وحرّم ذلك بقوله: «إنَّ ما كان من تأويل آي القرآن الذي لا يدرك علمه إلا بنص بيان رسول الله ﷺ، أو

(١) هذا الحديث رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه الإمام أحمد والنسائي (انظر: سنن الترمذي مع تحفة الأحوذي ٨/٢٧٧).

بنصبه الدلالة عليه، فغير جائز لأحد القيل فيه برأيه، لأن إصابته ليست إصابة موقن أنَّه مُحِقٌّ، وإنما هو إصابة خارص وظانّ، والقائل في دين الله بالظنّ قائل على الله ما لم يعلم، وقد حرّم الله جلّ ثناؤه ذلك»[1].

وروى الطبري بإسناده عن جندب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قالَ: «منْ قالَ في القرآن برأيه فأصابَ، فقد أخطأ»[2] ثم قال الطبري: «يعني ﷺ أنَّه أخطأ في فعله، بقيله فيه برأيه، وإن وافق قيلُه ذلك عينَ الصواب عند الله، لأنَّ قيله فيه برأيه ليس بقيل عالم، أن الذي قال فيه من قول حق وصواب، فهو قائل على الله ما لا يعلم، آثم بفعله ما قد نهى عنه وحظر عليه»[3].

خامساً: التفسير بالمأثور:

يتسم تفسير الطبري بالتفسير بالمأثور، لأنه يحوي جميع تراث السلف في التفسير، ويلتزم الطبريّ رحمه الله تعالى بما اتفق عليه المسلمون في درجات التفسير، فيلجأ أولاً إلى تفسير القرآن بالقرآن نفسه، ثمَّ إلى تفسير القرآن بالسنَّة البيانية وما ثبت عن رسول الله ﷺ، ثم يتبع ذلك بالآثار الواردة عن الصحابة رضوان الله عليهم، وعن التابعين الذين اتبعوهم بإحسان.

ويؤكد الطبري التزامه بالتفسير بالمأثور من السُّنة خاصة في الآيات التي لا يمكن تحقيق معناها، وإدراك مُرادها، وتفصيل أحكامها إلا بالتوقيف

---

(١) تفسير الطبري ١/٣٥.

(٢) هذا الحديث رواه أبو داود والترمذي والنسائي عن جندب (الفتح الكبير ٣/٢١٩، سنن الترمذي ٨/٢٧٩).

(٣) تفسير الطبري ١/٣٥، وانظر مقدمة تفسير ابن كثير رحمه الله تعالى أيضاً وتفسير القرطبي.

والوحي بما اختص به الله تعالى رسولَه بالبيان، كما يقدم الطبريُّ مجموعة كبيرة في أقوال الصحابة والتابعين في تفسير الآيات، لأنَّ الصحابة عاشوا عهد نزول القرآن، وعرفوا أسباب النزول، واختصوا بصحبة رسول الله ﷺ، ورشفُوا من مَعينه، واستضاؤوا بنور النُّبوة، وأخذوا عنه الكثير الكثير، فهم أولى من غيرهم بفهم كتاب الله تعالى، ولذلك يستشهد الطبريُّ بما رُوي عن الصحابة ثم عن التابعين، ويحشد تفسيره بالروايات الكثيرة، والآراء العديدة، والأقوال المتباينة، ولكنه يرتبها ويصنفها، ويجمع الروايات والأقوال المتفقة على حكمٍ، أو تفسير معنى، ثم يعقبها بفصيلة أخرى في معنى آخر، ثم يبدأ بالمناقشة والموازنة والمحاكمة بنقد الأسانيد وترجيح الراجح منها، وتأييد مارجَّحه بالشواهد النَّحْوية والأشعار العربية والقراءات.

ويشدِّدُ الطبريّ ـ رحمه الله تعالى ـ في ضرورة الرجوع إلى آثار الصحابة والتابعين، وما نقل عنهم في تفسير القرآن الكريم نقلاً صحيحاً مستفيضاً، وأن ذلك وحده هو علامة التفسير الصحيح، ويردُّ على الأقوال المخالفة بقوله مثلاً: «لأنَّه خلاف المعروف من كلام العرب، وخلاف ما يُعرف من قول ابن عباس رضي الله عنهما».

ويحمل الطبريُّ بقوة على أصحاب الرأي الذين يحاولون الاستقلال بالرأي، ويفسرون القرآن الكريم بمجرد الرأي.

ونتيجة لهذا المنهج الذي يرسمه الطبري، ويطالب به، نشأت خصومة شديدة عند الخلف ـ وحتى يومنا هذا ـ في الحكم على تفسير الطبري: هل هو تفسير بالمأثور أم تفسير بالرأي والاستنباط والاجتهاد؟ وهو ما نبيِّنه في الفقرة التالية.

سادساً: الطبري بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي:

إن التصور السريع السابق لتفسير الطبري، والإطلاع الظاهر على

صفحاته، وظاهرة كثرة الروايات والنقول والآثار في تفسير الآيات حمل كثيراً من الناس على القول بأن تفسير الطبريّ نوع من التفسير بالمأثور، وعدَّ ابن خلدون الطبريَّ من مُدَوِّني التفسير بالمأثور، ويضرب كثير من المؤرِّخين والمفسِّرين المثل بتفسير الطبري على التفسير بالمأثور، وقرر ذلك فريق من المُحْدَثين وبعض المستشرقين[1].

ولكن المدقق في تفسير الطبري، والمحقق في عباراته واختياراته، والمتأمل في منهجه في ذكر الروايات وما يعقبها من الموازنة بينها، والمحاكمة بنقد الأسانيد، معتمداً على السياق، وإعادة الكلام إلى مَعَاقده، والتمسّك بدلالة المفردات اللغوية على المعاني التي تُستعمل فيها، ومناسبة النقل مع بعضه، والاستشهاد بالشعر العربي، والرجوع إلى أقوال النحويين في تخريج التراكيب، والوصول من وراء كل ذلك إلى ترجيح ما يراه راجحاً، وتأييده بمختلف الأدلة من القرآن والسنة وأقوال السلف وموارد اللغة وغيرها، إن المدقق في ذلك يتأكد له أن تفسير الطبري ليس مجرد تفسير بالمأثور، بل يجمع بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي المعتمد على الحجة والأدلة والاستنباط والاستدلال، وإعمال الرأي بملكته الناصعة، وتفكيره السديد، واجتهاده المبني على القواعد والأصول، وأنه صاحب منهج علمي، وبحث أصيل، وأنه يقصد من استقصاء الروايات والأخبار والآثار والآراء الواردة في الآيات بيان مَدْلول اللفظ أو الجملة أو الآية، ثم يعقب عليها بالنقد والتمحيص والترجيح والرفض، مع إقامة الدليل لكل ما يرجحه أو يرفضه مع الجزم في ذلك، والموضوعية ونقد ما يراه واهِناً مهما كان قائله، ومهما كان

---

(١) انظر: التفسير بالمأثور ومناهج المفسرين فيه، للدكتور محمد أبو النور الحديدي صقر ص ٩١، دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر ١/١٤٥ وما بعدها، التفسير والمفسرون ١/٢١٠، ٢٢٤، التفسير ورجاله ص ٣٣.

مصدره، ولذلك عَنْوَنَ كتابه «تأويل آي القرآن» ولم يسمه تفسيراً[1].

يقول الشيخ محمد الفاضل بن عاشور: «وبهذه الطريقة أصبح تفسير ابن جرير الطبري تفسيراً علمياً، يغلب فيه جانب الأنظار غلبة واضحة على جانب الآثار»[2].

ويقول الشيخ الذهبي: «ثم هو لا يقتصر على مجرد الرواية، بل نجده يتعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، كما نجده يتعرّض لناحية الإعراب إن دعت الحال إلى ذلك، كما أنه يستنبط الأحكام التي يمكن أن تؤخذ من الآية، مع توجيه الأدلة، وترجيح ما يختار»[3].

سابعاً: الالتزام باللغة العربية:

اعتمد الطبري في منهجه في التفسير على اللغة العربية بمختلف علومها وفنونها، وهذا أمر طبيعي ومنطقي، وهو ما يجب الالتزام به، لأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، وأبان عن مراد الله تعالى بمقتضى دلالة اللغة العربية وأسلوبها واستعمالاتها ووجوه البيان فيها.

والإمام الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ درسٍ علوم العربية وأتقنها وأجاد استعمالها والتحدث بها والكتابة فيها والتفنّن في مجالاتها، وأكد في مقدمة تفسيره على ذلك مطوَّلاً بعنوان «القول في البيان عن اتفاق معاني آي القرآن ومعاني منطق من نزل بلسانه من وجه البيان، والدلالة على أن ذلك من الله جل وعز هو الحكمة البالغة، مع الإبانة عن فضل المعنى

---

(١) انظر البحث المعمق في هذا الخصوص للدكتور فتحي الدريني في دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر ١/١٤٥ ـ ٣٤٠ بعنوان «الإمام الطبري ومنهجه العلمي في التفسير».

(٢) التفسير ورجاله ص ٣٦.

(٣) التفسير والمفسرون ١/٢١٠.

الذي به باين القرآن سائر الكلام» وهو أن فصاحة القرآن الكريم هي أحد وجوه معجزته، وأن الله تعالى لا يخاطبنا بما لا نفهمه، وأن القرآن وقع فيه ما يقع في كلام العرب من الإيجاز والإطناب، والإطالة والإكثار، وأن لغة العرب تتفق مع غيرها في بعض الكلمات، وأن اللغة التي نزل بها القرآن من لغات العرب، وأنه أنزل على سبعة أحرف منها، وأنه لا يوجد في القرآن لفظ غير عربي(١).

واعتمد الطبري على اللغة العربية في تأويل آي القرآن الكريم، وذخر تفسيره بذلك حتى أصبح مرجعاً لعلماء اللغة، ويتجلى عمله في ثلاث نقاط أساسية:

١ ـ **الالتزام بالدلالات اللغوية** في تحديد معاني القرآن الكريم، وأن فهم المراد من كلام الله يلزم أن يكون موافقاً لمعاني كلام العرب، واستعمالاتهم اللغوية والبيانية، بجانب النقول المأثورة، ولا يكتفي الطبري بإيراد المعاني اللغوية، وتعدّد الاستعمال والمعاني للألفاظ، بل يفاضل بينها، ويختار أرجحَها عنده، ولذلك تكرر قوله في كل صفحة تقريباً «وأوْلى القولين أو الأقوال ـ في ذلك عندي ـ بالصواب كذا»، ولكن إذا تعارض المدلول اللغوي مع المنقول عن الصحابة والتابعين فالطبري يرجح أقوال هؤلاء، لصلتها بالمعنى الشرعي، فيقدِّم المنقول على غيره.

٢ ـ **الاستشهاد بالشواهد الشعرية** التي زخر بها تفسير الطبري، وزادت عن ألفي بيت من الشعر، وذُكر فهرسُها في ثلاثين صفحة، وفي كل صفحة ثلاثة أعمدة، في نهاية الجزء الثلاثين من طبعة الحلبي الثالثة.

ويستشهد الطبري بالشواهد الشعرية على دلالة الألفاظ أو لإثبات

---

(١) انظر: تفسير الطبري ١/٥ وما بعدها، وانظر: التفسير والمفسرون ١/٢١٧.

قاعدة نحوية، أو لفهم المعنى المقصود من الآية، وهذا أمر مقرًّر في الشرع، ومأخوذ به عند جمهور المفسرين، لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين، ويجري استعمال ألفاظه مجرى استخدام العرب لها، وما تعارفت عليه من دلالة ألفاظها وتراكيبها، وقد سار على هذا النحو حَبْرُ الأمة، وترجمان القرآن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وثبت مثله عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه الذي كان يُوصي بحفظ أشعار الجاهلية، وأنها ديوان العرب، ويُستعان بها على فهم كلام الله تعالى، كما سبق بيانه.

٣ ـ **الاهتمام بالنحو والإعراب**، فقد اهتم الطبري رحمه الله تعالى بقواعد النحو ومواطن الإعراب في الآيات التي يتوقف فهم المعنى عليها، وكان يتعرّض كثيراً لمذاهب النحويين من البصريين والكوفيين في النحو والصرف، وكان يُورد أقوالهم وآراءهم، ويسجِّلها في تفسيره الذي أصبح مرجعاً لذلك، وكان يوجّه الأقوال، ويُرجِّح بينها، وتارة ينتصر لمذهب البصريِّين، وتارة يرجِّح مذهب الكوفيين، دون إسهاب في الموضوع، أو استطراد في البحث، ويقتصر على ما تمسّ الحاجة إليه، لأنه في معرض تفسير، وليس في مجال التصنيف في النحو والصرف والإعراب.

ثامناً: الاستعانة بالروايات والأخبار التاريخية:

وذلك أن القرآن الكريم ذكر كثيراً قصص الأمم السالفة من أجل الاعتبار والاتعاظ في العقيدة والسلوك، والبداية والنهاية، فإذا وصل إليها الطبري توقف عندها، واستعان بالأخبار التاريخية التي تتعلق بموضوع القصة.

وهنا تسرّبت الإسرائيليات[1] إلى التفاسير عامة، ومنها تفسير

---

(١) الإسرائيليات هي المرويات عن أهل الكتاب، سواء منها ما تعلق بأديانهم، أم =

الطبري، فنقل تفاصيل أخبار الأمم، وتوسع بأخبار القصص، بما ورد في ذلك عن اليهود وكتبهم، وما تسرّب منها عن طريق من أسلم منهم، مثل كَعْب الأَحْبار، وكذا وَهْب بن مُنَبّه، وابن جُرَيْج والسُّدِّي وغيرهم، كما ينقل الطبري عن محمد بن إسحاق كثيراً مما رواه عن مُسلمة النصارى.

وكان الطبري أباً للتاريخ، وصنف أعظم كتاب فيه وهو «تاريخ الملوك والأمم» فكان متأثراً بنقل الروايات التاريخية في كتابه، وانتقل ذلك إلى تفسيره، وهو في معظم الأحيان يذكر هذه الروايات بأسانيدها، ويتعقّب كثيراً من هذه الروايات بالنقد والتمحيص والرد، ولكنّه لم يستوعب ذلك، ولم يستقص، وبقي تفسيره محتاجاً إلى الفحص الشامل،

= لا، وإنما روي عن طريقهم، وأغلب الرواة لها كانوا من اليهود الذين أسلموا، ومن أشهرهم وَهْبُ بن مُنَبِّه، وكَعْب الأَحْبار، كما دخل بعض هذه المرويات عن طريق القصَّاص والمتصوِّفة والباطنية وغيرهم.

وعَقَّب ابن كثير عن قصة إسرائيلية في الآية ٤٤ من سورة النمل وذكرها بعض المفسرين قولاً، فقال: «هو منكر غريب جداً، لعلّه من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس، والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقّاة عن أهل الكتاب، مما وُجد في صحفهم كروايات كعب ووهب سامحهما الله تعالى، فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل من الأَوَابد والغرائب والعجائب مما كان، ومما لم يكن، ومما حُرِّف وبُدِّل ونُسخ، وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصحّ منه وأنفع وأوضح وأبلغ» (تفسير ابن كثير ٣٦٦/٣).

وبيَّن الشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي خطورة الإسرائيليات بأنها تفسد على المسلمين عقائدهم في صفات الله، وتصوير الأنبياء بما لا يليق بإنسان عادي فضلاً عن أن يكون نبياً، وأنها تصوِّر الإسلام في صورة دين خرافي يُعنى بترَّهات وأباطيل لا أصل لها، وكلها نسيج عقول ضالة، وخيالات جماعات مضلِّلة، وأنها كادت تذهب بالثقة في بعض علماء السلف من الصحابة والتابعين، وكادت تصرف الناس عن الغرض الذي أنزل القرآن من أجله إلى توافه وصغائر وعبث ومَضيعة للوقت. (الإسرائيليات في التفسير والحديث ص ٣٩ ـ ٤٤ طبعة ٢).

والتنبيه على هذه الروايات الضعيفة، والإسرائيليات المدسوسة، التي تسربت إلى معظم كتب التفسير، وشوّهت صورتها، وأورثت البلبلة والاضطراب في نفوس المسلمين مما يُخْدِش العقيدة، ويُوهن الأخلاق، ويناقض أحكام الشريعة الغرّاء.

واعتذر الأستاذ محمود شاكر عما ذكره الطبري من الإسرائيليات، فقال: «ولما رأيت أن كثيراً من العلماء كان يَعيب على الطبري أنه حشد في كتابه كثيراً من الرواية عن السالفين الذين قرأوا الكتب، وذكروا في معاني القرآن ما ذكروا من الرواية عن أهل الكتابين السالفين: التوراة والإنجيل - أحببت أن أكشف عن طريقة الطبري في الاستدلال بهذه الروايات رواية رواية، وأبيّن كيف أخطأ الناس في فهم مقصده، وأنه لم يجعل هذه الروايات قطُّ مُهَيْمنةً على كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يده، ولا من خلفه، وأحببت أن أبيِّن عند كل رواية مقالة الطبري في إسنادها، وأنه إسناد لا تقوم به حجة في دين الله، ولا في تفسير كتابه، وأن استدلاله بها كان يقوم مقام الاستدلال بالشعر القديم»[1].

وإنني أميل إلى تأييد الأستاذ محمود شاكر في تبرئة الطبري من وَصْمة الإسرائيليات في كتابه وأنها سُبَّة في التفسير، وذلك من ناحيتين، **الأولى**: أنه ذكر لها الأسانيد، ومن المقرر في أصول الحديث وعلومه أن من أسند لك فقد أحالك وحمّلك مسؤولية البحث عن رجال السند، ومعرفة جَرْحهم وعدالتهم، وبذلك يخرج الطبري من العُهْدة، **والثانية**: أن تفسير الطبري لم يُكتب لعامة الناس، ولا لطلاب العلم، وأنصاف العلماء، وإنما كُتب للعلماء والأئمة والمختصِّين الذين يُدْركون هذه

(١) تفسير الطبري ١٦/١ طبعة دار المعارف بتحقيق محمود شاكر وأحمد شاكر، وانظر رأي الشيخ محمد حسين الذهبي في هذا الموضوع في كتابه «الإسرائيليات في التفسير والحديث» ص ١٢٣، وموقفه من تفسير ابن جرير.

الأمور، ولا تلتبس عليهم، ويستطيعون تمييز الطيب من الخبيث، وأن ذكر هذه الروايات لمجرّد العلم والاطّلاع عليها لتجنّبها، وهو ما يفعله علماء الحديث في تدوين الأحاديث الضعيفة والموضوعة لتركها وعدم الاعتماد عليها، وكشف أمرها، والتحذير منها.

وإن الإمام الطبري لا يحمل وزر المفسرين الذين جاؤوا بعده، ونقلوا الأخبار التاريخية والروايات الإسرائيلية بعد أن حذفوا أسانيدها، وعَرَضوها في كتبهم كأنها حقائق مُسَلَّمة، وأصبحت مَسَبَّةً ومَسْلَبة على كتب التفسير.

تاسعاً: عناية الطبري بالقراءات في تفسيره:

القراءات جمع قراءة، وعرف ابن الجزري القراءات فقال: «علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة» أي إنّ هذا العلم يتعلق بطريقة النطق لألفاظ القرآن الكريم، مع تعدد الطرق، واختلاف الوجوه في الأداء المنقول حصراً عن النبي ﷺ[1].

وكان الطبري رحمه الله تعالى عالماً بالقراءة، وصنّف فيها كتاباً مشهوراً، وله قراءة خاصة به، وأشاد في مقدمة تفسيره بقراءات القرآن، ثم اعتنى بذلك أثناء التفسير، ويجد القارىء أثر ذلك واضحاً في كل آية لها وجهان أو أكثر في القراءة، فإنه يذكرها، ثم يذكر الأدلة التي تقوّيها، كما يذكر القراءة الأخرى بأدلتها، ثم يرجِّح إحداها، أو يساوي بينها، أو يُبرز ما تمتاز به إحداها على الأخرى، مما أثار حفيظة بعض علماء القراءات على عبارات الطبري التي تُؤذِن بالردّ والطعن فيها، وحمَّلوا الطبري وِزْر من أتى بعده من القرّاء والمفسرين الذين اقتدَوْا به في ردّ بعض القراءات والطعن فيها ولو كانت متواترة، وأخضعها لمقاييس

(١) انظر كتابنا «تعريف عام بالعلوم الشرعية» ص ٢٧، وبحث «ظاهرة نقد القراءات ومنهج الطبري فيها» للدكتور إسماعيل أحمد الطحان ص ٢٤.

أصحاب اللغة، وهو مما يجب أن تُصان منه.

والحقيقة أن الطبري لم يخضع القراءات لمقاييس اللغة، ولكنه رأى أن القراءة المنسوبة إلى النبي ﷺ ليست بمعزل على يقين عن مقاييس اللغة الفصحى التي هي وعاء القرآن الكريم، وأنه ذكر كل قراءة مع الدليل المقبول عقلاً ولغة وتؤيِّده الآثار، وأن منهجه في عرض القراءات ينسجم مع منهجه في التفسير بالاعتماد على الرواية التي يُؤيدها النقل المستفيض، وموافقة رسم المصحف، وإجماع الحجَّة من القرّاء، وقوة الوجه في العربية أو الأفصح في اللغة، وأن ترجيحه لقراءة ما يعتمد على رأي الأكثرية، أو الاعتضاد برأي أهل التأويل، أو اتساق الأسلوب مع القراءة، وإذا تساوت الوجوه المختلفة عنده صَوَّب الجميع، وكان الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ يتمسك برأي الحجّة وإن خالف رأيه، مما يدل على موضوعيته واتزانه، وكان يتَهم المخالف لقراءة العامة بالشذوذ، وينتقد الإسناد المضطرب، ويعتمد على السند للرواية والقراءة.

ومن هذه الصورة المختصرة، والمبادىء الموجزة لاهتمام الطبري بالقراءات ندرك أن تفسيره محشوّ بالقراءات، ويُعتبر مرجعاً في ذلك، وخاصة أنه سبق غيره في توجيه القراءات، وبيّن الآثار التي تترتب على الاختلاف فيها، والأحكام التي تُستنبط من إحداها دون الأخرى، ووجود الاختلاف في التفسير بسببها، وهو عمل لا يستطيعه إلا أمثال الطبري.

عاشراً: الاجتهادات الفقهية في تفسير الطبري:

الفقه هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من الأدلة التفصيلية، أي هو معرفة وإدراك الأحكام التي تتوقف على مصدر شرعي بالنظر والاجتهاد والبحث، وهو الطريق لمعرفة الحلال والحرام عند الله تعالى للالتزام به، والتقيّد به، بناءً على قواعد الاستنباط والاستدلال التي عُرفت باسم أصول الفقه.

والقرآن الكريم هو المصدر الأول والأساسيّ لمعرفة الأحكام الشرعية، ويتضمن ما يزيد عن خمسمائة آية في ذلك، تسمى آيات الأحكام التي تبيِّن حكم الله تعالى في الحياة العملية للإنسان، والتي كانت مصدر الإشعاع الفقهي والاستنباط أمام الأئمة والعلماء المجتهدين، والتي أفردها بعض المفسرين فيما بعد بكتب مستقلة كأحكام القرآن للجصّاص، وأحكام القرآن لابن العَرَبي، وأحكام القرآن للشافعي.

والطبري ـ رحمه الله تعالى ـ درس الفقه، وتعمّق فيه، وصار فقيهاً من الطراز الأول، وبلغ رتبة الاجتهاد في المذهب الشافعي، ثم ترقّى في التفقّه حتى صار مجتهداً مطلقاً، وصاحب مذهب مستقلّ، فلا غَرْوَ أن يتناول آيات الأحكام بالتفسير المستفيض، وأن يعرض عند كل آية منها أقوال الصحابة والتابعين، وآراء الأئمة المجتهدين والفقهاء المتنوّعين، وأن يلتزم بمنهجه العام في التفسير عند نقل الآراء الفقهية بالأسانيد، والأمانة العلميّة، والتصنيف للآراء، وبيان الأدلة، ثم مناقشتها، ثم الترجيح بينها، وكان يُدلي بدَلْوه في هذه الخصوص بكل صراحة ووضوح، ويُصرِّح باجتهاده ورأيه، ويدعمه بالأدلة وقواعد الاستنباط وكيفية الاجتهاد، حتى أصبح تفسير الطبري أحد المصادر الأصيلة للفقهاء والأئمة والمجتهدين، وخاصة لأقوال الصحابة والتابعين وآراء المذاهب المنْدَثرة، أو التي انقرض أتباعها، وضاعت كتبها، وفُقِدت مصنفاتها.

وأصبح تفسير الطبري اليوم ـ وبعد أن ضاعت معظم كتبه الفقهية، وفُقدت مصنفاته في الفقه وأصول الفقه ـ أصبح تفسيره الصورة الصادقة التي تؤخذ منها آراؤه، وتُجمع منه اجتهاداته، وتكشف لنا عن مَلَكاته الفقهية والاجتهادية، وعن طريقته في الاستدلال والاستنباط، مما يدعونا

لجمع هذه الأقوال والآراء، وإفرادها في كتاب مستقل، كما يدعونا لاستنساخ آيات الأحكام، ونشرها في طبعة خاصة، ويوجب علينا استخراج أصوله الفقهية، وقواعده الاجتهادية التي توضِّح أصول مذهبه، كالاعتماد على النص العربي للقرآن الكريم، وأخذ الأحكام منه بما يتفق مع أسلوب اللسان العربي، مع مراعاة القراءات، واعتماده على السنة الشريفة، والتفسير المأثور عن الصحابة والتابعين وبقية السلف، وتقديره لإجماع الأمة والوقوف عنده، ثم أخذه بالقياس على الأصول الثلاثة الأولى، بناءً على ثبوت العلة، وقبول النصوص للتعليل، والمساواة بين الأشباه والنظائر، والتفريق بين المختلفات، والرجوع إلى المصالح التي تحقق مقاصد الشرع، وبناء الأحكام على عرف الناس في زمن نزول الوحي، وما تعارفه أهل كل عصر بما لا يتعارض مع نص شرعي، مع إظهارِ الترابط بين الآيات ذات الموضوع الواحد، والإحالة في تفسير المتأخِّر منها على المتقدِّم، ليتجنّب التكرار والإطالة، والحرص على الجمع بين المأثور والرأي مما كان له أكبر الأثر على غيره[١].

وتجدر الإشارة هنا إلى منهج الطبري عامة في التفسير، ومنهجه في الاجتهاد الفقهي خاصة، وهو قيامه على طريقة المقارنة والموازنة، وجمع الآراء، وتصنيف الأقوال المتشابهة، والاستدلال لها، ومناقشتها، والتصريح بالأقوى أو الأسدّ أو الأقرب أو الصواب، مع التدليل للراجح، وبيان أدلة الترجيح، مع الثقة بالنفس، وقوة الشخصية، ووضوح الرؤية، مما يؤكّد أن كتب الطبري عامة، وتفسيره خاصة، تمثل الأُنموذج المبكِّر الذي سبق أوانه في الفقه المقارن، وهذا يتفق مع ثقافة الطبري الواسعة، وملكاته المتنوعة، وجمعه للعلوم المختلفة، ودراسته

(١) انظر: بحث «الجانب الفقهي في تفسير الطبري» للدكتور محمد الدسوقي ص ١٢، ٣٣.

للمذاهب الفقهية المتعدِّدة، وتدوينه فيها، لتصبح كتبه المصدر الأساسي لآراء العلماء والفقهاء والمجتهدين في القرنين ـ الأول والثاني ـ الهجريّين، ولتكون كتب الطبري صورة صادقة على ثقافة القرن الثالث الهجري التي وصلت القمة، وأحاطت بمختلف العلوم والفنون.

حادي عشر: عرض العقيدة الصحيحة:

القرآن الكريم هو المصدر الأساسي لعقيدة المسلم، وجاءت فيه الآيات الكثيرة في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، وأسماء الله تعالى وصفاته.

وكانت آيات الصفات والقضاء والقدر وبعض أمور الآخرة مثار بحث بين علماء الأمة، واستَغَلَّت ذلك بعض الفرق، وتستّرت وراء هذه الآيات بحسن نية أو سوء طويّة، وغالت في تفسيرها، وتطرّفت في معانيها، وخرجت عن عقيدة السلف، وشذّت عن أهل السنة والجماعة، وأنشأت فرقاً متطرِّفة، وكانت في صراع مع أئمة المسلمين وعلمائهم، ونشطت في القرنين الثاني والثالث الهجريَّيْن، واستغلّت الآيات المتشابهات وغيرها لانحراف العقيدة كالباطنية والمعتزلة والقدرية.

ولما تناول الطبري رحمه الله تعالى تفسير آيات التوحيد والعقيدة، والغيبيّات والصفات، والقضاء والقدر، عرض عقيدة أهل السنة والجماعة، وشرح مذهب السلف في الصفات وغيرها، ودخل في مسائل علم الكلام، وناقش أصحاب الفرق والمذاهب الكلامية، وردَّ على أهل الزيغ والضلال، وأظهر أصول الإيمان والاعتقاد كما ثبت عن السلف، وردَّ مثلاً على القدرية في مسألة الاختيار وناقش المعتزلة في رؤية الله تعالى يوم القيامة، وعارض فكرة التجسيم والتشبيه، وتمسك بدلالات الألفاظ واللسان العربي على مراد الله تعالى، دون أن يفتح

مجالاً للتَّخَرُّصات والتأويلات التي قصدها أهل الباطن، وشدّد النكير على من سبَّ الصحابة من الخوارج وغيرهم.

وكان الطبري رحمه الله تعالى يناقش علماء الكلام بالجدل الواضح، والأدلة المنطقية والعقلية، ويعتمد على النصوص الشرعية وما ثبت عن الصحابة والتابعين، مما يشهد له بأنه كان عالماً بارعاً في علم العقيدة والتوحيد والكلام، وكانت له معرفة بأهل الفرق والمذاهب الكلامية، وكان ملتزماً بالقرآن ونصوصه، وعقيدة السلف وأهل السنة والجماعة، ومنافحاً عن دين الله، ومجاهداً في إثبات الحق، دون أن تأخذه في الله لومة لائم(١).

ثاني عشر: المآخذ التي وردت على تفسير الطبري:

لم يسلم الطبري من النقد، وكشف الأخطاء التي وقع بها، والغلط الذي جاء في تفسيره، ويمكن إجمالها بما يلي:

١ ـ إن الطبري لم يطبق منهجه النقدي الكامل للأسانيد على جميع ما جاء في التفسير، وإنما فعل ذلك في بعض الروايات النادرة، وترك غيرها، مع ما فيها من أسانيد ضعيفة كان جديراً به أن ينبِّه عليها، ويكشفها.

٢ ـ حشد الطبري في تفسيره كثيراً من الروايات الإسرائيلية والنصرانية والأساطير والخرافات وقصص الوعظ الخيالية، وكان المفروض على الطبري رحمه الله أن ينبّه على حقيقتها، دون أن يكتفي بذكرها وإشاعتها والسكوت عنها.

٣ ـ ورد في تفسير الطبري بعض الروايات المتناقضة عن ابن عباس

---

(١) انظر: التفسير والمفسرون ١/٢٢٠، الإمام الطبري للمصلح ص ٧٥، ظهر الإسلام ٢/٣٩.

رضي الله عنهما، ولم يرجِّح رواية منها على أخرى، ولم يتعرّض لبيان الصواب من ذلك[1].

كما اعترض بعض العلماء على الطبري في نقده لبعض القراءات، وإبهامه لأسماء بعض علماء العربية الذين أخذ منهم، وأشار إلى أسمائهم إشارة، إلى غير ذلك.

والطبري رحمه الله تعالى ليس مَعْصوماً، وكل إنسان يؤخذ من قوله ويُرَدُّ عليه، إلا صاحب النُّبوَّةِ، كما قال الإمام مالك، وكتاب الطبري الذي بلغ ستة آلاف صفحة ليس غريباً أن ترد عليه المآخذ، وأن تصدر منه أخطاء، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «كلُّ ابنِ آدمَ خَطّاءٌ»[2]، ولكنها أخطاء محدودة، ومآخذ معدودة لا تتجاوز عدد الأصابع، وينطبق عليه المثل في قول الشاعر: «كفى المرءَ نبلاً أن تُعَدَّ معايبه»، ويكفيه شهادة إمام اللغة غلام ثعلب أنه قرأ جميع التفسير ولم يجد فيه خطأ في اللغة والنحو.

وهذه الأخطاء ـ والحمد لله ـ ليست في العقيدة، ولا في أصول الدين، ولا في أركان الإسلام، ولا في قواعد الدين، ولا في الأحكام القطعية، ولا في النصوص الثابتة ولا في معاقد الإجماع، ويمكن للطبري رحمه الله، أو لغيره، أن يعتذرَ عن هذه المسالب البسيطة، أو يَرُدَّ عليها، ويناقش فيها، وهي في مجملها لا تظهر للعيان، ولا تقف أمام عمله الجبار، وجهده المبارك، وثوابه الكبير، ومكانته المرموقة.

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٣٠/٤٠٠.

(٢) هذا الحديث رواه الترمذي (في سننه ٧/٢٠٢)، وابن ماجه (٢/١٤٢٠)، والدارمي في (السنن ٢/٣٠٣) والإمام أحمد في (المسند ٣/١٩٨) عن أنس رضي الله عنه (انظر: الفتح الكبير ٢/٣٢٣).

وبعد: فهذه لمحات عامة عن منهج الطبري في تفسيره، التي وضعها في مقدمته، وسار عليها في التطبيق، والتزمها في كتابه، وهي في مجملها صورة عن أصول التفسير للنصوص الشرعية وغيرها.

ويبقى تفسير الطبري ثروة عظيمة، وذخيرة من ذخائر الإسلام، ومصدراً أصيلاً لكل مُفسِّر وعالم ومجتهد، ومرجعاً مهماً في جميع العلوم اللغوية، والعلوم الشرعية من علوم القرآن، إلى علوم السنة، إلى السيرة والفقه، والعقيدة وأصول الدين وأصول الفقه، والمذاهب الفقهية والكلامية، والتفسير بالمأثور والرأي والاجتهاد والمعقول.

كما يُعطي تفسير الطبري صورة صادقة عن شخصية المؤلف القوية، ومنهجه العلمي، ومواقفه الخالدة، وأسلوبه البياني، ومقدرته اللغوية، وملكاته العقلية، ونظراته الأدبية، وغير ذلك من الحِكَم والشواهد الشعرية، والقصص وأخبار الأمم، ومشاهد القيامة، مما يُغري بقراءته، ويُثير الهمَّة والحميّة لخدمته وطبعه ونشره، وتداوله على مختلف المستويات، وتقديمه للأمة والأفراد ليعيشوا مع كتاب ربهم بالتدبُّر والفهم والاطلاع، والتزوّد بمعارفه، والتفيّؤ بظلاله، والتغذّي من مائدته.

وأرى أن يقوم أحد الباحثين أو طلّاب الدراسات العليا باستخراج أصول التفسير الإسلامي، وبيان المنهج القويم لتفسير القرآن العظيم من مقدمة تفسير ابن جرير الطبري ومن خلال منهجه المبثوث في ثنايا كتابه.

الفصل الثالث

الطَّبَريُّ فقيهًا وصَاحِبَ مَذْهَب

شخصية الطبري الفقهية:

شاع في التاريخ الوسيط والمعاصر أن الطبري شيخ المفسرين، وعمدة المؤرخين، وذلك بسبب انتشار كتابيه الكبيرين الشهيرين «التفسير» و «التاريخ»، وغفل الناس عن سيرة الطبري في أهم من هذين الأمرين، وما كان يتمتع به من المكانة الاجتماعية، والدرجة العلمية في أثناء حياته، وبعد وفاته بقليل، وذلك أنه الفقيه المبدع، والعالم البارع في أحكام الشرع، والمجتهد المطلق في الاستنباط، وأنه إمام مذهب فقهي مستقل، وأن شخصية الطبري الفقهية أقوى وأشهر وأرسخ من شخصيته كمفسِّر، أو كمؤرِّخ، وأنه عاش مع الفقه، ومارس التفقّه والاجتهاد، وأفتى بين الناس، وإلى الوزراء والخلفاء، وصنف الكتب الفقهية، واستغرق ذلك معظم حياته المديدة، وأنه صنف «التفسير» عندما قارب الستين من عمره[1]، وبعده صنف كتابه في «التاريخ» بينما بدأ حياته العلمية في تصنيف كتاب «اختلاف الفقهاء» ثم صنف عدة كتب في الفقه طَوال حياته، وكان أثناء تصنيفه «التفسير» و «التاريخ» يمارس الفقه دراسةً وتدريساً وتصنيفاً، وصنف أعظم كتبه على الإطلاق، كما سنرى، وتظهر الصبغة الفقهية لشخصية الطبري في

---

(١) نقل ياقوت أن أبا بكر بن بالَوَيه كتب التفسير عن الطبري إملاء من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة تسعين (معجم الأدباء ١٨/ ٤٢) ونقل في مكان آخر عن أبي بكر بن كامل أن الطبري أملى عليهم التفسير سنة سبعين ومائتين (معجم الأدباء ١٨/ ٦٢).

مختلف كتبه، خاصة في «التفسير» وفي كتب الحديث، وأهمها «تهذيب الآثار» بالإضافة إلى كتبه الفقهية العديدة، كما سنرى.

ولعل السبب في هذه الصورة الباهتة لشخصية الطبري الفقهية ـ فيما بعد ـ يرجع إلى انقراض تلاميذه، وغياب مذهبه الفقهي، بسبب قلة أتباعه، وخمولهم في حمله ونشره، ولكن ذلك لا يقلِّل من أهمية فقه الطبري واجتهاده وآرائه وإمامته، لذلك سنعرض في هذا الفصل سيرة الطبري الفقهية، مع التدرُّج في حياته بدءاً من طلبه للفقه إلى بلوغه درجه الفقيه، ثم الفقيه المجتهد، ثم المجتهد المطلق، ثم الإمامة لمذهب مستقل، مع انفراده عن غيره، ثم نعرض كتبه الفقهية، وما بقي منها حتى الآن، ونكرر هنا عبارة العلامة أبي العباس بن سُرَيْج التي وصف بها الطبري فقال: «محمد بن جرير الطبريُّ فقيهُ العالَم»[(١)].

تعريف الفقيه:

وقبل أن نبدأ بسيرة الطبري الفقهية، ومسيرته في مؤلّفاته بها، نُذكِّر بالمراد من الفقه والفقيه في زمانهم.

الفقه في اللغة فهم الشيء، والفقيه في الأصل: **هو العالم الفطن**، ثم صار يُطْلَق في عصور الاجتهاد على **المجتهد**، وإطلاقه على المقلد الحافظ للمسائل والفروع مجاز.

وصار الفقيه يطلق في عصور التقليد على من شغل أوقاته بالمطالعة والتعلُّم والفتوى، ويحفظ الفروع الفقهية، ويصير له إدراك في الأحكام المتعلقة بنفسه وبغيره، وإن قصر عن الاجتهاد.

ويُطلق الفقيه عند المتأخرين على العالم بالأحكام الشرعية العملية

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٣.

كالحِلّ والحرمة، والصحة والفساد، وهو الذي يبيِّن للناس حكم الشرع من خلال مذهب معين[1].

ونريد باصطلاح «الطبري فقيهاً» المعنى الأصلي، والاصطلاح العرفي القديم، وهو العالم الفطن، والمجتهد في استخراج الأحكام، ومعرفة الاستدلال، وهو ما وصل إليه الطبري ليكون فقيهاً حقاً، ومجتهداً مطلقاً، وإماماً لمذهب فقهي، وله أصحاب وأتباع كسائر أئمة المذاهب الفقهية.

(١) المصباح المنير ٢/٦٥٦، القاموس الفقهي ص ٢٨٩.

المبحث الأوّل

الفِـقْهُ والطّبريّ

أولاً: تعريف الفقه وأهميته:

الفقه هو العلم بالأحكام الشرعية العملية، المكتسبُ من أدلتها التفصيلية، أي هو معرفة الأحكام التي تتوقف على مصدرٍ شرعي، وتقتضي من المكلَّف: البالغ العاقل، القيامَ بعمل وسلوك وتصرف في الحياة، بهدف تنظيم حياة الإنسان مع نفسه، ومع ربِّه، ومع مجتمعه، بما يحقق السعادة والراحة في الدنيا والآخرة، كوجوب الصلاة وأدائها، أو الامتناعَ عن فعلٍ مؤذٍ وضارٍّ ومفسدٍ، كتحريم القتل والزنا وشرب الخمر وأكل مال الناس بالباطل والغش والإيـذاء والنميمة والكذب، أو التخييرَ بين الفعل والترك، كإباحة الأكل والصيد والشرب، على أن تكون هذه المعرفة مستنبطة ومستمدّة بالنظر والاجتهاد والبحث من نصوص القرآن الكريم والسُّنة الشريفة وبقية المصادر الشرعية، ويكون الفقيه مجتهداً في هذه الحالة، أما المقلد لغيره أو الحافظ لأحكام الفقه فلا يسمى فقيهاً في الأصل، ثم أصبح الفقه أخيراً بمعنى إدراك أحكام الحوادث نصاً واستنباطاً، ودراسةً وحفظاً على مذهب من المذاهب، وصار الفقيه يُطلق على من يعرف الأحكام الشرعية من مذهب معين ويحفظها، ليعلِّمها للناس، كما سبق.

فالفقه هو الطريق لمعرفة الحلال والحرام، وبيان شرع الله تعالى الذي أنزله للالتزام به، والتقيّد بحدوده، والسير على هداه، لأنّه يَرْسم المنهج القويم للإنسان في جميع مجالات الحياة، ويرعى مصالحه،

ويجنّبه الزَّلل، ويهديه للرشاد، ويبعده عن الغيّ والفساد والاضطراب والظلم.

والفقه أحد العلوم الشرعية الأساسية، ومن أكثر العلوم شهرةً واتساعاً، وصلةً بجميع الناس في حياتهم، وتطبيقاً عملياً في الواقع، لذلك يتوجَّب على كل مسلم معرفتُه، يتّجه إليه طلاب العلم، ويقصدونه منذ نعومة أظفارهم ويستمرون معه إلى آخر حياتهم، ويأتي تحصيله في المرتبة الثانية بعد قراءة القرآن الكريم وتلاوته وحفظه.

وظهر الفقه منذ عصر النبوة ونزول الوحي، ورغّب به رسول الله ﷺ ودعا إليه، فقال عليه الصلاة والسلام: «من يُرِدِ اللهُ به خيراً يفقهْه في الدين»[1]، وأخذ الصحابة رضوان الله عليهم بعِنانِه، ومارسوا الاجتهاد والاستنباط بعد وفاة رسول الله ﷺ، وتجمعت لكبار الصحابة وفقهائهم آراء وأقوال وآثار، حتى صارت أشبه بالمذهب أو بالمدرسة الفقهية، وانتقلت هذه الصورة إلى التابعين، فأضاف فقهاؤهم الاجتهادات الجديدة، وظهر منهم فقهاء أعلام، ومجتهدون بارزون من منتصف القرن الأول الهجري حتى مطلع القرن الثاني، واشتهر فقهاء المدينة السبعة، وفقهاء الأمصار في المدينة ومكة، والبصرة والكوفة، ومصر والشام، واليمن والبحرين، وغيرها.

وفي القرن الثاني الهجري ظهر أئمة المذاهب المتعددة، الذين حدَّدوا لأنفسهم المناهج الواضحة، وقاموا بأعمال مَجيدة، والتفّ حولهم التلاميذ والطلاب، وصار لهم أصحاب وأتباع، ورجع إليهم الناس والحكام، فقلّدوا مذاهبهم، وجمعوا أقوالهم، ودوّنوا آراءهم التي صارت قائمة ومستقلّة عن غيرها، وكثر المجتهدون في هذا القرن،

---

(١) هذا الحديث متفق عليه، رواه البخاري ومسلم عن معاوية رضي الله عنه مرفوعاً (نزهة المتقين ٢/ ٩٤٩).

وتعدّدت المذاهب، واشتهر منها ثلاثة عشر مذهباً، اندرس بعضها، ولم يُكتب لها البقاء، مثل مذهب الأَوْزاعي (١٥٧ هـ)، وسُفْيان الثَّوْري (١٦١ هـ)، واللَّيْث بن سَعَد (١٧٥ هـ)، وإسحاق بن رَاهَوَيْه (٢٣٨ هـ)، ودَاود الظاهريّ (٢٧٠ هـ)، وابن جَرير الطبريّ (٣١٠ هـ)، وعاش بعضها الآخر، لأن أصحاب المجتهد قاموا بحمل آراء إمامهم، ونشرها، وتنقيحها، والزيادة عليها، والدعوة إليها، وإضافة الآراء الجديدة للحوادث فيها، كما قاموا بتحقيق الأقوال في المذهب، ودعمها بالأدلة والحجج، ورسم المنهج الكامل، والقواعد والأصول للاستنباط فيها، ويطلق على هذا العصر: عصر الكمال والنضج، وعصر الأئمة والمجتهدين، وعصر نشأة المذاهب(١).

وكان القرن الثالث الهجري الذي ولد فيه الطبري، ونشأ في ظلاله، عصر الشباب والحيوية، والنشاط والثبات للمذاهب الفقهية التي انتشرت في أرجاء العالم الإسلامي، وكان أتباع كل مذهب يسعَوْن لنشره والدعوة إليه، وتقوية أركانه وتدعيم حججه، مع تدريسه والتأليف فيه، وتصنيف الكتب لجمع فروعه، وربطها بالأصول والأدلة.

ثانياً: الطبري يطلب الفقه:

ولما وُلد الإمام الطبري بآمُل طَبَرِسْتان، ونشأ بها، بدأ بحفظ القرآن وعمره سبع سنين، ثم اتجه إلى أخذ العلوم الأوّلية في بلده، ومنها الفقه، لمعرفةالأحكام الشرعية، واستمر في تحصيل الفقه على علماء بلده، وجمع الكثير الكثير، مع ما يتمتّع به من قوة الذهن، وصفاء القلب، وقوة الحافظة، والذكاء المتقد، والرغبة في المعرفة، والحرص على التعلم،

---

(١) ضحى الإسلام ٢/٢٤٠، تاريخ التشريع الإسلامي للخضري ص ١٧٤ وما بعدها، ٢٦٥.

والانكباب على الدِّراسة، والتفرّغ لذلك برعاية والده الذي تفرَّس به الخير الكثير، وتأمّل منه النبوغ والتفوّق، فلم يشغله شاغل عن الفقه والعلم، مع اتصافه أيضاً بالفطنة وعمق النظر، مما مكَّنه - مع الأيام - من استخراج العِلَل الدقيقة للأحكام، والحِكَم العميقة للشريعة، والفروق الخفيّة بين المسائل المتماثلة في الظاهر، للتفريق بينها في النتائج، وهذا ما ظهر في كتبه وترجيحاته، ومذهبه واختياراته، مما أهَّله للاجتهاد المطلق، ثم إلى الاستقلال في تأسيس مذهب فقهي، بناءً على منهج واضح، وأصولٍ محدَّدة، وقواعد ثابتة التزم بها.

ثالثاً: رحلة الطبري في طلب الفقه:

ولما بلغ الطبري رحمه الله تعالى العشرين من عمره خرج من بلده، ورحل في طلب الفقه، لتحصيله من علماء الأمصار المختلفة، وأخذه من أفواه الأئمة مباشرة، فاتجه إلى الري، والتقى بعلمائها، وأخذ الفقه فيها عن أبي مُقَاتل محمد بن مُقَاتل الرَّازيّ، وكان قاضي الرَّي، وصاحب محمد بن الحسن الشيباني، وتلميذ وكيع وابن عُيَيْنَة، وكان مقدَّماً في الفقه، وسمع البخاريُّ منه، ولم يحدِّث عنه[1].

ثم رحل الإمام الطبري إلى بغداد للالتقاء بالإمام أحمد بن حنبل والأخذ عنه، ولكن المنيّة عاجلت الإمام أحمد، فمات قبل وصول الطبري[2]، فاتجه صَوْب البصرة، وأخذ عن علمائها، ثم انتقل إلى واسط وسمع من شيوخها وفقهائها، ثم ذهب إلى الكوفة وسمع فيها الحديث والقراءات والفقه، ثم اتجه ثانية إلى بغداد وتلقى فيها التوسع

(١) انظر: ميزان الاعتدال ٤/٤٧، الخلاصة ٢/٤٦٠.

(٢) وقع الدكتور فؤاد سزكين في سَهْو حين قال عن الطبريّ «ثم انتقل بعد ذلك إلى بغداد، حيث حضر درس أحمد بن حنبل» (تاريخ التراث العربي ١/٢/٥٩) وهذا مخالف لجميع من ترجم للإمام أحمد والإمام الطبري.

بفقه الإمام الشافعي على يد الحسن بن محمد بن الصَّبَّاح الزَعْفَراني (٢٦٠ هـ) وكان إماماً جليلاً، وفقيهاً ومحدِّثاً، وفصيحاً وبليغاً، وثقةً ثبتاً، وهو أحد رواة مذهب الشافعي القديم في العراق، وأثبت تلامذة الشافعي فيها رواية عنه[١]، وكتب الطبري عنه كتاباً في الفقه، ثم درس الطبري الفقه في بغداد على الإمام الجليل أبي سعيد الإصطخري وهو الحسن بن أحمد (٣٢٨ هـ) وكان قاضي قُم، وأحد أصحاب الوجوه في المذهب الشافعي، ومن شيوخ الفقهاء في المذهب، واستقر في بغداد للتدريس وولي الحسبة فيها[٢]، فأخذ عنه الطبري الفقه الشافعي مع أن الطبريَّ أكبر منه سِنّاً، ودرس الطبري أيضاً في بغداد الفقه الظاهري على إمام المذهب مباشرة داود بن عليّ الأصفهاني مؤسس المذهب الظاهري (٢٧٠ هـ) وقرأ عليه الفقه، وتقابل معه، وتناظرا، ثم ردّ عليه، وكان داود على المذهب الشافعي ثم استقل عنه[٣].

والتفت الطبري إلى الشام، ثم إلى مصر فوصلها سنة **٢٥٣ هـ**، وظهرت فيها شهرتُه العلمية، والتقى فقهاء الشافعية، فأخذ الفقه الشافعي عن الشيخ أبي محمد الرَّبيع بن سُلَيْمان الجيزي الأَزْدي (٢٥٦ هـ)[٤]، وذكر ابن السبكي في «الطبقات الوسطى» أن الطبريَّ أخذ الفقه الشافعي أيضاً في مصر عن الرَّبيع بن سُليمان المُرادي (٢٧٠ هـ)[٥]، وأخذه أيضاً عن تلميذ الشافعي الأول، وصاحبه وناصر

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٢/١١٤، تهذيب الأسماء ١/١٦٠، معجم الأدباء ١٨/٥٣.

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٣/٢٣٠، تهذيب الأسماء ٢/٢٣٧، معجم الأدباء ١٨/٥٣.

(٣) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٢/٢٨٤، تهذيب الأسماء ١/١٨٣، معجم الأدباء ١٨/٧٨.

(٤) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٢/١٣٢، تهذيب الأسماء ١/١٨٧.

(٥) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٢/١٣٢، ٣/١٢١ هامش ١، تهذيب الأسماء =

مذهبه، الإمام الجليل والفقيه العظيم أبي إبراهيم إسماعيل بن يحيى ابن إسماعيل المُزَنيّ (٢٦٤ هـ) وكان جبل علم، ومناظراً مِحْجاجاً، مجتهداً وغوَّاصاً على المعاني، وأخذ الطبريَّ عنه الفقه، وناظره، وتكلّما في أشياء، منها الكلام في الإجماع، وكان أبو جعفر الطبريَّ يُفضِّل المزنيّ، فيطرِيه؛ ويذكر دينه[1].

وفي مصر أيضاً أخذ الطبري فقه الإمام مالك على تلاميذ أبي محمد عبدالله بن وَهْب (١٩٦ هـ) وهم يُونس بن عبد الأعلى (٢٦٤ هـ) الذي كان من أصحاب مالك قبل أن يصير من أصحاب الشافعي[2]، ومنهم بنو عبد الحكم، وهم محمد وعبد الرحمن وسعد، وابن أخي ابن وهب، وكان محمد بن عبدالله بن عبد الحكم (٢٦٨ هـ) قد تفقَّه على مذهب الإمام مالك، ثم انضمّ إلى مذهب الإمام الشافعي عند قدوم الشافعيّ لمصر، وكان الشافعي يحبّه ويودّه، ثم ترك مرة أخرى مذهب الشافعي إلى مذهب مالك، لأن الشافعي لم يخلفه في حلقته، ولأنه مذهب أبيه، ولما جاء الإمام الطبريّ لمصر أخذ عن محمد بن عبدالله بن عبد الحكم فقه مالك وفقه الشافعي، كما أخذ الطبري الفقه المالكي عن سعيد بن عبدالله ابن عبد الكريم المصري المالكي، أحد علماء القرن الثالث الهجري.

وعاد الطبري رحمه الله إلى بغداد، ثم آبَ إلى مسقط رأسه بآمُل، ثم اتجه إلى طَبَرِستان سنة ٢٩٠ هـ، ثم سافر إلى بغداد، وأقام بها حتى وافته المنيَّةُ، ولذلك قال عنه ابن السبكي: «طوّف البلاد في طلب العلم»[3].

= ١/١٨٨.

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٢/٩٣، معجم الأدباء ١٨/٥٣، ٥٤.

(٢) تذكرة الحفاظ ١/٥٢٧، طبقات الشافعية الكبرى ٢/١٧١.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٠، ١٢١ هامش، وانظر: طبقات الفقهاء =

رابعاً: الطبريُ يُتقن الفقه:

كان الإمام الطبريّ في بلده وفي رحلته يلتقي بالعلماء والفقهاء، ويأخذ منهم، ويتفقه على أيديهم، ويجمع مذاهب الفقهاء والأئمة، ويحصي الأدلة، ويطلع على وجوه الاستنباط والاستدلال، ولما نضج عقله، وظهرت مواهبه في البلاد التي حلَّ فيها عُقدت له المناظرات الفقهية، والامتحانات العلمية، والتفّ حوله الطلاب والعلماء، فأخذ منهم، وأخذوا منه، وتبادل معهم الآراء والحجج والأدلة، واطّلع على اختلاف الفقهاء، حتى صار من أشهر الفقهاء، وأجلّ العلماء وأبرزهم.

ويظهر أثر الفقه والتفقّه على الإمام الطبريٍّ فيما سنذكره في التزامه بالمذهب الشافعي، والإفتاء عليه، ثم انتقاله إلى درجة الاجتهاد المطلق، ثم باستقلاله بمذهب فقهي خاص، كما تظهر مكانته السامية في الفقه من خلال كتبه الفقهية الكثيرة التي كانت تنوف عدداً وكمّاً وكيفاً على بقية كتبه الأخرى، سواء في ذلك كتبُه الفقهية الخاصة بمذهبه، وكتبه الفقهية على المذهب الشافعي، وكتبه في علم الخلاف واختلاف الفقهاء والفقه المقارن، كما تظهر ملكته الفقهية عن طريق تلاميذه وطلابه الذين أخذوا الفقه على يديه، والتفّوا حوله، ثم اعتنقوا مذهبه، وقاموا على نقله ونشره والعمل به، حتى انقرض، كما سنرى.

ويظهر الفقه والتفقه أيضاً على الإمام الطبري في كتابه العظيم في تفسير القرآن الكريم «جامع البيان» الذي وصل إلينا كاملاً ـ والحمد لله ـ وطُبع عدة مرات كما سبق، وبيّن فيه الطبريُّ ـ رحمه الله تعالى ـ آيات الأحكام، وفسّرها بإسهاب وتوسع، وبيَّن فيها مذاهب الأئمة والفقهاء،

= ص ٩٨، ١٠٠، تذكرة الحفاظ ٢/ ٧١٠، ٧١٣، إنباه الرواة ٣/ ٨٩، طبقات القراء ٢/ ١٠٧، تعريف عام بالعلوم الشرعية ص ١١٣ وما بعدها.

وأقوال الصحابة والتابعين، ومنهج الاستنباط والاستدلال لكل منهم في الآية، ثم أدلى بدَلْوه، ورجَّح بعضها بالدليل والحجة والبرهان، أو استقل برأي جديد عرضه مع الدليل ووجه الاستدلال، كما سبق.

وهذا يُظهر-لنا ما يمتّع به الإمام الطبـري من ملكة عقلية، وتفوّق علمي، ونبوغ فكري، فتفرّغ لطلب العلم والفقه، وجني الخير العميـم في الفقه والعلوم المختلفة حتى أصبح دائرة معارف، ينهل منها طلابه وتلاميذه، ودوّنها في كتبه ومصنفاته حتى تستفيد منها الأجيال اللاحقة، وتُدَّخر على مرّ التاريخ، وتصبح مرجعاً للعلماء، ومصدراً للباحثين، وموئلاً لروّاد المعرفة، وحجّة لعشّاق الحق، وسبباً دائماً للثواب عند الله تعالى.

خامساً: الطبري يدرس مختلف المذاهب:

ويظهر لنا من العرض الوجيز السابق أن الطبريَّ أخذ عن علماء بلده الفقه الشافعي، ثم توسع ـ أثناء رحلته المباركة ـ في هذا المذهب، وفي كل صُقْع.

ولم يحصر الطبري هِمَّتَه وعقله وفكره وطموحه في مذهب معين، أو فقيه خاص أو اتجاه مذهبي وفقهي دون غيره، بل درس الفقه على جميع المذاهب، وجمع أقوال الصحابة والتابعين، وتعرّف على أقوال جميع الأئمة الذين انقرضت مذاهبهم، وسجَّلها في تفسيره وكتبه الفقهية والحديثية، ولذلك فإن شيوخ الطبري في الفقه لا يحصرهم العدد، ولا يُحْصَوْن، ويمكننا أن نعـدِّد المذاهب الفقهية التي درسها وأتقنها باختصار:

١ ـ المذهب الشافعي، درسه في بلده، وفي مختلف البلدان، وعلى يد أصحاب الإمام الشافعي، وعلماء الشافعية.

٢ ـ المذهب الحنفي، وفقه أهل الرأي، ودرسه في الرَّي، ثم على فقهاء الحنفية ببغداد.

٣ ـ المذهب الظاهري، وأخذه عن صاحب المذهب ومؤسسه داود ابن عليّ البغدادي الأصبهانيّ، ثم صنف كتاباً في الرد عليه كما سنرى، وبقي على صلة مع ابنه محمد بن داود.

٤ ـ المذهب المالكي الذي أخذه عن فقهاء المالكية في بغداد ومصر.

٥ ـ فقه الصحابة والتابعين.

٦ ـ مذاهب الفقهاء والأئمة الذين ظهروا في القرن الثاني الهجري ثم انقرضت مذاهبهم، وخلّد الطبري كثيراً من آرائهم وأقوالهم في تفسيره وكتبه الفقهية والحديثية.

سادساً: **الطبري إمام في الفقه المقارن:**

ومما سبق يتبيّن لنا أن الطبري رحمه الله تعالى كان إماماً في علم الخلاف، أو الفقه المقارن بين المذاهب، وأنه صنف عدة كتب في علم الخلاف، والردّ على الأئمة والفقهاء، وعقد المناظرات في ذلك، وأن كتابه «اختلاف الفقهاء» أكبر دليل على ذلك، مع ما يرد في تفسيره أيضاً وفي «تهذيب الآثار» وغيرها من آراء المذاهب وأقوال الأئمة والمجتهدين.

ومما يشهد لذلك أيضاً ما ذكره علماء التراجم والتاريخ أن المُكْتفي الخليفة قال للحسن بن العباس: أريدُ أن أقِف وقفاً، تجتمع أقاويل العلماء على صحته، ويسلم من الخلاف، قال: فأحضرَ ابنَ جرير، فأملى عليهم كتاباً لذلك، فأُخرجت له جائزةٌ سَنِيَّة، فأبى أن يقبلها. . .، فتقدَّم بذلك، وعظم في نفوسهم[1].

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٤، سير أعلام النبلاء ١٤/٢٧٠، البداية والنهاية ١١/١٤٦.

قال الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم عن الطبريِّ: «أما الفقه فقد درس المذاهب جميعها، وفقه الشافعي على الخصوص، واتخذه مذهباً له، وأفتى به في بغداد عشر سنين، ثم أحصى المسائل، واستجلى الغوامض، وأمعن في التثقيف والتدقيق، ولم يلبث أن أدَّى به البحث والاجتهاد إلى اختيار مذهب انفرد به، وأودعه في كتبه المطوَّلة والمختصرة»[1]، وهذا ما نتولى تفصيله إن شاء الله تعالى في المباحث التالية.

---

(١) تاريخ الطبري، المقدمة ١/١١ طبعة دار المعارف.

المبحث الثاني

الطّبريّ فقيهاً شافعيّاً

أولاً: تعريف بالمذهب الشافعي:

الفقه الشافعيّ منسوب إلى مؤسس المذهب الشافعي الإمام أبي عبدالله محمد بن إدريس المطّلبيّ القرشيّ (٢٠٤ هـ) الذي نشأ في مكة، وأخذ الفقه وعلوم القرآن على علمائها، ثم رحل إلى المدينة فتفقه بالإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى (١٧٩ هـ)، وسمع منه كتابه «الموطأ»، وأخذ الحديث وعلومه عن علماء المدينة المنورة، ثم رحل إلى البادية، ولزم قبيلة هُذَيْل، وأخذ عنها اللغة العربية صافية نقية، وحفظ أشعار هُذيل، ورواها لغيره، وأصبح لسانُه فصيحاً بليغاً ينثر الدرَّ، وصار كلامه حجة في اللغة، ثم ذهب إلى العراق وأخذ فقه الرأي ومذهب الحنفية عن الإمام محمد بن الحسن الشيباني (١٨٩ هـ) تلميذ أبي حنيفة رحمه الله تعالى، وناظر الشافعي العلماء في مختلف البلاد، وظهر نبوغه وتفوّقه، وبرزت عبقريّته ومنهجه الأصولي، واستفاد من معرفته بالحديث وإتقانه لعلومه للدفاع عن السنة حتى سُمِّيَ ناصرَ السُّنّة، أو ناصر الحديث، وكان عالماً بالمنطق والجدل والمناظرة، وكان مناظراً من الطراز الأول، وصنف أول كتاب في أصول الفقه «الرسالة» فدوَّن مبادئه وقواعده، ثم أملى كتابه الفقهي «الأم» الذي يمثل آخر آرائه واجتهاداته، ويحدِّد مذهبه الجديد المعتمد.

وانتشر المذهب الشافعي في الحجاز والعراق والشام ومصر وبلاد فارس وغيرها، وظهر في القرن الثالث الهجري عدد كبير من أصحاب

الإمام الشافعي الذين قاموا بنشر المذهب في مختلف البلاد، منهم أبو ثَوْر الكلبي البغدادي (٢٤٠ هـ) وإسحاق بن رَاهَويَهْ (٢٣٨ هـ) والمُزَني (٢٦٤ هـ) والزَعْفَراني (٢٦٠ هـ) شيخ الطبري في الفقه ببغداد، والرَّبيع بن سُليمان الجيزي (٢٥٦ هـ) والرَّبيع بن سليمان المُرادي (٢٧٠ هـ) وهما أيضاً شيخا الطبري بمصر، ومحمد بن إدريس ابن المنذر أبو حاتم الرازي (٢٧٧ هـ)، ومحمد بن نَصْر المَرْوَزي (٢٩٤ هـ) صاحب الطبري في رحلته وطلبه للعلم، وأحد المحمَّدين المحدثين الأربعة بمصر، وسليمان بن الأَشْعَث أبو داود السجستاني (٢٧٥ هـ)، وعثمان بن سعيد أبو سعيد الدَّارِمي (٢٨٠ هـ)، وعاش بعضهم إلى القرن الرابع الهجري كالطبري (٣١٠ هـ)، وأبي سعيد الإصطخري (٣٢٨ هـ)، وابن سُرَيْج (٣٠٦ هـ)، وأبي حامد المَرْوَزي (٣٦٢ هـ)، وأبي العباس بن القَاصّ (٣٣٥ هـ)، وأبي بكر بن المُنْذر (٣١٠ هـ) وغيرهم، وكان كثير ممن ذُكر قد بلغ مرتبة الاجتهاد في المذهب، ثم الاجتهاد المطلق، وبلغ بعضهم الاستقلال في مذهب.

ويتّسم الفقه في القرن الثاني الهجري بالقوة والنشاط، والاعتماد على الاجتهاد المستقل وحرية الرأي لكل عالم أو فقيه، بينما برز الفقه في القرن الرابع الهجري في المذاهب الفقهية، وتقيَّد معظم الفقهاء والعلماء بمذهب معين، والتزموا بأصوله ومعظم فروعه، ويندر أن يخرجوا عنه، وإن بلغ كثير منهم إلى درجة الاجتهاد داخل المذهب، دون الاستقلال عنه، وعاش الطبريُّ معظم حياته في القرن الثالث الهجري، واستكمل عمره في العقد الأول من القرن الرابع، فظهرت فيه صفات الفقه وميزاته للقرنين الثاني والرابع[1].

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامي للبربري والسبكي والسايس ص ١٩٩، تاريخ التشريع الإسلامي للخضري ص ١٧٤ وما بعدها، تاريخ التشريع الإسلامي، للشهاوي =

ثانياً: الطبري يلتزم المذهب الشافعي:

فتح الطبري عينيه في دراسة الفقه على المذهب الشافعي، وترعرع في بلده على دراسته على علماء بلده، ونما تعمقه بدراسة المذهب الشافعي أثناء رحلته العلمية، والتقائه بعلماء المذهب الشافعي وفقهائه في العراق والشام ومصر، ومع أنه درس الفقه على سائر المذاهب، لكنه توسع في التفقه على المذهب الشافعي، والتزم الإفتاء به مدة طويلة، وتقيّد بأقواله وآراء الأصحاب فيه على الغالب.

كما قام الطبري بتعليم المذهب الشافعي، وتدوين الكتب الفقهية بحسب المذهب الشافعي، وأفتى بآراء المذهب، وهذا ما صرح به الإمام الطبري نفسه، فقال: «أظهرت فقه الشافعي، وأفتيت به ببغداد عشر سنين، وتلقّنه مني ابن بَشّار الأَحْول أستاذ أبي العباس ابن سُرَيْج»(١).

ثالثاً: الطبري مجتهداً مطلقاً في المذهب الشافعي:

ولما ارتقى الطبري في العلم والفقه، بلغ رتبة الاجتهاد، ولكن بقي اجتهاده محصوراً في إطار المذهب الشافعي، ومعتمداً على الأصول المقرَّرة فيه، وبلغ مرتبة المجتهد المطلق غير المستقل، وهو الذي وُجدت فيه شروط الاجتهاد التي اتصف بها المجتهد المستقل، لكنه لم يبتكر قواعد لنفسه، بل سلك طريق إمامه في الاجتهاد، فهو مجتهد مطْلَق منتسب، لا مستقل، وسمى ابن عابدين مثل هؤلاء: طبقة المجتهدين في المذهب، وهم القادرون على استخراج الأحكام من الأدلة على مقتضى القواعد التي قررها أستاذهم في الأحكام، وإن

= ص ١٢٩، ١٩١ الطبري للحوفي ص ٢٣٣.

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٣، سير أعلام النبلاء ١٤/٢٧٥.

خالفوه في بعض الفروع، لكن يقلّدونه في قواعد الأصول[1].

وإذا اجتهد «المجتهد في المذهب» وأبدى آراءً جديدة متّفقة مع قواعد المذهب وأصوله، أو خالف في بعض الفروع وتفرد بها، فإنه يُسمّى عند الشافعية «من الأصحاب» أو «صاحب وجه في المذهب»، وقد حصل الطبري رحمه الله تعالى على هذا اللقب، واتفق علماء الشافعية وأصحاب التراجم عندهم على أن الطبري كان فقيهاً شافعياً، وكان أحد الأصحاب في المذهب الشافعي، وأحد أصحاب الوجوه، لذلك عدُّوه شافعياً، ونقلوا أقواله في كتب الفقه الشافعي، وترجموا له في طبقات الشافعية.

فهذا الشيخ أبو عاصم العبَّاديّ، وهو من كبار فقهاء الشافعية، وممن صنف في طبقات فقهاء الشافعية، قد ذكر الطبري في فقهاء الشافعية، وقال: «هو من أفراد علمائنا»[2]، أي من أصحاب المذهب الشافعي الذي بلغ رتبة الاجتهاد في المذهب، وتفرّد ببعض الآراء فيه.

وأكّد ذلك تاج الدين ابن السبكي رحمه الله، فقال: «فإن ابن جرير معدود من أصحابنا لا يَمتري أحد بذلك»[3].

رابعاً: هل بقي الطبري على المذهب الشافعي؟:

لم يتوقّف الطبري في طلب العلم وتحصيله، والتوسع فيه، والتبحّر في الفقه، والاجتهاد في الأحكام عند الحدّ السابق، وإنما ثابر في بذل الجهد والجِدّ والاجتهاد، وصدرت عنه آراء كثيرة، وخالف في أقواله

(١) حاشية ابن عابدين، رد المحتار على الدر المختار ١/٧٧، الفقه الإسلامي وأدلته ١/٤٧.
(٢) انظر: تهذيب الأسماء ١/٧٩.
(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٧.

إمامَ المذهب الشافعي، وتفرَّد عن أقوال الأصحاب، وصارت له قواعد وأصول، وهنا اختلف العلماء في شأنه على قولين:

الأول: أن الطبري لم يخرج عن المذهب الشافعي، ولم يؤسِّس مذهباً خاصاً، وإنْ وصل إلى درجة الاجتهاد، وتوفّرت فيه شروط الاجتهاد المطلق، وأنّ أقواله الخاصة، تُعتبر وجهاً في المذهب الشافعي، كأقوال أصحاب الوجوه، وإنْ خالف قواعد المذهب وأصوله، ووصل إلى رأي مخالف ومستقل، فيعتبر منفرداً به، أو شاذاً ولا يعتبر من المذهب، وكل ذلك لا يخرجه من المذهب الشافعي.

وهذا ما فهمه ابن السبكي من إشارة ابن الرفعة، وتعليقه على رأي يخالف فيه الطبريُّ مذهبَ الشافعية، فقال: «وإنما قصد ابن الرفعة بهذا الكلام الإشارة إلى أنه، وإن كان مجتهداً مطلقاً، **معدود من أصحابنا** بشهادة صاحب «الإشراف»، فليلْتَحِق قوله بهذا بالمذهب، **ويعدُّ وجهاً فيه**» ثم أكد ابن السبكي كلامه فقال: «فابن جرير معدود من أصحابنا، لا يمتري أحد في ذلك»(١).

ثم يؤكد ابن السبكي ذلك ويوضحه، فيقول: «فإن موافقة غير ابن جرير من أصحابنا له تؤكِّد عدَّ قوله من المذهب، بخلاف ما إذا لم يُوجد له موافق، فإن النظر إذ ذاك قد يتوقف في إلحاق أقواله بالمذهب؛ لأن المحمَّدين الأربعة: ابن جرير، وابن خزيمة، وابن نَصْر، وابن المُنْذر، **وإن كانوا من أصحابنا**، فربما **ذهبوا باجتهادهم المُطْلق** إلى مذاهب خارجة عن المذهب، فلا نَعُدُّ تلك المذاهب (أي الأقوال) من مذهبنا، بل سبيلُها سبيل من خالف إمامَه في شيء من المتأخِّرين أو المتقدمين»(٢).

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٧.
(٢) المرجع السابق.

وبناء على هذا القول أدخل معظم كتب التراجم لطبقات الشافعية وغيرهم ـ ابن جرير الطبري في فقهاء الشافعية، والمجتهدين في المذهب، ومن الأصحاب فيه، ومن أهل الوجوه.

القول الثاني: أن الطبري استقل عن المذهب الشافعي، وخرج منه، وصار له مذهب خاص ومستقل، وهو ما سنبينه في المبحث التالي.

المبحث الثالث

المذهب الجريريُّ في الفقه

أولاً: الطبري مجتهداً مطلقاً ومستقلاً:

اتجه كثير من علماء تاريخ التشريع الإسلامي، والمؤرِّخين، ومصنِّفي كتب التراجم إلى أن الإمام أبا جَعْفر الطبريّ بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق، ثم استقل عن المذهب الشافعي، وصار صاحب مذهب خاص، يعرف باسم «المذهب الجريري في الفقه»، وقد عدَّه كثير من العلماء بين المجتهدين.

فالطبريّ حسب اصطلاح ابن عابدين: هو من طبقة المجتهدين في الشرع، وهو مجتهد مستقل، استقل بوضع قواعد لنفسه وأصول لاجتهاده، ليبني عليها أقواله وفقهه(١).

فالشيخ أبو إسحاق الشيرازي يذكر في كتابه «طبقات الفقهاء» ابن جرير الطبريّ في جملة المجتهدين المستقلين، ولم يعدَّه من طبقات أصحاب المذهب الشافعي(٢).

وقال ابن خَلِّكان: «وكانَ من الأئمةِ المجتهدين، لم يقلِّدْ أحداً، وكان أبو الفرج المُعَافى على مذهبه»(٣).

ونقل أصحاب التواريخ عن أبي محمد الفَرْغاني، وهو أحد أتباع

(١) انظر: حاشية ابن عابدين ١/٧٧، الفقه الإسلامي وأدلته ١/٤٧.

(٢) طبقات الفقهاء للشيرازي ص٩٣.

(٣) وفيات الأعيان ٣/٣٣٢، وانظر: روضات الجنات ٧/٢٩٢.

الطبريّ، أنه قال: «حدَّثني هارون بن عبد العزيز (وهو أهم رواة كتب الطبري) قال: قال لي أبو جعفر الطبريُّ: أظهرت فقه الشافعي، وأفتيتُ به ببغدادَ عشر سنين، وتلقَّنه مني ابن بَشَّار الأحْول، أستاذ ابن سُرَيْج» ثم قال الفَرْغاني: «فلما اتَّسَع علمه أدّاه اجتهاده وبحثه إلى **ما اختاره** في كل صنف من العلوم في كتبه، إذ كان لم يسعه ـ فيما بينه وبين الله جل وعز ـ إلا الدَّيْنُونة ـ **بما أدّاه إليه اجتهاده، فيما لم ينص عليه** مَنْ يجب التسليم لأمره، فلم يَأْلُ نفسَه والمسلمين نصحاً وبياناً فيما صنفه»[1].

ثم أكّد الفرغاني ذلك فقال: «وتمَّ أيضاً «لطيفُ القول في أحكام شرائع الإسلام» وهو **مذهبه الذي اختاره، وجوَّده، واحتج به**»[2].

وقال ابن النديم: «**وله مذهبٌ في الفقه**، اختاره لنفسه، وله في ذلك عدّة كتب»[3].

وقال الإمام الحافظ، مؤرِّخ الإسلام الذهبي عن الطبري: «الإمام، العَلَم، **المجتهد**، عالم العصر، أبو جعفر الطبري، صاحب التصانيف البديعة»، ثم قال: «وكان **من كبار أئمة الاجتهاد**»[4].

وقال الذهبي أيضاً: «وتفرد بمسائل حفظت عنه»[5].

وقال القفطي عنه: «وله مقالة في الفقه، عَمِلت بها العلماء»[6].

وقال ياقوت الحموي: «وكان أبو جعفر قد اختار من مذاهب الفقهاء

---

(١) اختلاف الفقهاء ص ١٦.
(٢) اختلاف الفقهاء ص ١٦، ١٧.
(٣) الفهرست ص ٣٢٧.
(٤) سير أعلام النبلاء ١٤/٢٦٧، ٢٦٩.
(٥) سير أعلام النبلاء ١٤/٢٧٠، ٢٧٥.
(٦) إنباه الرواة ٣/٩٠.

قولاً اجتهد فيه بعد أن كان ابتدأ بالفقه في مدينة السلام على المذهب الشافعي رضي الله عنه، وكتب كتابه عن الحسن بن محمد بن الصَّبَّاح الزَغْفَراني عنه، ودرسه في العراق على جماعة منهم: أبو سعيد الإصطخري وغيره، وهو حدث قبل خروجه إلى الفسطاط»[(1)].

وبناءً على ما تقدم فقد ذهب معظم العلماء المُحْدثين في كتب تاريخ التشريع الإسلامي إلى عدِّ الطبري من المجتهدين المستقلِّين، وأنه صاحب مذهب خاص، وأنه أحد أئمة المذاهب التي انقرضت وبادت.

قال الشيخ محمد الخضري تحت عنوان «المذاهب البائدة»: «من مذاهب الفقهاء من وُجد له أتباعاً وساروا عليه مدة، ثم غلبه ما ورد عليه من المذاهب الأخرى، فانقرض أتباعه، وأشهر أئمة هذه المذاهب أبو عَمْرو عبد الرحمن بن محمد الأَوْزاعي (١٥٧ هـ). . .، وأبو سُلَيْمان داود بن عليّ بن خَلَف الأَصْبَهاني المعروف بالظاهري (٢٧٠ هـ). . .، وأبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبريّ (٣١٠ هـ). . . تفقَّه في أول أمره بمذهب الشافعي رحمه الله تعالى. . . ثم اتسع علمه وأداه اجتهاده إلى ما اختاره في كتبه الفقهية. . .، واستمر هذا المذهب معروفاً معمولاً به إلى منتصف القرن الخامس، هذه أشهر المذاهب التي عمل بها زمناً، ثم انقرض عارفوها، ولم يبق منها إلا ما في بطون الكتب»[(2)].

وقال المستشرق بروكلمان: «ولم يقوَ أيضاً على البقاء مذهب الفقه الذي أسسه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، فغلبت المذاهب

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٥٣.

(٢) تاريخ التشريع الإسلامي للخضري ص ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٢، وانظر: المدخل الفقهي العام، لأستاذنا مصطفى الزرقاء ١/١٤٨ حاشية، تاريخ التشريع الإسلامي للشهاوي ص ٢٤١، ٢٥٠، تاريخ التشريع الإسلامي للسبكي وغيره ص ٣٠٠، ٣٠٧.

الأربعة المشهورة على ذلك المذهب، ولكن مذهب الطبري وَجَد في القرن الرابع الهجري من يمثّله. . . »[1].

وقال ابن فرحون المالكي: «وأما أصحاب الطبري وأبي ثور فلم يكثروا، ولا طالت مدّتهم، وانقطع أتباع أبي ثور بعد ثلثمائة، وأتباع الطبري بعد أربعمائة»[2].

ثانياً: الطبري بين المذهب الشافعي ومذهبه المستقل:

من هذا العرض السابق حصل الاختلاف في وجهات النظر بين العلماء على القولين السابقين، والحقيقة الثابتة أنّ الإمام أبا جعفر الطبري كان شافعي المذهب تعلّماً ودراسة، وتعليماً وتدريساً، وتصنيفاً وإفتاءً، ولذلك اعتبره أصحاب القول الأول في طبقات الشافعية، وأنه بلغ درجة الاجتهاد في المذهب فصار من الأصحاب، ومن أهل الوجوه في المذهب ووقفوا عند ذلك، ولكن الطبري رحمه الله تعالى تقدم درجة أخرى، ووصل إلى مرتبة الاجتهاد المطلق المستقل، أو المجتهد في الشرع، واعتمد قواعد مستقلة، وأصولاً معينة في اجتهاده، وصار صاحب مذهب مستقل، وهذا ما اعتمده أصحاب القول الثاني.

وسبب الاختلاف بين القولين أن الحدود الفاصلة بين هاتين المرحلتين الأخيرتين لم تكن واضحة ومتميزة، ولم تحدَّد بزمن معين، كما أن معظم كتب الطبريّ الفقهية قد فُقدتْ وضاعتْ، فلم تبق حجة ومرجعاً لأحد القولين، وأن مذهبه انقرض فضاعت معالمه، حتى أن كتبه الأصولية لم يصل إلينا منها شيء، مما أثار هذا الاختلاف بين العلماء في المرحلة الأخيرة للطبري، أما المرحلة قبل الأخيرة فهي ثابتة ومتّفق

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٣/٣١٨.
(٢) الديباج المذهب ص ١٣.

عليها، وهي أن الطبري كان فقيهاً شافعياً، وكان أحد الأصحاب في المذهب الشافعي، وأنه أفتى بآراء المذهب، وعلَّمه إلى غيره، وأنّ له اختياراتٍ خاصة، وآراء مستقلة خارجة عن المذهب.

وأرى ـ والله أعلم ـ أن الطبريّ وصل إلى درجة الاجتهاد، وتوفّرت فيه شروط الاجتهاد المطلق، وأنَّه كان من أصحاب المذهب الشافعي، وأن معظم أقواله تتفق مع المذهب الشافعي، وسار على أصول المذهب الشافعي، ثم فاق اجتهاده درجة أصحاب المذهب، وانفرد بآراء مستقلّة، وأقوال خاصة، تُعتبر مذهباً جديداً له، واستطاع أن يجمعها في كتب، وأن يُقيم دعائمها بأصول مستقلة، وقواعد اجتهادية اعتمد عليها في اجتهاده، ودوّنها أيضاً في كتبه الأصولية، ووضعها نصب عينيه، والتزم بها، ثم استطاع بقوة شخصيته، وكفاءته العلمية، ومقوّماته الاجتهادية أن يؤثّر على أتباعه وتلاميذه للأخذ بآرائه ومذهبه، والعمل به، لذلك قال الخطيب البغدادي عنه: «وكان أحد أئمة العلماء، يُحكم بقوله، ويُرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله»(١).

وسوف نشير إلى بعض أقواله الفقهية، وأصوله الاجتهادية التي جاءت في بطون الكتب، ولكن لدينا أدلة واضحة تقع بين أيدينا، وتدل على اجتهاد الإمام الطبري، وأنه صاحب رأي خاص، ومذهب مستقل، وهو ما جاء في كتابه العظيم «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» المعروف بتفسير الطبري في ثلاثين جزءاً، فعند تفسير آيات الأحكام كان يذكر أقوال الفقهاء، وآراء الصحابة والتابعين، واجتهاد أئمة المذاهب، ثم يُدلي بدلوه، ويجتهد بنفسه، ويخلص أحياناً إلى رأي مستقل، فينفرد به، ويخالف بقية الآراء، أو يؤيد رأياً سابقاً، ويرجّحه على غيره، لا عن تقليد واتباع، بل عن قناعة واجتهاد، فيقرنه بالحجة والدليل والبرهان،

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب ٢/١٦٣، وانظر: النجوم الزاهرة ٣/٢٠٥.

ثم يناقش بقية الآراء، ويَعرض أدلّتها، ويحقق مَناطها، ويقف مع الدليل بدون تعصّب أو تقليد.

ومن هنا كان هذا التفسير العظيم صورة صادقة عن عقلية الطبري واجتهاده واستقلاله المذهبي في الفقه وغيره، والأمثلة على ذلك كثيرة، وتغطّي معظم آيات الأحكام التي استند عليها الفقهاء، واستدل بها العلماء، ويمكن أن تُجمع هذه الآيات مع تفسيرها، مع ما أورده الطبريّ فيها لتكون كتاباً مستقلاً في تفسير «آيات الأحكام للقرآن الكريم»[١] ويُؤخذ منها بعض مذهب الإمام الطبريّ في الفقه، وآرائه في الاجتهاد، ومنهجه في الاستنباط.

ويُقال مثل ذلك تماماً فيما بقي من كتب الطبري الأخرى، وهي «اختلاف الفقهاء» و«تهذيب الآثار»، مع ما نُقل عن الطبري من آراء خاصة في الموسوعات الفقهية، وكتب الفقه المقارن، وشروح السُّنة، وتفاسير القرآن الكريم[٢].

يقول الأستاذ عبد الهادي بـو طالب: «وكان الطبري إمام مذهب فقهي، بلغ درجة من الاجتهاد أهَّلته ليكون في مصافِّ رجال المذاهب، وإذا كان الزمان عَفَا على مذهبه الفقهي، كما عفا على مذاهب أخرى، فإن أثر مذهبه بارز في كتب الفقه والأصول والفتاوى والأحكام، وفي

---

(١) وهذا ما فعله الإمام الحافظ المحدث أبوبكـر أحمد بن الحسين البَيْهقي (٤٥٨ هـ) الذي استخرج كتاب «أحكام القرآن للشافعي» من كتبه الفقهية والأصولية، وطُبع عدة مرات.

(٢) بعد كتابة هذه الأسطر اطّلعت على تحقيق هذه الأمنية والرغبة بمذكرة قدمها الأستاذ الدكتور محمد روّاس قلعجي إلى ندوة الإمام الطبري بالقاهرة بجمع وتدوين آراء واجتهادات الإمام الطبري واختياراته بطريقة موسوعية مرتّبة على الأبجديـة باسم «فقه محمد بن جرير الطبري» في ١٦٥ صفحة على المكتاب.

تفسيره الذي يعرض فيه لبعض القضايا الفقهية من منظوره الاجتهادي الخاص»[1].

وهذه النتيجة التي وصلنا إليها تستلزم البحث ـ بإيجاز وبقدر الإمكان ـ عن الأصول التي اعتمد عليها الطبري، وبنى عليها مذهبه، مع التنويه ببعض تلاميذه وأتباعه، ونموذج من آرائه، ثم عرض الكتب الفقهية التي صنفها الطبري، وذلك في الفقرات التالية، وخصّصنا كتبه الفقهية في المبحث التالي.

ثالثاً: أصول المذهب الجَريري:

عرف القاضي البَيْضَاوي علم أصول الفقه بأنه «معرفةُ دلائل الفقه إجمالاً، وكيفيةُ الاستفادة منها، وحَالَ المُسْتَفيد»[2]، أي هو العلم الذي يكسب صاحبه معرفة بمصادر التشريع الإسلامي، وكيفية الاستفادة منها في استخراج الأحكام الشرعية، وقواعد الاستنباط، وبيان الدليل الصحيح الراجح عند التعارض الظاهري، وشرائط الاجتهاد ليسعى الإنسان إلى تحصيلها، ويتميز المجتهد من المقلّد، مع الاستعانة بطرق الاستدلال، والاستنارة بها من القرآن الكريم والسُّنة الشريفة ومبادىء اللغة العربية[3].

ويشكِّل هذا العلم المنارة الوضّاءة بين العلوم الشرعية، ويُعتبر مفخرة الأمة الإسلامية في حضارتها وتراثها، وهو مما انفردت به عن بقية الأمم

(١) من الكلمة التي ألقاها معالي الأستاذ عبد الهادي بو طالب، المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، في افتتاح ندوة الإمام الطبري التي عقدت بالقاهرة في ذي الحجة ١٤٠٩ هـ/ ٢٥ ـ ٢٧ يوليو (تموز) ١٩٨٩ م.

(٢) منهاج الوصول إلى معرفة علم الأصول ص ٣.

(٣) انظر: أصول الفقه الإسلامي، لنا ص ١٢ وما بعدها، تعريف عام بالعلوم الشرعية، لنا ص ١٤٨.

والشرائع، لأنه يرسم الطريق القويم للمجتهد، ويحدِّد القواعد والمبادىء التي يسير عليها في استنباط الأحكام بطريق صحيح، وبيانها للناس[1].

وإن المجتهد المطلق الذي يؤسِّس مذهباً مستقلاً، وينفرد بالآراء لا بدَّ له من أن يعتمد على قواعد محددة للاستنباط، ومنهج معيَّن للاستدلال، وهو ما يُعرف بعلم أصول الفقه.

والإمام الطبري لم يخرج عن هذه القاعدة، فحدّد منهجه الأصولي، وذكر قواعده في الاستنباط والاستدلال، ونص على المصادر التشريعية التي يعتمد عليها، وكان من الواجب أن نفرد هذا الموضوع بمبحث مستقل لبيان «منهجه الأصولي» وشخصيته الأصولية، ولكن كتب الطبري في أصول الفقه فُقدت، ولم يصل إلينا منها شيء، ولم نضع أيدينا على التحديد الصريح والكامل لأصول مذهبه ومنهجه في الاستنباط، وقواعده في البيان والاستدلال، مما اضطرنا إلى اختصاره في هذه الفقرات.

رابعاً: كتب الأصول للطبري:

من المستحيل عقلاً وشرعاً أن يصل هذا الإمام الفقيه إلى درجة الاجتهاد، وأن يؤسس مذهباً مستقلاً، دون أن يكون له قواعد أصولية، ومناهج اجتهادية، وخاصة بعد ظهور هذا العلم وتدوينه، وانتشاره على يد الإمام الشافعيّ رحمه الله تعالى (٢٠٤ هـ)، وقام أتباع كل مذهب بتحديد الأصول والقواعد والمنهج الذي التزموه في مذهبهم، واعتمدوا علم أصول الفقه أساساً ومقدمة للفقه وكتبه.

وقد ذكر كثير من علماء التراجم والتاريخ عدة كتب للطبري في أصول

---

(١) انظر فوائد علم أصول الفقه الإسلامي وأهميته في كتابنا «أصول الفقه الإسلامي» ص ٢١ وما بعدها.

الفقه، قال الإمام الذهبي: «وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة، واختيار من أقاويل الفقهاء، وتفرد بمسائل حفظت عنه»[1]، وقال الخطيب البغدادي: «وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة، واختيار من أقاويل الفقهاء، وتفرد بمسائل حفظت عنه»[2].

ومن هذه الكتب الأصولية:

١ ـ الموجز في الأصول: ذكره ياقوت الحموي، وقال: «كتاب الموجز في الأصول، ابتدأ فيه برسالة الأخلاق، ثم قطع»[3].

٢ ـ الآدَر في الأصول: قال ياقوت عنه «ووعد بكتاب الآدَر في الأصول، ولم يخرج منه شيء»[4].

٣ ـ القياس: قال ياقوت: «وأراد أن يعمل كتاباً في القياس فلم يعمله، قال أبو القاسم بن حُبَيْش الورّاق: كان قد التمس مني أبو جعفر أن أجمع له كتب الناس في القياس، فجمعت له نَيِّفاً وثلاثين كتاباً، فأقامت عنده مُدَيْدة، ثم كان من قَطْعه للحديث قبل موته بشهور ما كان، فردَّها عليَّ، وفيها علامات له بحمرة قد علَّم عليها»[5].

ويفهم من كلام ياقوت عن الكتابين الأخيرين أن الطبري رحمه الله كان يختزن ملكة أصولية ناصعة، وأنه صنف كتابه «الموجز في الأصول» ثم أراد أن يدوِّن منهجه ومعارفه وقواعده في كتاب «الآدَر» كما رغب بذلك في كتاب «القياس» ولكن المنية

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/٢٧٠، وانظر: البداية والنهاية ١١/١٤٥.

(٢) تاريخ بغداد للخطيب ٢/١٦٣، والعبارة واحدة لأن الذهبي نقلها عن الخطيب.

(٣) معجم الأدباء ١٨/٨١، وذكره الصفدي في الوافي، انظر: إنباه الرواة ٣/٩٠ هامش.

(٤) معجم الأدباء ١٨/٨١.

(٥) معجم الأدباء ١٨/٨١.

عاجلته، مما يدل على أن موضوعات علم أصول الفقه ومسائله وقواعده كانت واضحة في ذهنه، ومختمرة في فكره، وماثلة أمام عينيه، عند اجتهاده واستنباطه، ويؤكد ذلك أيضاً ما يلي:

٤ ـ الرسالة: صنّف الإمام الطبري كتاباً في أصول الفقه باسم «الرسالة» حدّد فيه منهجه في الاجتهاد والاستنباط على طريقة الإمام الشافعي، وسمى الطبري كتابه «الرسالة» باسم كتاب الشافعي رحمه الله تعالى في الأصول «الرسالة» ووضع الطبري كتابه «الرسالة» في مطلع كتابه في مذهبه «لطيف القول في البيان عن أصول الأحكام»[١]، ويوجد من كتاب «الرسالة» للطبري نص قصير ملحق في تفسيره بتحقيق الأستاذ محمود شاكر[٢].

وأشار تلميذ الطبريّ عبد العزيز بن محمد الطبريّ إلى كتاب «الرسالة» وأنَّ أبا جَعْفر ذكر فيها أيضاً آراء في أصول الدين، وتقرير مذهب أهل السنة والجماعة، وتكفير من كفَّر الصحابة[٣].

وقال الأستاذ المحقق محمود شاكر عن كتاب الطبري «تهذيب الآثار»: «إن أبا جعفر حين يَفْرَغ من ذكر اختلاف العلماء، وذكر حججهم في اختلافهم، يتبعه بصواب القول عنده، أي **بمذهبه هو في المسألة**، وحجته في صواب ما يذهب إليه، على الأصول التي قرّرها في كتابه «**كتاب الرسالة**» كما أشار إلى ذلك» ثم قال الأستاذ محمود شاكر في الهامش: «كتاب الرسالة هو فيما أرجِّح في أصول مذهبه، وضعه على

(١) تاريخ التراث العربي، لفؤاد سزكين ١/٢/١٦٨، وانظر محتويات هذا الكتاب فيما بعد ص ١٨٧، ١٨٨.

(٢) تفسير الطبري ٢/٢٠٧ ـ ٢٠٩ طبعة دار المعارف، تاريخ التراث العربي ١/٢/١٦٨.

(٣) معجم الأدباء ١٨/٨٣.

غرار «كتاب الرسالة» للإمام الشافعي»[١]، وجاء اسم الكتاب عند بروكلمان باسم «الرسالة في بيان أصول الأحكام»[٢].

وقال الطبري نفسه: «وغير ذلك من الوجوه على ما قد بيَّنا في «كتاب الرسالة»[٣].

وإننا لا زلنا على ثقة بالله تعالى، وأمل قريب في العثور على هذين الكتابين في أصول الفقه للطبري «الرسالة» و«الموجز في الأصول» لمعرفة أصوله كلها، ومنهجه الاجتهادي الكامل، وإذا فقد الأمل من وجود هذين الكتابين فيمكن معرفة هذه الأصول والقواعد والمنهج، واستخراجها إلى حدٍّ ما، من خلال كتبه الموجودة الباقية في التفسير والحديث واختلاف الفقهاء، ومن خلال فقهه وآرائه وتعليله للأحكام، ومناقشاته لآراءه غيره، وهو ما فعله علماء المذهب الحنفي في استقاء القواعد الأصولية، والمناهج الاجتهادية، واستنباط الأصول للمذهب الحنفي من خلال أقوال الإمام أبي حنيفة، واجتهاد أصحابه، وفقه تلاميذه، ومنثور كلامه، ولكن تبقى المشكلة هنا قائمة لأن معظم كتب الطبري الفقهية، وخاصة ما يتعلق بمذهبه، فُقدت أيضاً، مما يجعل العمل ناقصاً ومبْتوراً، إلى أن يُيَسِّر الله كشف كتبه والعثور عليها، ومن هذا المنطلق نذكر بإيجاز بعضاً من قواعد الطبري الأصولية[٤].

خامساً: منهج الطبري في الاجتهاد:

يظهر للقارىء للآراء الفقهية للطبري في كتبه المطبوعة: التفسير،

---

(١) تهذيب الآثار، مسند علي بن أبي طالب، مقدمة محمود شاكر ص ١٠ ـ ١١.
(٢) تاريخ الأدب العربي ٣/٥٠.
(٣) تهذيب الآثار، مسند علي بن أبي طالب ص ٣٤.
(٤) انظر بحث «فقه محمد بن جرير الطبري» للدكتور محمد رواس قلعجي، وبحث «الجانب الفقهي في تفسير الطبري» للدكتور محمد الدُّسوقي.

والتاريخ، وتهذيب الآثار، واختلاف الفقهاء، أن أصول الأحكام عند الطبري ومصادر التشريع، ومنهج الاستنباط وقواعد الاجتهاد، هي ما يلي:

١ - **القرآن الكريم**، وهو المصدر الأول للتشريع والاجتهاد باتفاق المسلمين، ويقرر الطبري في تفسيره منهجه الاستنباطي من القرآن بأن القرآن عربي، كما سبق، ويجب أن تكون معانيه موافقة لمعاني الكلام العربي، وملائمة لظاهر كلام العرب، لذلك حافظ الطبري على الالتزام بالدلالة اللغوية، ومراعاة ظاهر النص في التفسير، واستخراج الأحكام، مع استفادته من إتقانه للقراءات وعلوم القرآن، كما مرّ في التفسير، وكما سيأتي في الفصل الخامس، فيجمع مثلاً بين قراءتين لاستنباط حكم فقهي، ويقرر أن القراءة الشاذة ليست قرآناً يُحتج به متفقاً مع بقية المذاهب.

٢ - **السنة**: وهي ما صدر عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، وهي المصدر الثاني للتشريع باتفاق المذاهب، وهي بعد القرآن كما يقرر الطبري وعلماء الأصول، ويحتج الطبري بخبر الآحاد إذا تحققت شروط قبوله في الراوي والمرويّ، ويشدِّد الطبريّ في الأخذ به خلافاً للمعتزلة والخوارج، ويبدو أنه يأخذ بالحديث المرسل مطلقاً خلافاً للإمام الشافعي، ويرجِّح بين الروايات بقوة السند أو كثرة الرواة وحفظهم، ويؤكد أن السُّنَّة بيان للقرآن الكريم في تفسير مجْمله، وبيان مُشْكِله، وتخصيص عامِّه، وتقييد مُطْلَقه، وتفصيل أحكامه وتأكيدها، وأن دلالة الأمر في القرآن والسنة للوجوب إلا إذا صُرفت عنه بدليل، وأن في النصوص ناسخاً ومنسوخاً، ولكن ينحصر النسخ في الأوامر والنواهي دون الأخبار، كما يقرِّر جمهور العلماء، وأنه لا يجوز التوسع في مسألة النسخ، ويجمع بين الأحاديث المتعارضة، وهو العالم بالحديث، والحافظ والمحدث والمصنِّف فيه.

٣ ـ **الإجماع**: وهو اتفاق مجتهدي أمة محمد ﷺ على أمر شرعي، ويُكثر الطبريُّ من ذكر كلمة إجماع الأمة، وإجماع الجميع، وإجماع أهل العلم، ويلتزم بما يُجمع عليه المجتهدون بعد التثُّبت من صحة وقوعه، ونَقَلَ علماء الأصول مخالفة الطبري لجماهير العلماء في قبوله الإجماع مع مخالفة واحد أو اثنين، وفي قولٍ ثلاثة، وأنه يقبل إجماع الأغلبية أو الأكثريـة(١).

٤ ـ **القياس**: وهو إلحاق فرع بأصل عند مساواته في علّة حكمه، ويسمِّيه الطبريُّ النَّظير، لإعطائه حكم نظائره في الكتاب والسنة، بناءً على إيمانه بأن جميع الأحكام الشرعية معلَّلة بمصالح العباد، سواء كانت العلّة ظاهرة أم غير ظاهرة، وأن القياس عنده هو ردُّ الفروع المختلفة إلى نظائرها من الأصول المجمع عليها، أو إلحاق الفروع الحادثة بالأصول المحكمة(٢).

٥ ـ **اعتبار مقاصد الشريعة بتحقيق مصالح الناس بجلب النفع لهم** ودفع الضرر عنهم، ويعلل الطبري في تفسيره كثيراً عن قبول الأحكام التي تُقَرِّر صلاح الناس في الدنيا والآخرة، وردّ كل ما فيه فساد لهم في الدنيا الآخرة.

٦ ـ وأخيراً يفهم من كلام الطبري أنه يعتمد **العرف**، ويختار الأحكام التي تحقق **رفع الحرج** عن الناس، والاستفادة من الرخص الشرعية(٣).

---

(١) المنخول من تعليقات الأصول للغزالي ص ٣١١، تحقيق الدكتور محمد حسن هيتو، طبع دار الفكر بدمشق ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، البرهان في أصول الفقه للجويني ١/٧٢١ طبع قطر ١٣٩٩ هـ، الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٤/٥٤٤ مطبعة العاصمة بالقاهرة، نشر زكريا علي يوسف.

(٢) انظر بحث «الجانب الفقهي في تفسير الطبري» للدسوقي ص ٢٩ على المكتاب.

(٣) انظر بحث «الجانب الفقهي في تفسير الطبري» للدسوقي ص ٣١، ٣٢، وبحث =

سادساً: تلاميذ الطبري في الفقه وأتباع مذهبه:

إن تلاميذ الطبري عامة، وحاملي مذهبه خاصة، كثيرون لا يحصرهم العدّ، ولم يُجمعوا في كتاب، كما حصل في طبقات الفقهاء على المذاهب الأخرى، وذلك بسبب انقراض المذهب.

وذكرت لنا بعض كتب التراجم والتاريخ أسماء قلة من التلاميذ والأتباع الذين تتلمذوا على ابن جرير الطبريِّ، وأخذوا الفقه على يديه، وتبعوا مذهبه[1]، منهم:

١ ـ أبو الفَرَج المُعَافى بن زكريا النَّهْرَواني، القاضي، ويعرف بابن الطَّرّار (٣٩٠ هـ)، ويقال له: الجريريُّ، نسبة إلى ابن جرير الطبريّ، لأنه كان على مذهبه، وكان أبو الفرج المعُافى معاصراً لابن النديم، ولذلك أخذ عنه، وذكره وذكر مصنفاته، وقال عنه: «أوحد عصره في مذهب أبي جعفر، وحفظ كتبه، ومع ذلك متفنِّنٌ في علوم كثيرة، مضطلعٌ بها، مشار إليه فيها، في نهاية الذكاء، وحسن الحفظ، وسرعة الخاطر في الجوابات... وله من الكتب في الفقه وغيره ما أنا ذاكره إلى وقتنا» وعدّد كتبه ورسائله في الأدب والنحو وغيرهما، ومنها «شرح كتاب «الخفيف» للطبري»[2].

وكان أبو الفرج فقيهاً أديباً شاعراً جامعاً بين العلوم، عالماً بكل فنّ، وله شعر حسن، وَلي القضاء بباب الطَّاق في الجانب الشرقي من بغداد، وروى عن الأئمة، وروى عنه الأئمة، وكان أبو محمد

= «فقه الطبري» قلعجي ص ٢٦ على المكتاب.

(١) انظر: الفهرست ص ٣٢٧ وما بعدها، تاريخ الأدب العربي ٣/٣١٨، تاريخ التشريع الإسلامي للخضري ص ٢٧١.

(٢) الفهرست ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

الباقيّ يقول: «إذا حضر المُعافى أبو الفرج فقد حضرت العلوم كلها» وقال ابن خَلِّكان: «وكان يُنسب بالجريري نسبة إلى الإمام محمد بن جرير الطبري، لأنه كان على مذهبه، مقلِّداً له، لأنه كان مجتهداً، صاحب مذهب مستقل، وكان له أتباع، وأخذ بمذهبه جماعة، منهم أبو الفرج المذكور»(١).

ثم قال ابن النَّديم عن الطبري: «ومن أصحابه المتفققهين على مذهبه. . .»(٢)، وعدّد منهم:

٢ ـ علي بن عبد العزيز بن محمد الدُّولابي، وله من الكتب «كتاب الرد على ابن المُغلِّس»، وابن المُغَلِّس هذا من أصحاب داود الظاهري (٣٢٤هـ)(٣)، ثم ذكر ابن النديم بقية كتب الدُّولابي.

٣ ـ أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي الثَّلْج الكاتب، قال ابنُ النَّديم: «وله من الكتب. . .» ولم يذكر شيئاً(٤).

٤ ـ أبو القاسم بن العرَّاد، وله من الكتب كتاب الاستقصاء في الفقه، وله رسائل صغيرة.

٥ ـ أبو الحسن أحمد بن يحيى بن علي بن يحيى بن أبي منصور المتكلم، وله من الكتب: «المدخل إلى مذهب الطبري ونصرة مذهبه» و«كتاب الإجماع في الفقه على مذهب أبي جعفر».

---

(١) انظر: طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٩٣، وفيات الأعيان ٣١٢/٤، ٣٣٢/٣، إنباه الرواة ٢٩٦/٣، والمراجع المشار إليها في الهامش، الفتح المبين ٢١١/١، الفهرست ص ٣٢٨، ٣٢٩، تاريخ الأدب العربي ٣١٨/٣، مفتاح السعادة ٢٥٣/١.

(٢) الفهرست ص ٣٢٧، وانظر نفس المرجع ص ٤٨.

(٣) تاريخ التشريع الإسلامي للخضري ص ٢٧١.

(٤) الفهرست ص ٣٢٨.

٦ ـ أبو الحسن الدقيقي الحُلْوَاني، وله من الكتب: كتاب الشروط، وكتاب الرد على المخالفين.

٧ ـ أبو الحسين بن يونس، وكان متكلماً، وله في ذلك كتب، وله في الفقه: «كتاب الإجماع في الفقه».

٨ ـ أبو بكر بن كامل، واسمه أحمد بن كامل بن خَلَف، القاضي، وهو أجلُّ أصحاب الطبريِّ، ومن أكثر من كتب عنه، وجمع أخباره، وذكر طلّابه، مَوْلِدُه بسرَّ مَنْ رأى، وهو أحد المشهورين في علوم القرآن، وكان مفتياً في علوم كثيرة، له كتب كثيرة، وله من الكتب على مذهب الطبري: كتاب جامع الفقه، كتاب الحيض، كتاب الشروط، كتاب الوقوف[1].

٩ ـ أبو إسحاق إبراهيم بن حبيب السَّقْطيُّ الطبريُّ، من أهل البصرة، وله تاريخ موصول بكتاب أبي جعفر، وقد ضمَّنه من أخبار أبي جعفر وأصحابه شيئاً كثيراً، وله من الكتب: كتاب الرسالة، كتاب جامع الفقه[2].

١٠ ـ رجل يعرف بابن أُذْنُوبي.

١١ ـ رجل يعرف بابن الحدَّاد.

١٢ ـ أبو مسلم الكجِّي، قال أبو الفرج المُعافى: «وكان أبو مسلم الكجيّ ينتمي إلى أبي جعفر الطبريّ في الفقه، وكان في سن أبي جعفر»[3].

١٣ ـ أبو الفرج بن أبي العباس بن المغيرة الثلاَّج، وكان حسن الأدب،

---

(١) الفهرست ص ٣٢٨، معجم الأدباء ١٨/٩٤، ونقل ياقوت الحموي كثيراً عنه في أخبار الطبري.

(٢) الفهرست ص ٣٢٨.

(٣) الفهرست ص ٣٢٨.

ويتفقّه على مذهب أبي جعفر، وكان يتعسّف ويتصنّع في كلامه، وكان الطبريُّ يمازحه، ومات قبل الطبري بمُدَيْدة[1].

١٤ ـ أبو محمد عبدالله بن أحمد بن جعفر الفَرْغاني (٣٦٢ هـ)، قال عنه الذَّهبيّ: «الأمير العالم»، حدَّث بدمشق عن أبي جعفر الطبريّ، وصنف كتابه «الذيل على تاريخ الأمم للطبري»[2]، كما سيمر معنا في الكلام عن «تاريخ الطبري»، وسمّاه «الصلة».

١٥ ـ ومن أتباع الطبري، وليس من تلاميذه، أبو محمد عبد العزيز ابن محمد الطبريّ الذي صنف كتاباً عن الطبري، وذكر ياقوت الحموي عنه «أنَّه أفرد كتاباً في سيرة أبي جعفر، وأنه استمد معظم ترجمة الطبري من كتابه، ومن كتاب أبي بكر بن كامل في أخبار أبي جعفر»[3].

سابعاً: بعض أقوال الطبري في الفقه:

يظهر لنا مما سبق أن الإمام الطبري رحمه الله تعالى تفقّه على عدد من العلماء، ودرس فقه الشافعية والظاهرية والحنفية والمالكية، وتعمّق بالمذهب الشافعي، وصار أحد أصحاب الوجوه فيه، وأفتى به، وحكم في كثير من المسائل على رأي الشافعي، ثم ارتقى في العلم والاجتهاد حتى صار مجتهداً مستقلاً، وصاحب رأي، وله مذهب خاص، فإن وافق قوله المذهب الشافعي فذاك، وإلا كان مذهباً له، وهو ما صرح به الإمام الرافعي رحمه الله تعالى فيما سبق، وهو المنقِّح للمذهب الشافعي،

(١) معجم الأدباء ١٨/٩٢ ـ ٩٣.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٤/٢٧١، ١٦/١٣٢، تاريخ التراث العربي ١/٢/١٦٤، تاريخ الأدب العربي ٣/٤٧.
(٣) معجم الأدباء ١٨/٩٤، ونقل عنه ياقوت أيضاً عدة نصوص في ترجمة الطبري.

والمحقق لآرائه وأقواله، وكان الطبري يصرِّح باختياراته وترجيحاته وآرائه في معظم كتبه.

وصنَّف الإمام الطبري كتبه التي جمع فيها أقواله وآراءه، كما سنذكرها في المبحث التالي، ولكن لم يصل إلينا منها إلا القليل، ولم يَحصر آراءه الاجتهادية في كتبه الفقهية فحسب، بل كانت واضحة وصريحة في كتب علم الخلاف، وفي كتابه الكبير التفسير «جامع البيان» وفي كتبه في السُّنة النبوية، وخاصة «تهذيب الآثار»، وتظهر السِّمة الفقهية، والملكة الاجتهادية في جميع كتبه حتى في كتابه «تاريخ الأمم والملوك» في قسم السيرة النبوية.

وكان الطبري رحمه الله يبيِّن قوله بوضوح وصراحة، ويسير على منهج واضح، فمن ذلك عبارته في كتابه «اختلاف الفقهاء»: «أجمعت الحجَّة التي لا يجوز خلافها...، ثم اختلفوا في صفة القول... فقال مالك... وقال الشافعي... وقال أبو حنيفة وأصحابه... وعلة من قال بقول مالك... وعلة من قال بقول الشافعي...» ثم يقول: «**قال أبو جعفر**: والحق في ذلك عندي ـ وبالله التوفيق...»[(1)].

ونشير هنا إلى بعض أقواله التي انفرد بها[(2)]:

١ ـ لا يجوز الفرض ولا النفل في الكعبة.

٢ ـ من توضأ، ثم قُطع بعض أعضائه من محل الفرض، كما لو قُطعت يده، أو كُشِطت جلدة من وجهه أو يده، أنه يجب عليه طهارة ذلك العضو.

٣ ـ إذا ادعى المقضيّ عليه أن القاضي حكم عليه بشهادة فاسِقَيْن،

---

(١) اختلاف الفقهاء ص ٢٣ ـ ٢٦.

(٢) انظر جانباً أوسع من بعض فقه الطبري مما جمعه الأستاذ الدكتور محمد رواس قلعجي في بحثه «فقه الطبري».

يجب على شاهد الفرع تسميةُ شهود الأصل عند الجمهور، خلافاً لابن جرِير الطبري.

٤ - من أُحيل على مَلِيءٍ يجب عليه القبول، لظاهر قوله ﷺ: «مَنْ أُحيل على مَليء فليَتْبَعْ»(١).

٥ - يجوز للمرأة أن تتولى القضاء في جميع الأحكام، خلافاً للجمهور الذين منعوا المرأة من تولي القضاء نهائياً، وتوسَّط الإمام أبو حنيفة فقال يجوز أن تتولّى القضاء فيما يصح به شهادتها (في الأموال والأبدان والأحوال الشخصية وما لا يطّلع عليه الرجال غالباً) ولا يجوز أن تقضي فيما لا تصح به شهادتها عنده (الحدود والجنايات)(٢).

٦ - نقل النووي في «شرح صحيح مسلم» في باب الآداب عند الكلام في الحديث المشهور الصحيح «تسمَّوْا باسمي، ولا تكنَّوْا بكنيتي» أن مذهب ابن جرير أن الحديث ليس بمنسوخ، وإنما كان النهي للتنزيه والأدب، لا للتحريم(٣).

٧ - نُسِب إلى الطبري أنه كان يقول بجواز مسح القدمين في الوضوء، وأنه لا يجب غسلهما، أو أنه يجوز المسح والغسل لوجود قراءتين في الآية، واشتهر عنه هذا.

---

(١) هذا الحديث رواه أحمد وأصحاب الكتب الستة وابن أبي شيبة والطبراني في الأوسط عن أبي هريرة، وابن عمر، وأوّله «مَطْل الغني ظلم» (انظر: نيل الأوطار ٥/٢٦٦، سبل السلام ٣/٦١).

(٢) انظر كتابنا «أصول المحاكمات الشرعية والمدنية» ص ٤٨، وكتابنا: «التنظيم القضائي في الفقه الإسلامي» ص ٥٦.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/١١٢، والحديث رواه مسلم، وانظر: اختلاف الفقهاء ص ١٧، ١٨، أصول المحاكمات الشرعية، لنا ص ٥٠، طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٩، ١٢٠، تذكرة الحفاظ ٢/٧١٣، سير أعلام النبلاء ١٤/٢٧٨، الطبري للحوفي ص ٢٥٦.

ولكن العلماء ردُّوا ذلك، وبينوا أن من يزعم ذلـك هو ابن جرير الطبري، محمد بن جعفر بن رُسْتُم، وهو شيعي رافضي، وإليه ينسب هذا القول، لأن الشيعة تقول بالمسح على القدمين في الوضوء، لا بغسلهما، وينزِّه العلماء الإمام أبا جعفر الطبري من هذا القول، كما سبق في الفصل الأول.

قال ابن كثير: «والذي عوّل عليه في «التفسير» أنه يوجب غسل القدمين، ويوجب مع الغسل دلكَهما، ولكنه عبَّر عن الدلك بالمسـح، فلم يفهم كثير من الناس مـراده، ومن فهم مراده نقلوه عنـه أنه يـوجب الغسل، والمسح هو الدلك»(١).

وذكر الذهبي أن السليماني اتهم الطبري بالرفض، ثم ردَّ الذهبي عليه، فقال: «فلعل السليماني أراد الآتي محمد بن جرير بن رستم، أبو جعفر الطبري، رافضي، له تواليف، منها كتاب «الرواة عن أهل البيت» رماه بالرفض عبد العزيز الكتاني»(٢).

٨ ـ وأخيراً نذكر مثالاً على الاجتهاد المستقل للطبري بمثال فقهي من تفسيره، بعد أن ذكر آراء الأئمة والعلماء في دفع سهم من الزكاة إلى المُؤَلَّفَة قلوبُهم، وبيَّن حجج كل قول بالنسخ أو المنع أو غيره، ثم بيَّن رأيه مخالفاً قول الشافعية والحنفية والمالكية، فقال: «والمؤلَّفةُ قلوبُهم يُعطَوْن ذلك، وإن كانوا أغنياء استصلاحاً بإعطائهموه أمر الإسلام، وطلب تقويته وتأييده» ثم بيَّن دليله، وكيفية استدلاله منه، والرد على أدلة المخالفين، فقال: «وقد أعطى النبيُّ ﷺ من أعطى من المؤلَّفةِ قلوبُهم بعد أن فتح الله عليه الفتوح، وفشا الإسلام، وعزَّ

(١) البداية والنهاية ١١/١٤٧.

(٢) ميزان الاعتدال ٣/٤٩٩، وانظر: سير أعلام النبلاء ١٤/٢٧٧، ٢٨٢، الطبري للحوفي ص ٢٥٢ وما بعدها.

أهلُه، فلا حجة لمحتج بأن يقول: «لا يُتألَّف ـ اليوم ـ على الإسلام أحد، لامتناع أهله بكثرة العدد ممن أرادهم، وقد أعطى النبيّ ﷺ من أعطى منهم في الحال التي وَصَفْت»[1].

واشترط بعض الفقهاء في سهم المؤلفة قلوبهم في الزكاة أنْ يكونوا فقراء، ولكن ابن جرير الطبري ردَّ هذا الشرط وقال: «والصواب من القول عندي أن جعل الله الصدقة لمعنييْن: أحدُهما سدُّ خُلَّة المسلمين، والآخر: معونة الإسلام وتقويته، فما كان في معونة الإسلام وتقوية أسبابه فإنه يُعطى الغنيُّ والفقيرُ، لأنه لا يعطاهُ بالحاجة منه إليه، وإنما يعطاه معونة للدين، وذلك كما يُعطى الذي يعطاه بالجهاد في سبيل الله، فإنه يُعطى ذلك غنياً كان أو فقيراً للغزو، لا لسدّ خُلّته، وكذلك المؤلّفةُ قلوبهم يُعطون ذلك، وإن كانوا أغنياء»[2].

وأيّد ابنُ جرير الطبري رأيه بما رواه عن معقل بن عبدالله، قال: «سألت الزهري عن قوله «المؤلفة قلوبهم» فقال: من أسلم من يهودي أو نصراني، قلت: وإن كان غنيّاً؟ قال: وإنْ كان غنياً»[3].

وأرى أن رأي الطبري صوابٌ، وهو الموافق لرأي الجمهور، لأنه لو اشترط الفقر، لكان ذكر الأصناف في الآية لغْواً بعد ذكر الفقراء في أولها، والله أعلم.

(١) تفسير الطبري ١٠/١٦٣.
(٢) تفسير الطبري ١٠/١٦٣.
(٣) تفسير الطبري ١٠/١٦٢.

المبحث الرابع

كتب الطبري الفقهية

أولاً: نظرة عامة على كتب الطبري الفقهية:

صنف الإمام الطبري رحمه الله تعالى كتباً كثيرة في فنون عديدة، وكلُّها تدل على فضله، وغزارة علمه، ودقّته، وكان يُضرب به المثل في كثرة مصنفاته وسعتها، كما سبق، وكان واسع الباع، طويل النفس، سيّال القلم، وكأنه يغرف من بحر، وأوضح دليل على ذلك كتبه التي وصلتنا، وخاصة «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» في ثلاثين جزءاً، كما سبق، وكتاب «تاريخ الأمم والملوك» في عشرة أجزاء، والبقية الباقية من كتابه «تهذيب الآثار» في أربعة مجلدات، كما سيأتي.

واحتلّت كتب الطبري الفقهية مكان الصدارة كمّاً وكيفاً، وابتداءً بها وانتهاءً فيها، وسعةً وتنوعاً، واختصاراً وإسهاباً، مما أهّلته بأن يستحق بجدارة وعدالة أن يسمَّى فقيهاً، وإماماً، ومجتهداً مطلقاً ومستقلاً، وصاحب مذهب فقهي، ولكن معظم كتب ابن جرير الطبري ضاعت لسوء الحظ، وفُقدت مع ما فُقد من تراث الإسلام الزاخر، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أمرين:

الأول: انقراض أتباعه وتلامذته العاملين بمذهبه، والمتفقّهين عليه بعد سنة أربعمائة هجرية، مع انتشار بقية المذاهب، والعمل على خدمتها، ورعايتها، وكانت المذاهب فعلاً في القرن الخامس تشهد معركة صراع على البقاء والحياة والوجود والانتشار.

الثاني: أنه أصابها ما أصاب كثيراً من الحضارة الإسلامية، والتراث العظيم من نكبات وتدمير وحرق وخراب وحروب وفتن، وخاصة في بغداد، ويأتي في قمتها سقوط بغداد بيد التتار المغول، وحرق مكتباتها، وإلقائها في دجلة إبّان غزوهم الهمجي الرجعي المعادي للبشرية والإنسانية.

ولذلك لا نعرف من مذهب ابن جرير الطبري وأقواله وآرائه الفقهية إلا النزر اليسير الذي ذكره بنفسه في الجزء الباقي من كتابه «اختلاف الفقهاء»، أو بيّنه في تفسيره الكبير، أو عرضه في «تهذيب الآثار» أو حكاه عنه الفقهاء في الموسوعات الفقهية، وكتب الفقه المقارن، أو أثبته له أصحاب التراجم وكتب التاريخ التي وصلت إلينا.

ومن حسن الحظّ أن معظم المؤرخين وأصحاب التراجم ذكروا لنا مصنفات الإمام الطبري الفقهية، وتوسّع بعضهم في وصفها، وتحديد أبوابها وكتبها.

ونقتصر في هذا البحث على سرد كتب الطبري الفقهية، مع التعريف الموجز لها، وبيان ما تتضمنه من أبواب وموضوعات، ومجمل المحتويات، ويبقى لنا وطيد الأمل، والثقة الطيبة أن نعثر على بعض كتبه المفقودة في خزائن المكتبات الخاصة، ودور الكتب العامة، وغرف المخطوطات العالمية، في البلاد العربية والإسلامية، وفي مدن العالم أجمع، وهذه الكتب هي:

ثانياً: كتاب اختلاف الفقهاء:

وهو كتاب فريد في نوعه، والمشهور شرقاً وغرباً، واسمه الأصلي «اختلاف علماء الأمصار في أحكام شرائع الإسلام» ذكر فيه أقوال الفقهاء، وهم: مالك بن أنس فقيه أهل المدينة، وعبد الرحمن بن عمرو الأَوْزاعي فقيه أهل الشام، ومن أهل الكوفة سُفيان الثَّوْري، وأبو حنيفة النُّعْمان بن ثابت، وأبو يوسف يَعْقوب بن محمد الأنصاري، وأبو عبدالله محمد بن الحسن الشَّيْباني، ثم محمد بن إدريس الشَّافعي بما حدَّث به

الربيع بن سليمان عنه، ثم إبراهيم بن خالد أبو ثَوْر الكلبي، وذكر الطبري أقوال بعض فقهاء الصحابة والتابعين، وذكر بعض أهل النظر، وهو عبد الرحمن بن كيسان[1].

وهذا الكتاب أول مؤلفات الطبري، وذكر الهدف من ذلك «ليتذكر به أقوال من يناظره فهو عرض للآراء وليس دراسة لها، ثم انتشر الكتاب وطلب منه تلاميذه وأتباعه أن يقرأه عليهم، فقرأه على أصحابه، وعدّل فيه كثيراً، وأضاف إليه آراءه الخاصة التي وصل إليها، بدليل أنه أحال فيه على كتابه «اللطيف» وهو كتاب ألّفه بعد «اختلاف الفقهاء»، كما أضاف إليه تعليل الآراء والتعليق عليها، ويكثر من عبارته: «والصواب من القول عندنا» و «فأما على مذهبنا» أو «لصاحب الحق عندنا» و «والحق في ذلك عندي»[2]، وكان قد ذكر في الأول بعض أهل النظر، وهو عبد الرحمن بن كَيْسان، ولما فقَّه الطبري أصحابه بمذهبه، وأملى عليهم كتابه أسقطه بسهو من كتابه[3].

ويقع كتاب «اختلافِ الفقهاء» في نحو ثلاثة آلاف ورقة، حين كتبه الطبري، أي يساوي كتابه في التفسير الذي أملاه على طلابه في ثلاثة آلاف ورقة والذي طبع في ثلاثين جزءاً، بينما ذكر ياقوت أن كتابه في التاريخ يقع في نحو ألف ورقة[4]، الذي طبع في عشر مجلدات،

(١) وسماه ابن السبكي: «اختلاف العلماء» انظر: طبقات الفقهاء الكبرى ٣/١٢١، سير أعلام النبلاء ١٤/٢٧٣، تذكرة الحفاظ ١/٧١٢، الفهرست ص ٣٢٧، معجم الأدباء ١٨/٧١، الأعلام ٦/١٨٤، اختلاف الفقهاء ص ٦، كشف الظنون ١/٦٤.

(٢) انظر: اختلاف الفقهاء للطبري ص ٢٦، ٢٨، ٣٥، ٤١، ٤٥، ٥٣، ٩٥ وغيرها.

(٣) انظر: معجم الأدباء ١٨/٧١.

(٤) انظر: معجم الأدباء ١٨/٧١.

فهذا يدل على أن كتاب «اختلاف الفقهاء» يساوي ثلاثين جزءاً كالتفسير، وثلاثة أضعاف التاريخ، مما يعني أنه كان موسوعة في علم الخلاف والفقه المقارن، ويدل على سعة ثقافة الطبري التي جمعت التراث الفقهي منذ عصر الصحابة والتابعين إلى عصر الأئمة ونشأة المذاهب الفقهية، ولذلك كان الطبري يقول: «لي كتابان لا يستغني عنهما فقيه: الاختلاف واللطيف»(١)، وكان الطبري يلتزم بالأمانة العلمية وينسب الآراء لأصحابها صراحة.

ولم يصل إلينا من هذا الكتاب إلا جزءاً واحداً، ولا يزال المفقود منه حتى الآن أكثر من تسعين بالمائة، وقد طبع القسم الموجود باسم «اختلاف الفقهاء» وقام المستشرق الألماني فريدريك كِيرنْ بنشره بالقاهرة بمطبعة الموسوعات والترقي سنة ١٣٢٠ هـ/١٩٠٢ م، ويتضمن كتاب المدبَّر، وجزءاً من كتاب البيع، وجزءاً من كتاب الصرف، وكتاب السَّلَم، وجزءاً من كتاب المزارعة والمساقاة والغصْب والضمان، وملحقاً من ثلاث صفحات عن بعض قضايا النكاح(٢).

ثم قام المستشرق الألماني يوسف شاخت بتحقيق ونشر قطعة من الكتاب، وطبعه بليدن سنة ١٩٣٣ م، وتضمن أجزاء من كتاب الجهاد، وكتاب الجزية، وأحكام المحاربين(٣).

ويظهر الاختلاف في المنهج بين القسمين المنشورين، ففي الأول يكثر الطبري من تعليل الآراء والتعليق عليها، وبيان الراجح، وتحديد مذهبه، أما في الثاني فكان يعرض الآراء مع التعليل أحياناً، دون تعليق

---

(١) انظر: معجم الأدباء ١٨/٧٢.

(٢) يقع هذا الجزء في ٣١٩ صفحة بما فيه مقدمة التحقيق (١ ـ ٢٢)، ثم صوّرته حديثاً دار الكتب العلمية ببيروت، بدون تاريخ.

(٣) انظر: تاريخ التراث العربي ١/٢/١٦٧، الطبري للحوفي ص ٩٠، ٢٣٤، تاريخ الأدب العربي ٣/٤٩.

أو تعقيب أو ترجيح، ولعل تفسير ذلك أن القسم الثاني الذي نشره شاخت يمثل الكتاب الأصلي حين ألّفه الطبري لأول مرة، وفي باكورة إنتاجه، وأن القسم الذي نشره كيرنْ يمثل النسخة التي قرأها الطبري على أصحابه، وأضاف إليها آراءه وتعليلاته.

ثالثاً: كتاب لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام:

صنّف الطبري هذا الكتاب بعد كتابه «اختلاف الفقهاء»، وفي هذا الكتاب ذكر الطبريّ المسائل التي تفرّد بها، ودوّن مذهبه الذي اختاره في الفقه معلّلاً ومدلّلاً، وحفظ عنه، وهو أهم كتبه الفقهية، والمعوَّل عليه في المذهب الجَريري[1].

وأتمّ الطبري رحمه الله تعالى هـذا الكتاب، وضمّنـه ثلاثـة وثمانين كتـاباً، ويقـع في نحو ألفين وخمسمـائة ورقـة، فهـو قـريب من حجم التفسير، ويقرب من ثلاثة أضعاف كتابه في التاريخ.

وصف ياقوت الحموي هذا الكتاب وبيَّن محتوياته، فقال: «ومن جياد كتبه: كتابه المسمَّى بكتاب «لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام» وهو مجموع مذهبه الذي يُعوِّل عليه جميع أصحابه، وهو من أنفس كتبه، وكتب الفقهاء، وأفضل أمهات المذاهب وأسدِّها تصنيفاً، ومن قرأه وتدبَّره رأى ذلك إن شاء الله»[2].

وكان أبو بكر بن رَامِيك يقول: «ما عُمل كتاب في مذهب أجود من كتاب أبي جعفر «اللطيف» لمذهبه»[3].

---

(١) الفهرست ص ٣٢٧، سير أعلام النبلاء ١٤/٢٧٣، معجم الأدباء ١٨/٧٣، الطبري للحوفي ص ٩١، ٢٣٤، تاريخ الأدب العربي ٣/٥٠، تذكرة الحفاظ ١/٧١٢، طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢١، الفهرست ص ٣٢٧.

(٢) معجم الأدباء ١٨/٧٣.

(٣) انظر: معجم الأدباء ١٨/٧٣.

وقال ياقوت أيضاً: «وكان يعتذر في اختصاره كثيراً في أوله[1]، وكتبه تزيد على كتاب «الاختلاف» في القدر ثلاثة كتب: كتاب اللباس، كتاب أمهات الأولاد، كتاب الشرب، وهو من جيّد الكتب وأحسنها، وهو كالمنفرد فيه»[2].

ويقول ياقوت عن عنوان الكتاب: «ولا يظنُّ ظانٌّ أن قولَه: كتابُ اللطيف، إنَّما أراد به صغرَه وخِفةَ مَحْمَلِ وَزْنه، وإنما أراد بذلك لطيفَ القول كدقَّةِ معانيه، وكثـرةِ ما فيه من النظَر والتعليـلات، وهو يكون في نحو ألفين وخمسائة ورقة، وفيه كتاب جيد في الشُّروط يُسمّى بأمثلة العُدُول من اللطيف»[3].

وقدم الطبري في هذا الكتاب منهجه الاجتهادي، وقواعده في أصول الاجتهاد والفقه، وجعل عنوان المقدمة الرسالة، اقتداء برسالة الإمام الشافعي التي وضعها في مقدمة كتابه «الأم».

قال ياقوت: «ولهذا الكتاب رسالةٌ فيها الكلام في أصول الفقه، والكلام في الإجماع، وأخبار الآحاد والمراسيل، والنَّاسخ والمنسوخ في الأحكام، والمُجْمَل والمفَسَّرِ من الأخبار والأوامر والنواهي، والكلام في أفعـال الـرسـل، والخصـوص والعمـوم، والاجتهـاد، وفي إبـطال الاستحسان، إلى غير ذلك مما تكلم فيه»[4]، وهذه موضوعات علم أصول الفقه.

رابعاً: كتاب الخفيف في أحكام شرائع الإسلام:

وهو مختصر اختصره الطبري نفسه من كتابه «اللطيف» ليسهل تناولـه

---

(١) ثم اختصر الطبري نفسه هذا الكتاب في كتاب سماه «الخفيف» كما سيأتي.
(٢) معجم الأدباء ١٨/٧٣.
(٣) معجم الأدباء ١٨/٧٤.
(٤) معجم الأدباء ١٨/٧٤

لمن قصرت همته عن المطولات، ولمن أحب من الكلام أخْصَره، وهذه طريقة الفقهاء والعلماء غالباً بتصنيف كتب الفقه على عدة مستويات، ليكون المختصر أسهل تناولاً، ويتناسب مع الطلبة المبتدئين، وغير المختصين، ويكون المبسوط والمطول أكثر عمقاً، وأوسع أدلة ومناقشة، لينهل منه المتقدمون في العلم والمتخصصون في الفقه.

وسبب تأليف الطبري لهذا الكتاب أنَّ الوزير أبا أحمد العَبَّاس ابن الحسن العزيزي أراد النَّظر في شيء من الأحكام في زمن الخليفة المكتفي، والتمس كتاباً في الفقه، فراسل الإمام أبا جعفر الطبري في اختصار كتاب له، فعمل له كتاب «الخفيف» ليقرب متناوله.

قال ياقوت الحموي: «وهو نحو من الأربعمائة ورقة، وهو كتاب قريب على الناظر، فيه كثيرُ المسائل، يصلح لتذكر العالم والمبتدىء المتعلم»[(١)]، أي فهو في حجم ثلث كتاب التاريخ.

قال أبو محمد الفَرْغانـي صاحب ابن جرير: «أرسل العباس ابن الحسن الوزير إلى ابن جرير قال: قد أحببت أن أنظر في الفقه، وسأله أن يعمل له مختصراً، فعمل له كتاب «الخفيف»، وأنفذه، فوجّه إليه ألف دينار فلم يقبلها، فقيل له: تصدق بها، فلم يفعل»[(٢)].

خامساً: كتاب بسيط القول في أحكام شرائع الإسلام:

وهو من أهم كتب الطبري التي صنفها في أخريات حياته، وبدأه بتاريخ الفقه الإسلامي وتطوّره في المدينة، وتدرّج مراحله في عهد

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٧٤.

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢١، ١٢٤، سير أعلام النبلاء ١٤/١٧٠، ٢٧٣، الفهرست ص ٣٢٧، تذكرة الحفاظ ٢/٧١١، ٧١٢، طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢١، الطبري للحوفي ص ٩٢.

الصحابة ثم في عهد التابعين، وفي مكة والكوفة والبصرة والشام، ثم شـرع بذكر الأحكام الشرعية، والفروع الفقهية، وأقوال العلماء، وذكر اختلاف الفقهاء واتفاقهم فيما تكلموا فيه على وجه الاستقصاء والتبيين، فيذكر الرأي، ويبين دليله، ثم يشرح وجه الاستدلال، ثم يتبع ذلك بالترجيح وبيان الصواب عنده، وخرج من الكتاب نحو ألفي ورقة، وهذا يساوي ضعفي كتابه التاريخ الذي طبع في عشر مجلدات، مما يدل على التوسع في عرض الأحكام والأدلة، والأقوال والمذاهب والآراء، بحيث يعدُّ موسوعة فقهية بكل ما في هذه الكلمة من معنى.

وخرج منه كتاب الطهارة، فجاء في نحو ألف وخمسمائة وَرَقة، لأنَّه ذكر في كل باب منه أقوال الصحابة، والتابعين، واختلاف العلماء، وحجة كل قول، وخرج منه أيضاً أكثر كتاب الصلاة، وكتاب الزكاة، وآداب الحكام، والمحاضر والسجلات(١).

وكان الطبري يجتهد بأصحابه بأن يأخذوا البسيط والتهذيب ويجدُّوا في قراءتهمـا، ويشتغلوا بهما دون غيرهما من الكتب(٢).

ووصف ياقوت هذا الكتاب فقال: «ومن كتبه الفاضلة: كتابه المسمى بكتاب بسيط القول في أحكام شرائع الإسلام، وهذا الكتاب قدّم له كتاباً سماه «مراتب العلماء» حسناً في معناه، ذكر فيه خطبة الكتاب، وحضّ فيه على طلب العلم والتفقه، وغمز فيه (أي أشار فيه) على من اقتصر من أصحابه على نقله دون التفقه بما فيه، ثم ذكر فيه العلماء ممن تفقَّه على مذهبه (أي من أصحابه) من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن أخذ

---

(١) انظر: الفهرست ص٣٢٧، تـذكرة الحفـاظ ٢/٧١٣، سير أعـلام النبلاء ١٤/٢٧٣، طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٢، تاريخ الأدب العربي ٣/٥٠، معجم الأدباء ١٨/٧٥ وما بعدها، الطبري للحوفي ص٩٣، تذكرة الحفاظ ١/٧١٣.

(٢) انظر: معجم الأدباء ١٨/٧٦.

عنهم، ثم من أخذ عنهم، ثم أخذ عمن أخذ عنهم من فقهاء الأمصار، بدأ بالمدينة لأنها مهاجَرُ النبي ﷺ ومن خَلَفه أبو بكر وعمر وعثمان ومن بعدهم، ثم بمكة لأنها الحرم الشريف ثم العراقيْن: الكوفة والبصرة، ثم الشَّام وخراسان، ثم خرج إلى كتاب الصلاة بعد ذكر الطهارة، وذكر في هذا الكتاب اختلاف المختلفين واتفاقهم فيما تكلموا فيه على الاستقصاء والتَّبْيين في ذلك، والدلالة لكل قائل منهم، والصواب من القول في ذلك، وخرَّج منه نحو ألفي ورقة»[1].

سادساً: آداب القضاة:

وهو كتاب في الفقه، ويتناول الأحكام الشرعية التي تتعلق بنظام القضاء في الفقه الإسلامي وتنظيمه وإدارته، وبيان فضله، وحقوق القضاة وواجباتهم، وأصول المحاكمات، وطريقة الفصل في الدعاوى والمنازعات، وإصدار الأحكام القضائية وتنفيذها[2].

ويشير ياقوت إلى هذا الكتاب، وكأنه أحد كتب «البسيط» ويصفه فيقول: «وأخرج من هذا الكتاب كتابَ «آداب القضاة»، وهو أحد الكتب المعدودة له، المشهورة بالتجويد والتفضيل، لأنه ذكر فيه بعد خطبة الكتاب الكلام في مدح القضاة وكتَّابهم، وما ينبغي للقاضي إذا وُلِّي أن يعمل به، وتسليمه له، ونظره فيه، ثم ما ينقض فيه أحكامَ من تقدَّمه، والكلام في السِّجلات والشَّهاداتِ والدعاوى والبينات... إلى أن فرغ منه، وهو في ألف ورقة»[3].

وهذا الكتاب عن أدب القضاء الذي يقع في ألف ورقة، ويساوي كتاب الطبري في التاريخ الذي طبع في عشر مجلدات، يعتبر أكبر كتاب

(١) معجم الأدباء ١٨/٧٥-٧٦.
(٢) معجم الأدباء ١٨/٧٦، الطبري للحوفي ص ٩٣، الطبري للمصلح ص ٣٩.
(٣) معجم الأدباء ١٨/٧٦.

في آداب القضاء انتهى علمنا إليه، ولو وصل إلينا لأغنى المكتبة الإسلامية، والتراث الفقهي، والفكر القانوني.

سابعاً: كتاب الردّ على ذي الأسفار:

وهو كتاب في علم الخلاف للرد على داود بن علي الأصفهاني، مؤسس المذهب الظاهري، بعد أن دار نقاش وجدال ومناظرة بينه وبين الطبري، وانتصر فيها الطبري في أقواله وأدلته، فشتمه أحد أتباع داود فقام من المجلس، وعمل هذا الكتاب، وقطع داود كلام ذلك الإنسان الذي كلَّم أبا جعفر سنة مجازاةً له على ما جرى منه على أبي جعفر[١].

قال ياقوت: «ومنها كتابه المسمى بكتاب «الردّ على ذي الأسفار»، يردُّ فيه على داود بن عليّ الأَصْبَهاني، وكان سبب تصنيف هذا الكتاب أن أبا جعفر كان قد لزم داود بن علي مدّة، وكتب من كتبه كثيراً. . .، وجرت مسألة بين داود بن علي وبين أبي جعفر، فوقف الكلامُ على داود ابن علي، فشقَّ ذلك على أصحابه، وكلم رجل من أصحاب داود بن علي أبا جعفر بكلمة مَضَّةٍ (أي مَمِضَّة مُوجعة) فقام من المجلس، وعمل هذا الكتاب، وأخرج منه شيئاً بعد شيء إلى أن أخرج منه قطعة نحوَ مائة ورقة، وكان ابتدأ الكلام فيه بخطبة من غير إملاءٍ، وهو من جيدِ ما عمله أبو جعفر، ومن أحسنه كلاماً فيه، حملاً على اللفظ عليه، ثم قطع ذلك بعد ما مات داود بن عليّ، فلم يحصل في أيدي أصحابه من ذلك إلا ما كتبه منه مُقَدَّمُو أصحابه، ولم يُنقَل»[٢].

ثامناً: كتاب الرد على ابن عبد الحكم على مالك:

ولم يقع هذا الكتاب إلى أصحاب الطبريِّ[٣].

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٧٨، الطبري للحوفي ص ٩٤، الطبري للمصلح ص ٣٩.
(٢) معجم الأدباء ١٨/٧٨، ٧٩.
(٣)معجم الأدباء ١٨/٨١.

ويعتبر هذا الكتاب، والكتاب الذي قبله، وكتاب اختلاف الفقهاء من أهم كتب علم الخلاف، لأن الطبريَّ عرض فيها أقوال الأئمة والفقهاء عرضاً رصيناً، وبخاصة في فقه مالك وأبي حنيفة والشافعي، وفقهاء الصحابة والتابعين، ولم يذكر فيها مذهب الإمام أحمد، ثم ذكره في غيرها.

وتُعتبر هذه الكتب من أوائل الكتب في علم الخلاف، وهو العلم الذي احتل مكاناً سامياً في تاريخ الفكر الإسلامي عامة، وتاريخ التشريع الإسلامي، والفقه المذهبي خاصة، منذ القرن الثاني الهجري حتى القرن السابع، ثم انقرض، وظهر مثيله في العصر الحاضر باسم الفقه المقارن.

واهتم الفقهاء بعلم الخلاف، وصنَّفوا فيه كتباً عديدة، وجمعوا فيها أقوال الصحابة والتابعين والفقهاء والأئمة والأصحاب في المذاهب والفروع، وحفظوا لنا أقوال أئمة المذاهب المنقرضة، وآراء المصنفين البائدة.

وظهر هذا العلم على يد الإمام الشَّافعي (٢٠٤ هـ) رحمه الله تعالى في كتبه التي صنفها، وأملاها على تلاميذه، وجمعها البُوَيْطي والرَّبيع المُرَادي، وضُمّت إلى كتاب الشافعي نفسه «الأم»، وهي «اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلى» و«اختلاف أبي حنيفة والأَوْزاعي» ويسمَّى «سِيَر الأَوْزَاعي» و«اختلاف الشَّافعي مع محمد بن الحسن الشَّيْباني» ويسمّى كتاب «الدِّيات» و«اختلاف الشافعي ومالك».

ثم صنف الإمام الطبري كتابه «اختلاف الفقهاء» وهو من أول كتبه التي صنفها، وصنف أيضاً في هذا العلم «الرد على ذي الأسفار» و«الرد على ابن عبد الحكم على مالك» ثم صنف أبو جعفر الطحاوي الحنفي (٣٢١ هـ) كتابه «اختلاف الفقهاء»، وجاء الفقيه الشافعي المجتهد

الحافظ أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر (٣١٠ هـ أو ٣١٩ هـ/ ٩٣١ م) وألف كتباً في هذا الخصوص لم يُصنَّف مثلها، وهي «الأوسط في السُّنن والإجماع والاختلاف» و«الإشْراف على مذاهب أهل العلم» و«اختلاف العلماء»، ثم جاء القُدُوري الحنفي (٤٢٨ هـ) فصنَّف كتابه «التجريد» ثم تألّق علم الخلاف، واستوى على سوقه، واستقّل بذاته على يد الفقيه الحنفي الدُّبوسي (٤٣٠ هـ) في كتابه «تأسيس النظر» فكان الدَّبوسي أول من وضع علم الخلاف على أصوله وقواعده، وأبرزه للوجود كعلم مستقل، وكان الدَّبوسي يضرب به المثل في النظر واستخراج المسائل والرأي والحجاج، وصنف أيضاً كتاب «التَعْليقة» في الخلاف، ثم تتابع التصنيف في علم الخلاف، حتى انقرض في القرن الثامن[1].

تاسعاً: كتاب مناسك الحج:

أو مختصر مناسك الحج، أو آداب المناسك، وهو في أحكام الحج، ويجمع الأحكام الفقهية، والآداب الشرعية التي يحتاجها الحاج إلى بيت الله الحرام[2].

ووصف ابن عساكر هذا الكتاب فقال: «هو لما يحتاج إليه الحاج من يوم خروجه، وما يحتاج إليه من الإتمام لابتداء سفره، وما يدعو إليه ربَّه عند رُكُوبه ونُزُوله ومعاينته المَنازِل والمشاهد، إلى انقضاء حجّه»[3].

(١) انظر: مفتاح السعادة ١/٣٠٦، كشف الظنون ١/٦٤، ٤٧٣، تعريف عام في العلوم الشرعية ص ٢١٩ ـ ٢٢٤.
(٢) انظر: معجم الأدباء ١٨/٨١، سير أعلام النبلاء ١٤/٢٧٤، الطبري للحوفي ص ٩٧.
(٣) تاريخ ابن عساكر، مخطوط ١٨/٣٥٢ عن مقدمة تاريخ الطبري ١/١٥ طبعة دار المعارف.

عاشراً: كتاب الفرائض، أو كتاب مختصر الفرائض:

ويتضمن الأحكام الفقهية والنصوص الشرعية في علم المواريث، وتوزيع التركة، وأصحاب الفروض والعصبات(١).

حادي عشر: كتاب الوقف:

صنفه الطبري للخليفة المكتفي، وذكر فيه ما اجتمعت فيه أقوال العلماء من الخلاف والوفاق في الوقف وشروطه وأحكامه(٢)، وسبقت الإشارة إليه.

ثاني عشر: كتاب الشروط:

ويتضمن علم الشروط كفرع من فروع علم الفقه، ويبحث عن إنشاء الكلمات المتعلِّقة بالأحكام الشرعية(٣)، لتكون العقود والتصرفات متَّفِقة مع أحكام الشرع، ويتجنب فيه الأشخاص مواطِنَ الفساد والبطلان، لإمكان الاحتجاج بها والرجوع إليها.

وكان الطبري رحمه الله تعالى مقدَّماً في علم الشروط، قَيِّماً به، وصنف كتاب «الشروط» المسمى «أمثلة العُدُول»، قال ياقوت: «وهو من جيّد كتبه التي يُعَوِّل عليها أهل مدينة السَّلام»(٤) بغداد، ولعل هذا الكتاب أحد كتب «البسيط»(٥).

ثالث عشر:

ويضاف إلى كتب الإمام أبي جعفر الطبري الفقهية السابقة ما بثّه الطبري في بقية كتبه التي صَبَغها بالجانب الفقهي الذي يعيش فيه طوال

---

(١) معجم الأدباء ١٨/ ٨١، الطبري للحوفي ص ٩٧.
(٢) انظر تذكرة الحفاظ ١/ ٧١١.
(٣) انظر: مفتاح السعادة ١/ ٢٧٢، ٢/ ٦٠٠.
(٤) معجم الأدباء ١٨/ ٧٣.
(٥) الفهرست ص ٣٢٧.

حياته، فضمّن سائر كتبه الأحكام الفقهية، والاجتهادات الشخصية، وذكر فيها آراء العلماء، وأقوال المذاهب وأدلتهم وحججهم، وهذا ظاهر في كتابه التفسير، وتهذيب الآثار، والتاريخ في قسم السيرة النبوية، وصريح السنة، وكتبه الأصولية السابقة، وكتب فضائل أبي بكر وعمر وعلي والعباس رضي الله عنهم.

وبعد:

فيظهر من هذا العرض السابق لكتب الطبري الفقهية المكانة الفقهية السامية التي يتمتع بها الطبري، وأنها أهم جانب في حياته وكتبه ومؤلفاته، وأن شخصية الطبري الفقهية تحتل الدرجة الأولى في حياته وبعد وفاته، ولكن ضَياع معظم هذه الكتب، وانقراض أتباعه ومذهبه أدّت إلى تواري شخصيته الفقهية، وبروز شخصيته في التفسير والتاريخ، لبقاء كتابيه فيهما، مع أن كتبه الفقهية لا تقلُّ قيمة عنهما، ولا تنقص ذرة عن مستوى التفسير والتاريخ، بل هي أوسع منهما بكثير، وأسبق في الوجود والتأليف، وأعمق في الدراسة والتحليل، وأدق في الاجتهاد والتعليل، وأكثر وضوحاً في استقلال شخصية الطبري وتميُّزه بين العلماء والفقهاء في عصره، وهذا يقدِّم الدليل الكافي، والبرهان القاطع، والحجة الساطعة على اعتبار الطبري ـ بحقّ وجَدارة ـ فقيهاً لامعاً، ومجتهداً مستقلاً، وإماماً مستقلاً، وصاحب مذهب خاص، له أتباعه وتلاميذه الذين حملوا علمه وفقهه، وعملوا به، ونشروه، وتناقلوه ردحاً من الزمن.

كما يظهر لنا التنوع الواضح في كتب الطبري الفقهية، وأنها تغطي مختلف جوانب الفقه، من تاريخ التشريع، إلى الفقه العام، والفقه على المذهب الجريري، والفقه المقارن وعلم الخلاف وعلم الشروط، وآداب القضاء، والمناسك والوقف.

الفصل الرابع

الطَّبَرِيُّ مُؤَرِّخًا

يُعتبر الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ أبا التاريخ، ويسمَّى بشيخ المؤرخين، وهو عمدة المؤرخين عند العرب والمسلمين، وهو أول مؤرخ وصل إلينا كتابه العام والكامل في التاريخ، ويعتمد عليه كلُّ من كتب في التاريخ على الإطلاق، وكان ثقة في نقله، وتاريخه أصح التواريخ وأثبتها[1].

لذلك نعرض في هذا الفصل سيرة الطبري المؤرِّخ، ونقـدِّم لذلك بفكرة مختصرة عن علم التاريخ، ودراسة الطبري له، ثم نبين مؤلفاته التاريخية، ونخصص الكلام عن كتابه العظيم القيِّم «تاريخ الأمم والملوك»، ثم نذكر منهج الطبري فيه، وما ورد عليه من ملاحظات، ومقارنته بغيره، وذلك في ثلاثة مباحث.

---

(١) مفتاح السعادة ١/٢٥٣، وفيات الأعيان ٣/٣٣٢.

المبحث الأول

علم التاريخ والطبري

أولاً: تعريف علم التاريخ:

التاريخ في اللغة تعريف الوقت، يقال: أرّختُ الكتاب تاريخاً إذا جعلت له تاريخاً، وهو بيان انتهاء وقته، وقيل: وهو معرّب، وقيل: عربي(١).

والتاريخ في العرف هو تعيين الوقت بإسناده إلى أول حدوث أمر شائع من ظهور ملة أو دولةٍ أو أمرٍ هائل، أو من الآثار العلوية والحوادث السُّفلية مما يندر وقوعه، ويُجعل ذلك مبدأ لمعرفة ما بينه وبين أوقات الحوادث والأمور التي يجب ضبط أوقاتها في مستأنف السنين، وقيل عدد الأيام والليالي بالنظر إلى ما مضى من السنة والشهر(٢).

وأول من وضع التاريخ الإسلامي الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما أُتي بصكٍّ مكتوب إلى شَعْبان، فقال: أهـو شعبانُ الماضي أو شعبان القابل؟ ثم أمر بوضع التاريخ، واتفقت الصحابة على ابتداء التاريخ من هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وجعلوا أول السنة المحرّم(٣).

---

(١) القاموس المحيط ١/٢٥٦، المصباح المنير ١/١٥، مختار الصحاح ص ١٣.

(٢) كشف الظنون ١/٢١٣، كشاف اصطلاحات الفنون ١/٥٦، أبجد العلوم ٢/١/١٨١.

(٣) المصباح المنير ١/١٥ ـ ١٦، المختصر في علم التاريخ ص ٣٣٠ المطبوع ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين.

أما علم التاريخ فقد عرَّفه وبيَّنه طاش كبري زادة بقوله: «هو معرفة أحوال الطوائف، وبلدانهم، ورسومهم، وعاداتهم، وصنائع أشخاصهم وأنسابهم، ووفياتهم... إلى غير ذلك، وموضوعه: أحوال الأشخاص الماضية، من الأنْبياء والأوْلياء، والعلماء والحُكَماء، والشُّعراء، والملوك والسلاطين... وغيرهم، والغرض منه: الوقوف على الأحوال الماضية، وفائدته: العبرة بتلك الأحوال، والتنصُّح بها، وحصولُ ملكة التجارب بالوقوف على تقلّبات الزمن، ليُحترز عن أمثال ما نقل من المضارّ، ويُستجلب نظائرها من المنافع، وهذا العلم كما قيل: عمر آخر للناظرين، والانتفاعُ في مِصْره بمنافعَ تَحْصُل للمسافرين»[1]، وينحصر حديثنا في علم التاريخ.

ثانياً: أهمية علم التاريخ ومشروعيته:

يمثل التاريخ أحد مصادر المعرفة الإنسانية التي اهتم بها الناس، فتدارسوه، وألّفوا مجالسه، واستمعوا أخباره، وصنّفوا فيه، لأنه يفيد تسليةً ولَذَّة، ويعطي المتعةَ الكافية، ويُرضي غريزة حب الاستطلاع، ويبعث على العبرة والتفكّر في الأحداث، فالعاقل من اتعظ بغيره، والمحنَّك من تخطّى تجارب غيره، فالتاريخ يعطي القارىء والسامع نماذج من السلوك البشري بما فيه من غرائز، وعواطف، وميول، وسلوك، وطموحات، وآمال وآلام، فرداً وجماعة، مع بيان النتائج التي تترتب على كل تصرف، سواء كان صواباً أم خطأً، عاماً أم خاصاً، مادياً أم معنوياً، فردياً أم اجتماعياً، وهذا يثير الهمم للنهوض، أو التأسّي بالسّلف، أو الاقتداء بالأمم الحية، أو التحرز والتحفظ من المسالك الوعرة، والمنزلقات الخطرة التي لا تُحمد عقباها.

---

(١) مفتاح السعادة ١/٢٥١، وانظر: أبجد العلوم ٢/١/١٨١، المختصر في علم التاريخ ص ٣٢٥، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ص ٣٨٢ وما بعدها.

وقد اهتم العرب بعلم التاريخ، بسبب اهتمامهم بالانتساب إلى الآباء والأجداد، والعشيرة والقبيلة، فحفظوا أنسابهم، وتفاخروا بها حتى وصلوا إلى التعصب والعصبية، فكانوا يهتمون أصلاً بتاريخهم، وتاريخ الأمم قبلهم، ومن حولهم.

وجاء القرآن الكريم يذكر أخبار الأمم السابقة، وقصص النبيين والمرسلين، ولكنه باختصار شديد، مركِّزاً على موطن العبرة والعظة، ومكان الإثارة والاستفادة، مع النص القرآني المتكرِّر على هذا الهدف، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ القُرى نَقُصُّ عَلَيْك مِنْ أنْبَائها، ولقد جَاءَتْهم رسُلُهم بالبَيِّنات، فما كانُوا ليُؤْمِنوا بما كَذَّبُوا من قَبْلُ، كذلك يَطْبَعُ اللهُ على قلوبِ الكافرين﴾ [الأعراف/١٠١]، وقال تعالى: ﴿وكُلًّا نقصُّ عليكَ من أنباء الرُّسُل ما نثبِّتُ به فؤادَك، وجاءَكَ في هذه الحقُّ ومَوْعِظَةٌ وذِكْرى للمُؤْمنين﴾ [هود/١٢٠]، وخاطب الله رسوله، آمراً له بقصّ الأخبار الهادفة، فقال تعالى: ﴿فاقْصُصِ القَصَصَ لعلَّهم يتفكَّرُون﴾ [الأعراف/١٧٦]، وخصّص الله تعالى سورة في القرآن الكريم باسم «سورة القصص».

ومن هنا اتجه كثير من العلماء المسلمين إلى جمع الأخبار، ومعرفة الأماكن والأحوال التي أشارت إليها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، واشتاقت نفوسهم إلى التوسع في فهم القصص المذكورة في القرآن، وفي ذات الوقت اعتنَوْا عناية شديدة بسيرة رسول الله ﷺ، وما يتبعها من المغازي، وكانت هذه المعلومات تصبُّ في مِحْوَرَيْن، الأول: محور الأخبار والقصص التاريخية، وكان صاحبها يسمى أخبارياً، وتتّسم أكثر قصصه بالأوهام والخرافات والأساطير القديمة، والمحور الثاني: علم الحديث والمصطلح، وكان علماء الحديث يذكرون أخبار السيرة النبوية وآثار الصحابة والخلفاء الراشدين مع الحديث برواياته وأخباره وإسناده،

ولما دُوِّنت كتب السنة النبوية خُصِّص باب مستقل بعنوان المغازي والسِّير، إلى أن استقل علم السيرة النبوية، وخُصِّصت له المصنفات والكتب[1].

ثالثاً: تدوين علم التاريخ:

يذكر مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي أنَّ تدوين العلوم، وتحديد ذاتيتها، وظهور كيانها كان في منتصف القرن الهجري الثاني، فيقول «في سنة ثلاث وأربعين (ومائة) شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير. . .، وكثر تدوين العلم وتبويبه، ودُوِّنت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس، وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم، أو يَرْوُون العلم من صحف صحيحة غير مرتَّبة»[2].

وهكذا نشأ علم التاريخ، واستقل عن علم الحديث، ولم يعد المؤرخ يسمى أخبارياً، واقتصر مدلول الأخباري على راوي القصص والنوادر والحكايات، وأقبل العلماء والفقهاء على دراسة التاريخ والتأليف فيه، وصار لهم مكانة عالية بين النَّاس، واعتنى الخلفاء بسماع تواريخ الملوك في الأمم الأخرى لتكون لهم عِظة، ويستفيدوا من تجاربهم، ورأَوْا أن قراءة التاريخ تفيد الفطنة والحنْكَة[3]، ولذلك قال الجاحظ:

---

(١) ظهر الإسلام ٢/٢٠١، ٢٠٢، التاريخ العربي والمؤرخون ص٥٧، علم التاريخ عند المسلمين، مقدمة المترجم الدكتور صالح أحمد العلي ص/أ، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٣/٧، ضحى الإسلام ٢/٣١٩، مقدمة ابن خلدون ص٣، ٩، الإعلان ص٣٨٥، ٤٠٦، ٤١٢.

(٢) انظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٢٦١، النجوم الزاهرة ١/٣٥١، تذكرة الحفاظ ١/١٦٠.

(٣) ظهر الإسلام ٢/٢٠١، ضحى الإسلام ٢/٣١٩، الطبري للحوفي ص١٨٣، تاريخ الطبري ١/٥ ط دار المعارف.

«علم النسب والخَبر علم الملوك»[1].

وفي القرن الثالث الهجري استوى علم التاريخ على سوقه، وتوطَّدت دعائمه، وظهرت فيه المؤلفات والكتب التي تجمع المواضيع المتعاقبة، إما على أساس السنين، وإما على أساس الطبقات، وإما على تاريخ المدائن، وأصبح لعلم التاريخ منهج مرسوم، وصار له روَّاده وأعلامه، ويقصده طلاب العلم لذاته، وتُرجمت تواريخ الأمم الأخرى إلى العربية، وأصبحت مائدة التاريخ حافلة وشهية ونافعة، منها «الطبقات الكبرى» لابن سَعد (٢٣٠ هـ) وكتاب «أخبار أو تاريخ مكة المشرفة» لأبي الوليد الأَزْرقي الحفيد (٢٤٤ هـ)، وكتاب «تاريخ اليعقوبي» (٢٧٨ هـ أو ٢٨٤ هـ)، وكتاب «الأخبار الطوال» لأبي حنيفة الدِّيْنَوَري (٢٩١ هـ)[2].

رابعاً: الطَّبريّ يدرس التاريخ

رأينا سابقاً أن الطبري جمع من علوم الإسلام ما لم يجتمع لأحد، وكان له حافظة نادرة، وذكاءٌ حادٌ، وأنه من كبار علماء الحديث الذين ينقلون الأحاديث والأخبار والأسانيد، ويجمعون الروايات المتعدّدة في الموضوع الواحد، مما كان له صلة بكتب الروايات والتاريخ للأمم الأخرى، واستفاد منها في تفسيره للقرآن الكريم، وأورد جانباً منها في كتابه الذي أملاه في ثماني سنوات (٢٨٣ هـ - ٢٩٠ هـ)، ولما فرغ منه اتجه إلى تصنيف كتابه الثاني في التاريخ حتى انتهى منه يوم الأربعاء

---

(١) تاريخ الأدب العربي ٣/٧.

(٢) انظر: ظهر الإسلام ٢/٢٠٢، تاريخ الأدب العربي ٣/٧ وما بعدها، الطبري للحوفي ص ١٨٢، وانظر: أصول علم التاريخ في كتاب «المختصر في علم التاريخ» للكافيجي، ص ٣٣٧ وما بعدها.

٢٧ ربيع الآخر عام (٣٠٣ هـ) وأرّخ حتى سنة ٣٠٢ هـ الموافق ٩١٥ م[١].

وكان الطبري رحمه الله تعالى قد اطّلع على جميع كتب التاريخ وأجزائه وصُحُفه في القرن الثالث الهجري، كما درس بتوسع كتب السيرة النبوية وما صُنِّف فيها، وأخذ علم التاريخ عن المختصِّين به، وهم شيوخ الطبري في ذلك، وعنهم أخذ مصادره والموادّ الأولية لكتابه.

ولما أراد الطبري أن يبدأ في كتابة التاريخ قال لتلاميذه: «تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ فقالوا: كم قدره؟ فذكر نحو ما ذكره في التفسير (أي ثلاثون ألف ورقة)، فأجابوا: هذا ما يُفْني الأعمار قبل تمامه، فقال الطبري: إنا لله، ماتت الهمم، فاختصره في نحو مما اختصر به التفسير» (أي في نحو ثلاثة آلاف ورقة)[٢].

---

(١) انظر: معجم الأدباء ١٨/٤٤، الفهرست ص ٣٢٧.

(٢) تذكرة الحفاظ ٢/٧١٢، تاريخ بغداد ٢/١٦٣، معجم الأدباء ١٨/ ٤٢، سير أعلام النبلاء ١٤/٢٧٥، ظهر الإسلام ٢/٢٠٤، وفي قول آخر اختصره إلى ألف ورقة، وفي قول ثالث أنه خمسة آلاف ورقة، ويمكن الجمع بين هذه الأقوال بسهولة، وذلك بحسب النسخ التي كتبت، وحجم الورق الذي استخدم في كل نسخة.

المبحث الثاني

كُتُبُ الطَّبَرِيِّ في التَّارِيخ

إن الألقاب الرفيعة التي أُعْطِيت للطبري المؤرخ لم تكن عَبَثاً، فقد صنَّف أعظم كتب التاريخ على الإطلاق، وقدّم للبشرية إنتاجاً ثَرّاً، وكتباً قيمة، ومصنفات جليلة، ومجلدات كبيرة، مع ما بثَّه من أخبار تاريخية في سائر كتبه الأخرى.

أما الكتب التاريخية فهي اثنان، **الأول**: «تاريخ الأمم والملوك»، **الثاني**: والثاني: «ذَيْل المذيَّل»، ونبدأ بتعريف الثاني لصغره، ثم نعود للكتاب الأول لأهميته.

أولاً: ذَيْل المُذَيَّل للطَّبَرِيّ:

وهو كتاب في تاريخ الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى عصر الطبري، ويشتمل على تاريخ من قُتل أو مات من أصحاب رسول الله ﷺ في حياته، وتاريخ من عاشوا بعد من أصحابه ورَوَوْا عنه على ترتيب الأقرب فالأقرب من رسول الله ﷺ، أو من قريش من القبائل، ثم ذكر الطبريّ تاريخ التابعين وتابعي التابعين من السَّلَف، ومن بَعدهم إلى أن بلغ شيوخَه الذين سمع منهم.

وذكر الطبري أخبار هؤلاء، ومذاهبهم، وبيان الضعفاء من المحدِّثين، والدفاع عن ذوي الفضل منهم، ممن رُمي بمذهب هو بريء منه، أو اتُّهم برأي لم يقله، مثل الحَسَن البصْري وقَتَادة وعِكْرِمة وغيرهم.

وذكر تاريخ النساء الصحابيات اللائي أسلَمْنَ على عهد رسول الله ﷺ، ومن مات منهنّ قبل الهجرة، ومن مِتْنَ بعدَها.

وفي آخر الكتاب أبواب حسان عمن حدَّث عنه الإخوة، أو الرجل وولده، ومن اشتهر بكنيته دون اسمه، أو باسمه دون كنيته[١].

قال عنه ياقوت: «وهو من محاسن الكتب وأفاضلها، يرغبُ فيه طلاب الحديث وأهل التواريخ، وكان خرّج إملاءه بعد سنة ثلاثمائة، وهو في نحوٍ من ألف ورقة»[٢].

وسماه الذهبي باسم «تاريخ الرجال» من الصحابة والتابعين وإلى شيوخه الذين لقيهم[٣].

وهذا الكتاب مفقود حتى الآن، ولم يُعثر على نسخة منه، ولكن عُرَيْب بن سعد الكاتب القرطبي (٣٧٠ هـ/ ٩٨٠ م) الذي اختصر تاريخ الطبري كما سنرى، اختصر أيضاً ذَيْل المُذَيَّل بعنوان «المُنْتَخَب من ذَيْل المُذَيَّل من تاريخ الصحابة والتابعين» وطبع هذا «المُنْتَخَب» مع «تاريخ الطبري» في الجزء الأخير في ليدن، في الطبعة التي أشرف عليها ونشرها دي غويه سنة ١٨٩٧/ ١٩٠١ م، ثم طبع «المنتخب» مع «تاريخ الطبري» في معظم طبعاته، منها طبعة مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٥٨ هـ/ ١٩٣٩ م، وجاء «المنتخب» في نهاية الجزء الثامن والأخير من «تاريخ الأمم والملوك» للطبري، ويقع في ١٦٤ صفحة، وأربع صفحات للفهرس[٤]، وطبع «المنتخب» في الجزء الحادي عشر من

---

(١) انظر: معجم الأدباء ١٨/ ٧٠، الطبري للحوفي ص ٨٩.

(٢) معجم الأدباء ١٨/ ٧١.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٧٢.

(٤) انظر: تاريخ التراث العربي ١/ ٢/ ١٦٣، تاريخ الأدب العربي ٣/ ٤٧.

«تاريخ الطبري» من طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٠ ـ ١٩٦٧ م بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم.

أما الكتاب الأصلي فيقع في ألف ورقة، وإذا قورن هذا الرقم بكتاب «تاريخ الطبري» الذي يقع في ثلاثة آلاف ورقة، وطبع في ثمانية مجلدات، فإننا نجد أن كتاب «ذَيْل المُذَيَّل» يساوي ثلث كتاب التاريخ، وهذا يعني أنَّه كتاب كبير في التاريخ وتراجم الصحابة والتابعين وبقية السلف الصالح.

ثانياً: تاريخ الأمم والملوك:

ويعرف بتاريخ الطبري، وبه اشتهر اسمُه، ولَمَعَ صيتُه، وتخلَّد اسمه، وإذا أطلق على الطبري: المؤرخ، فإنما بسبب هذا الكتاب.

واسم الكتاب المشهور به هو «تاريخ الأمم والملوك»(١) وطبع بهذا العنوان، ولكن ياقوت الحموي ذكر اسماً آخر له وهو «تاريخ الرسل والأنبياء والملوك والخلفاء»(٢)، وكلا الاسمين يدلان على موضوع الكتاب، ويسمى الكتاب أيضاً: «التاريخ الكبير»(٣).

قال ياقوت: «وهذا الكتاب من الأَفْراد في الدنيا، فضلاً ونَباهة، وهو يجمع كثيراً من علوم الدِّين والدُّنيا، وهو في نحو خمسة آلاف ورقة»(٤).

وبيَّن الطبري رحمه الله تعالى خطة كتابه، وذكَّر بفائدة علم التاريخ

---

(١) تاريخ بغداد ٢/١٦٣، كشف الظنون ١/٢٢٧.

(٢) معجم الأدباء ١٨/٤٤، وطبعت الكتاب دارُ المعارف بمصر باسم «تاريخ الرسل والملوك»، وسماه فؤاد سزكين «أخبار الرسل والملوك» (تاريخ التَراث العربي ١/٢/١٦٢)، وطبع بمطبعة خياط باسم «تاريخ الرسل والملوك».

(٣) معجم الأدباء ١٨/٦٨.

(٤) معجم الأدباء ١٨/٧٠.

وأهميته في المقدمة، ويَحْسُن بنا أن نطّلع عليها، ونسجِّلها هنا.

«قال أبو جعفر: وأنا ذاكرٌ في كتابي هذا: من ملوك كل زمان، من ابتداء ربنا جل جلاله خَلْقَ خَلْقِهِ إلى حال قيامهم، مَنْ انتهى إلينا خبرُه، ممن ابتدأه الله تعالى بآلائه ونعمه، فشكر نعمه، من رسُول له مُرْسل، أو مَلِك مُسَلَّط، أو خَليفة مُسْتَخْلَف، فزاده إلى ما ابتدأه به من نعمه في العاجل نعماً، وإلى ما تفضل به عليه فضلاً، ومن أخّر ذلك له منهم، وجعله له عنده ذُخْراً، ومن كفر منهم نعمه فسَلَبه ما ابتدأ به من نعمه، وعجَّل له نِقَمَه، ومن كفر منهم نِعَمَه، فمتَّعه بما أنْعَم به عليه إلى حين وفاته وهلاكه، مقروناً ذكر كل من أنا ذاكره منهم في كتابي بذكر نعمائه، وجُمَل ماكان من حوادث الأمور في عصره وأيَّامه، إذ كان الاستقصاء في ذلك يقصر عنه العمر، وتطول به الكتب، مع ذكري مع ذلك مَبْلغَ مدة أُكُلِه، وحين أجله، بعد تقديمي أمام ذلك ما تقديمه بنا أولى، والابتداء به قبله أحَجْى من البيان عن الزمان، ما هو؟ وكم قَدْرُ جميعه؟ وابتداء أوَّله، وانتهاء آخره، وهل كان قبل خلق الله تعالى إيَّاه شيء غيره؟ وهل هو فَانٍ؟ وهل بعد فنائه شيء غيرُ وجه المسبَّح الخلّاق تعالى ذكره؟ وما الذي كان قبل خلق الله إياه؟ وما هو كائن بعد فنائه وانقضائه؟ وكيف كان ابتداء خلق الله تعالى إياه؟ وكيف يكون فناؤه؟ والدلالة على أنْ لا قديم، إلا الله الواحد القهار الذي له مُلْك السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثَّرى، بوجيزٍ من الدلالة غير طويل إذ لم نقصد بكتابنا هذا قصد الاحتجاج لذلك، بل لما ذكرنا من تاريخ الملوك الماضين، وجمل من أخبارهم وأزمان الرسل والأنبياء ومقادير أعمارهم، وأيام الخلفاء والسالفين، وبعض سيرهم ومبالغ ولاياتهم، والكائن الذي كان من الأحداث في أعصارهم، ثم أنا متبعٌ آخر ذلك كله، إن شاء الله، وأيْدٍ منه بعون وقوة، ذكَر صحابة نبينا محمد ﷺ وأسمائهم وكُناهم، ومبالغ أنسابهم، ومبالغ أعمارهم، ووقت وفاة كل إنسان منهم والموضع الذي

كانت به وفاته، ثم متبعهم ذكرَ من كان بعدَهم من التابعين لهم بإحسان على نحو ما شرطنا من ذكرهم، ثم ملحق بهم من ذكر من كان بعدهم من الخلف لهم كذلك، وزائد في أمورهم للإبانة عمن حُمِدَت منهم روايتُه، ونُقلت أخباره، ومن رُفِضَت منهم روايته، ونُبِذت أخباره، ومن وَهَن منهم نقلُه، وضَعُف خبره، والسبب الذي من أجله نُبِذ منهم خبرُه، والعلة التي من أجلها وَهَن من وَهَن منهم نقله، وإلى الله عز وجل أنا راغب في العون على ما أقصده وأنويه، والتوفيق لما ألتمسه وأبغيه، فإنه ولي الحول والقوة، وصلى الله على محمد نبيه، وآله وسلم تسليماً»[1].

ثم ذكر الطبري رحمه الله تعالى منهجه في الكتاب، كما سنوضحه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ثالثاً: محتويات «تاريخ الأمم والملوك»:

يعتبر «تاريخ الطبري» ذروة التأليف التاريخي عند المسلمين في القرون الثلاثة الأولى، وهو أوثق مصدر للتاريخ الإسلامي، ويحتل هذا التاريخ مكانة ممتازة بين كتب التاريخ الإسلامي، وبيّن لنا ياقوت الحموي محتويات الكتاب، فقال:

«بدأ فيه بالخطبة المشتملة على معانيه، ثم ذكر الزمان ما هو؟ ثم مدة الزمان على اختلاف أهل العلم من الصحابة وغيرهم والأمم المخالفة لنا في ذلك، والسُّنَن الدالة على ما اختاره من ذلك، وهذا باب لا يندر وجوده إلا له...، ثم ذكر أبو جعفر في «التاريخ» الكلام في الدلالة على حَدَث الزمان «الأيام والليالي»، وعلى أن مُحْدِثَها هو الله عز وجل وحده، وذكر أول ما خُلق، وهو القلم وما بعد ذلك شيئاً فشيئاً على ما وردت به الآثار، واختلاف الناس في ذلك، ثم ذكر آدمَ وحوّاء،

---

(١) تاريخ الطبري ١/٤ ـ ٥.

واللعين إبليس وما كان من نزول آدم عليه السلام، وما كان بعده من أخبار نبيّ نبيّ، ورسول رسول وملك ملك، على اختصار منه كذلك، إلى نبينا عليه السلام مع ملوك الطوائف، وملوك الفرس والروم، ثم ذكر مولد رسول الله ﷺ ونسبه وآباءَه وأمّهاتِه، وأولاده وأزواجه، ومبعثه ومغازيه، وسراياه وحال أصحابه رضي الله عنهم، ثم ذكر الخلفاء الراشدين المهْديين بعده، ثم ذكر ما كان من أخبار بني أمية، وبني العباس في القَطْعين: المنسوب أحدهما إلى قطع بني أمية، والثاني إلى قطع بني العباس وما شرحه في كتاب التاريخ، وإنما خرج ذلك إلى الناس على سبيل الإجازة إلى سنة أربع وتسعين ومائتين، ووقف على الذي بعد ذلك، لأنه كان في زمن المقْتَدِر، وقد كان سُئل شرح القَطْعين، فلما سئل ذلك شَرَحَه وسماه القطعين»[1].

ومن هذاالنص، ومن الرجوع إلى كتاب «تاريخ الأمم والملوك» نجد أن خطة الكتاب تتضمن تاريخ العالـم من بدء الخليقة إلى سنة ٣٠٢ هـ/٩١٥ م، وتشتمل على ما يلي:

* **الخطبة**: وفيها الحمد والثناء على الله تعالى، والصلاة على رسول الله ﷺ، ثم بيان خلق الله للناس، وخطة الطبري في تصنيف الكتاب، ومنهجه في ذلك (ص ٢ ـ ٥).

* **المقـدمة**: وتتضمن الحـديث عن الزمـان في ضوء العقيـدة الإسلامية، والأقوال في قدر جميع الزمان من ابتدائه إلى انتهائه، وحدوث الأوقات والأزمان، وأن الله تعالى خلق الزمان والليل والنهار، وأنه القادر على فنائها، ولا يبقى غير الله تعالى، فهو الأول والآخر والمحْدِث لكل شيء بقدْرَتِه، ثم تحدّث الطبريّ عن ابتداء الخلق، وأنَّ

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٦٨، ٦٩ ـ ٧٠.

أول ما خلق القلم، ثم بين ما ورد في الخْلق في الأيام الستة من السموات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، وخلق إبليس وأخباره (ص ٥ ـ ٦٠).

* **القسم الأول**: تأريخ العالم قبل الإسلام، وبدأه بخلق آدم أبي البشر في الجنّة، وقصته مع إبليس في الجنة، وهبوط ادم إلى الأرض، والروايات الواردة في ذلك، ثم ذكر الطبري الأحداث التي وقعت في زمن آدم، وخاصة قصة قتل قابيل لهابِيل، والروايات الواردة في ذلك، ثم فصّل القول في موت آدم وسنّه حينما مات.

ثم عرض الطبري لسيرة الأنبياء من أولاد آدم، إلى نوح وإبْراهيم ولُوط وإسماعيل وإسحاق ويعْقُوب، وأيُّوب وشُعَيْب، ويُوسف وإلياس، وموسى ويوسُف، وداود وسُلَيْمان، وصالح ويُونُس وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وعرض لأخبار أممهم من خلال تاريخ أنبيائهم.

وأرّخ بصفة خاصة لبعض الأمم، وخاصة ملوك الفرس في العهد السّاساني وعلاقتهم ببلاد العرب، وكذلك الرُّوم وملوكهم منذ المسيحية إلى الإسلام، وكذا اليهود وأنبيائهم وقصصهم وتاريخهم وملوكهم ودولهم، وأخيراً عن العرب، فتحدَّث عن عاد وقوّتهم وظلْمهم وعِصيانهم لنبيِّهم هُود وإهلاك الله لهم، وثمود وعُتُوِّهم وكفرهم ومعصيتهم لنبيهم صَالح، وهلاكهم بسبب ذلك، ثم ذكر طسم وجَدِيس، وجُرْهم، وأصهار إسماعيل، وأخبار العرب في الجاهلية، وملوك اليمن وعلاقتهم بالحبش ثم بالفرس، وأشهر حكماء العرب، ثم تحدّث عن أجداد الرسول ﷺ من عدنان إلى عبد المطلب، وذكر طَرَفاً من أخبار الرسول قبل البعثة، وحال قريش ومكة، وذلك تمهيداً لعصر الرسالة (ص ٦٠ ـ إلى آخر الجزء الأول)، وجاء ذكر نسب رسول الله ﷺ

وأخبار آبائه وأجداده وأنسابه وزواجه في الجزء الثاني حتى (ص ٤٣).

وأورد الطبري حوادث هذا القسم على أساس المواضيع، وليس على طريقة الحَوْلِيّات، ويمثل هذا القسم من تاريخ الطبري عن العالم والعرب قبل الإسلام حوالي عُشْر الكتاب كله، ومع ذلك يعتبر أطول مصنَّف كُتِب عن الفترة التي سبقت الإسلام في كتب التاريخ العام عند المؤرخين العرب.

* **القسم الثاني**: تاريخ العالم بعد الإسلام، ابتداء من نزول الوحي على رسول الله ﷺ، وابتداء الوقت الذي عُمل فيه التاريخ الإسلامي بالهجرة النَّبوية، ويستمر هذا القسم إلى سنة ٣٠٢ هـ/ ٩١٥ م، ويشمل هذا القسم أربعة عهود متميِّزة:

أ - **العهد النَّبوي**، والبعثة النبوية، وسيرة الرسول ﷺ، وغزواته، حتى سنة ١١ هـ الموافق ٦٢٠ م.

ب - **العهد الرَّاشدي**، وتاريخ الخلفاء الراشدين، والفتوحات التي تمت في عصرهم، والأحداث التي وقعت حتى سنة ٤٠ هـ/ ٦٦٠ م.

جـ - **العهد الأموي**، وفيه تاريخ الأمويين وخلفائهم وفتوحاتهم، والأحداث والفتن التي وقعت حتى سقوط الخلافة الأموية سنة ١٣٢ هـ/ ٩٤٩ م.

د - **العهد العبَّاسي**، وخلفاء بني العبَّاس، وما جرى في زمانهم، والحروب الداخلية والفتن والطوائف والفِرَق التي ظهرت في عصرهم حتى سنة ٣٠٢ هـ/ ٩١٥ م، وفرغ الطبري من تأليف تاريخه وتصنيفه سنة ٣٠٣ هـ.

ويغطي هذا القسم بقية تاريخ الطبري من الجزء الثاني حتى الأخير

بحسب الطبعات، وهو الجزء الثامن في الطبعة التي نعتمد عليها في مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٥٨ هـ/ ١٩٣٩ م.

وسار الطبري في القسم الخاص بالتاريخ الإسلامي على ترتيب السنين، بذكر الأحداث سَنَة فَسَنة، وهو ما يُدعى بالنِّظام الحَوْلـي، أو الحَوْليّات[١].

رابعاً: مصادر الطبري في تاريخه:

اعتمد الطبري في كتاب «التاريخ» على مصادر متنوعة، ولم يأخذ المادة التاريخية من مَرْويات شفهية، أو مصادر مدوَّنة متفرقة، ولكنّه اعتمد على كتب مدوَّنة كبيرة ومشهورة أُتيح له الاطّلاع عليها، وروايتها أو الأخذ منها، وهي كتب جامعة، وأُلِّفت في القرنَيْن السابقَيْن، الثاني والثالث الهجري، ولم يستمد الطبري شيئاً من كتب معاصريه[٢].

وقد بُذِلَت مساعٍ كثيرة للتعرف على مصادر الطبري من خلال سلاسل الإسناد التي سجّلها الطبري في كتابه، وأسماء الرواة الذين صرح بأسمائهم، لكنه أغفل أسماء كتبهم، فرجع العلماء إلى مصنفاتهم التي ذكرها ابن النديم في «الفِهْرست» ورجحوا أقرب الاحتمالات في تحديد اسم الكتاب[٣].

---

(١) انظر: معجم الأدباء ١٨/٧١، الطبري للحوفي ص ١٨٤ وما بعدها، الفهرست ص ٣٢٧، تاريخ الأدب العربي ٣/٤٦، تاريخ الطبري، المقدمة ١/٢٣ طبعة دار المعارف.

(٢) انظر: التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٥٤ ـ ٢٥٦، الطبري للحوفي ص ١٨٨، تاريخ الطبري، المقدمة ١/٢٤ طبعة دار المعارف.

(٣) قام الأستاذ جواد علي بجهود طيِّبة لتحديد «موارد تاريخ الطبري» ونشرها في مجلة المجمع العراقي العدد الأول لعام ١٩٥٠ م والعدد الأول لعام ١٩٥٢ م، والعدد الأول لعام ١٩٥٤ م، ومجموعها ١٨٤ صفحة. انظر: تاريخ التراث العربي ١/٢/١٦٠، التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٥.

والطبري استمد تاريخه من المصادر المتعددة التي اطمأن إلى حجِّيَّتها في الغالب، واعتبرها موثوقة إلى حدٍّ ما، وهي في حقيقتها متنوِّعة بحسب الموضوع، ويمكننا الإشارة إلى أهمها:

١ - في تاريخ الرسل والأنبياء اعتمد الطبري على كتب التفسير، وكتب السيرة النبوية، وخاصة كتب وَهْب بن منبه ومنها كتابه «المبتدأ والخبر» وسيرة ابن إسحاق، ومن هنا تسرَّبت الإسرائيليات إلى كتابه.

٢ - في تاريخ الفرس استمد الطبري معلوماته من ترجمات عربية لكتب فارسية، منها كتب ابن المُقَفَّع، ومنها كتب هشام الكَلْبي الذي كان يعتمد في تاريخ ملوك فارس والحيرة على وثائق ومدوَّنات لديه.

٣ - وفي تاريخ الروم رجع الطبري إلى ما كتبه وترجمه نَصَارى الشَّام عن تاريخ الدولة الرومانية والإمبراطورية البيزنطية.

٤ - وفي تاريخ اليهود وبني إسرائيل نقل الطبريُّ قصصهم وأخبارهم من كتب اليهود مباشرة التي كانت متوفرة لديهم، وما تتضمنه من حكايات إسرائيلية عن أنبيائهم وتاريخهم وأحداثهم.

٥ - وفي تاريخ العرب قبل الإسلام اعتمد على الكتب التي دُوِّنت في هذا الموضوع خلال القرنين الثاني والثالث الهجري، ومنها كتب عُبَيد بن شَرْية الجُرْهُميّ، ومحمد بن كَعْب القُرَظي، ووَهْب بن مُنَبِّه، وهشام الكلبي، وابن إسحاق.

٦ - وفي السيرة النبوية استند إلى كتب كُتَّاب السيرة الأوائل، وهم أَبَّان ابن عثمان بن عفان، وعُرْوة بن الزُّبير بن العوَّام، وموسى بن عُقْبة، وعاصم بن عمر بن قَتَادة، وابن شِهاب الزُّهري، ومحمد ابن إسحاق، وشُرَحبيل بن سعد.

٧ - وفي العهد الراشدي أخذ أخبار ووقائع حروب الردة والفتوح،

وموقعة الجمل وموقعة صفين من كتب سَيف بن عمر الأَسْدي، والمدائني، وأبي مِخْنَف.

٨ ـ وفي العهد الأموي أخذ تاريخ بني أمية من مُدَوَّنات عَوَانة بن الحكم الكلبي، وأبي مِخْنَف، والمدائني، والواقِدي، وعُمَر بن شَبّة، وهشام الكلبي.

٩ ـ وإذا انتهى إلى العهد العباسي عوّل على كتب أحمد بن أبي خَيْثمة، وأحمد بن زهير، والمدائني، وعمر بن راشد، والهيثم بن عَدِيّ، والواقدي.

وكان لهؤلاء المؤلفين كتب كثيرة متداولة، كان الطبري يذكر اسم الكاتب، دون أن يحدد اسم الكتاب، فكان لسيف بن عمر كتاب الفتوح الكبير، وكتاب الردة، وكتاب في موقعة الجمل، ومسير عائشة وعلي، وكان للمدائني (٢١٥ هـ) كتاب في الردة، وكتاب أمهات النبي ﷺ، وكتاب صفة النبي ﷺ، وكتاب أخبار المنافقين، وكتاب عهود النبي ﷺ، وكتاب تسمية المنافقين، وكتاب رسائل النبي ﷺ، وكتاب المغازي، وله كتب في أخبار قريش، وأخبار مناكح الأشراف، وأخبار النساء، وأخبار الخلفاء، وكتب في الأحداث في خلافة عثمان وعلي رضي الله عنهما، وكتب الفتوح، وأخبار العرب، وأخبار الشعراء، وغيرها، ولعمر بن شبة مؤلفات منها كتاب الكوفة، وكتاب مكة، وكتاب البصرة، وكتاب المدينة، وكتاب أمراء الكوفة، وأمراء البصرة، وأمراء المدينة، وأمراء مكة، وكتاب السلطان، ومقتل عثمان، وأخبار المنصور، وكتاب التاريخ وغيرها(١).

---

(١) انظر الفهرست ص ١٣١، ١٣٦، ١٣٧، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٦٣، الطبري للحوفي ص ١٩٠، تاريخ التراث العربي ١/٢/١٢٢، ١٢٧، ١٣٣، ١٣٩، ظهر الإسلام ٢/٢٠٤.

خامساً: أهمية «تاريخ الطبري» وقيمته العلمية:

وصل كتاب «تاريخ الأمم والملوك» إلى قمة التأليف التاريخي عند العرب والمسلمين في القرون الثلاثة الأولى، واحتل ذورة التقدير والاهتمام لدى معاصري الطبري، وفيما بعد، خلال التاريخ الإسلامي، وحتى وقتنا الحاضر، وسيبقى تاريخ الطبري في القمة والذروة في المستقبل، وسيبقى المرجع الأول، والمصدر الأصيل، والموئل الموثوق لدى كل باحث وكاتب في التاريخ الإسلامي(١).

وتظهر أهمية الكتاب وقيمته العلمية في الأمور التالية:

١ - **أول كتاب في التاريخ العام**، جمع فيه الطبريّ جوانب التاريخ في كتاب واحد، ونسّقها، وضمّ بعضها إلى بعض، وأكمل فيه الجهود التي قام بها العلماء السابقون في التاريخ لجانب منه، كتاريخ الأقاليم، أو الطوائف، أو الرجال، أو الأحداث لعظام التي كُتبت منفردة، من كبار العلماء في القرن الثاني والثالث الهجريين، كأمثال ابن سَعْد واليَعْقُوبي والدِّيْنَوَري والوَاقِدي والبَلاذُري وابن إسحاق، ولما صاغ الطبري كتابه الكامل الشامل أقبل الناس عليه، وأعرضوا عن الكتب الصغيرة الأخرى، ثم ضاع أكثرها، فكان فضل الطبريّ من جديد أنه سجّل لنا ما ضاع، وحفظ لنا هذا التراث النفيس.

ومما ساعد الطبريَّ على ذلك مؤهلاتُه الفطرية كحدة الذكاء، وقوة الحافظة، ثم جهده الدؤوب على العلم، وتفرّغه له، وسعة اطّلاعه وثقافته، وكثرة رحلاته، وجمعه بين العلوم المختلفة التي كان لها الأثر الكبير في تاريخه كعلم التفسير والحديث واللغة والفقه.

---

(١) انظر: تاريخ الأدب العربي ٣/٤٥، الطبري للحوفي ص ٢٢٦، ظهر الإسلام ٢/٢٠٤، التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٥٦.

٢ ـ **أقدم مصدر كامل للتاريخ العربي وفي اللغة العربية منذ أوائل الزمان** إلى أول القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، ولذلك أصبح الأساس لتاريخ العرب، والمصدر الأصيل لمن جاء بعده، كالمَسْعودي، وابن مِسْكَوَيْه، وابن الأثير، وابن خَلْدون، وابن كثير، وكُتّاب السِّيرة، ولا يزال كتاب الطبري قِبلة الأنظار حتى اليوم.

٣ ـ جمع الطبري في تاريخه كثيراً من **أخبار العرب في الجاهلية**، وحفظها من الضياع، كما أرَّخ للقرون الثلاثة الأولى بعد الإسلام، ودوَّن بعض الروايات التي سمعها شخصياً، فكان عمله تسجيلاً أميناً للأجيال اللاحقة.

٤ ـ ذكر الطبري في كتابه **تاريخ الفرس**، وأبدع في ذكر كثير من الحقائق التي لا توجد عند غيره، فأصبح كتاب الطبري مرجعاً أيضاً في تاريخ الفرس أيام بني سَاسَان ومعرفة صلة العرب بهم، ولذلك أسرع العلماء إلى ترجمته إلى اللغة الفارسية كما سنرى.

٥ ـ كان الطبري **دقيقاً جداً في تاريخ الرومان**، وذكر أسماء الأباطرة إلى نهاية عصر هِرَقل سنة ٦٤١ م/٢١ هـ، وهو تاريخ فتح العرب لمصر، واعتمد الطبري في ذلك على نصارى الشام والوثائق التي كانوا يحفظونها، وأدَّوْها إلى الطبري بأمانة، وسجلها بدقة تدعو إلى العجب، ليكون مصدراً أيضاً لتاريخ الرومان.

٦ ـ يعتبر كتاب الطبري **المنبع الصافي والأصيل للمؤرخين** بعده الذين استقَوْا منه الأخبار والمادة التاريخية، وتفنّنوا في عرضها، كابن مِسْكَوَيْه (٤٢١ هـ) وابن الأثير (٦٣٠ هـ) وأبي الفِداء (٧٣٢ هـ) وابن كثير (٧٧٤ هـ) وابن خَلْدون (٨٠٨ هـ).

٧ ـ إن تاريخ الطبري حافل **بالنصوص الأدبية** التي ذكرها في تراجم أصحابها، سواء كانت شعراً أم خطباً أم رسائل أم محاورات، ولا توجد

في كتاب آخر، ولولا تدوين الطبري لها لفُقد من تراثنا ذخائر قيّمة يُعتمد عليها في الدراسات الأدبية واللغوية.

٨ ـ وتتأكّد أهمية كتاب الطبري وقيمته العلمية بإقبال العلماء في العصر الحاضر على **جمعه وتحقيقه ونشره**، وحرصهم على وجوده وتوفّره في كل مؤسسة علمية، وتحت أيديَ الباحثين والعلماء والطلاب كما سنرى، كما يتأكد ذلك بثناء المنصفين والمؤرِّخين له، وهو ما سنفرده في فقرة خاصة، وتظهر أهميته بالإقبال على تلخيصه وترجمته، كما سنرى.

٩ ـ قال الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم: «وترجع قيمة هذا الكتاب إلى أنه قد استطاع أن يجمع بين دفّتيه جميع المواد المودَعة في كتب الحديث والتفسير واللغة والأدب والسير والمغازي وتاريخ الأحداث والرجال، ونصوص الشعر والخطب والعهود، ونسّق بينها تنسيقاً مناسباً، وعرضها عرضاً رائعاً رائقاً، ناسباً كل رواية إلى صاحبها، وكل رأي إلى قائله، كما أنه أودع هذا الكتاب فصولاً صالحة ونتفاً متنوعة من متون الكتب التي أتت عليها عوادي الأيام، وأورد من أقوال العلماء ما لا نجده إلا في هذا الكتاب»[1].

سادساً: ثناء العلماء على تاريخ الطبري:

تعدّدت أقوال العلماء في هذا الخصوص اعترافاً منهم بفضل الطبري ومكانته التاريخية وسجّلوا ذلك بعبارات مُضِيئة، وأحرف من نور، نقتبس بعضها:

١ ـ قال المَسْعُوديّ (٣٤٦ هـ): «وأما تاريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبريّ الزاهي على المؤلفات، والزائد على الكتب المصنفات،

---

(١) تاريخ الطبري، المقدمة ١/٢٤ طبعة دار المعارف.

فقد جمع أنواعَ الأخبار، وحَوَى فنون الآثار، واشتمل على صنوف العلم، وهو كتاب تكثر فائدتُه، وتَنْفع عائدتُه، وكيف لا يكون كذلك، ومؤلِّفه فقيهُ عصره، وناسِكُ دَهْره، إليه انتهت علوم فقهاء الأمصار، وحَمَلة السُّنن والآثار»[1].

٢ ـ وقال الخطيب البغدادي (٤٦٣ هـ) في ترجمة الطبري: «وله الكتاب المشهور في تاريخ الأمم والملوك»[2].

٣ ـ وقال ابن الأثير (٦٣٠ هـ) في مقدمة كتابه «الكامل»: «لقد جمعتُ في كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد، فابتدأتُ بالتاريخ الكبير الذي صنَّفه الإمام أبو جعفر الطبريّ، إذ هو الكتاب المعوَّل عليه عند الكافّة، والرجوع إليه عند الاختلاف، فأخذت ما فيه من جميع تراجمه، لم أُخِلَّ بترجمة واحدة منها»[3].

٤ ـ وقال ياقوت الحَمَوي (٦٢٦ هـ): «وهذا الكتاب من الأفراد في الدّنيا فضلاً ونَباهة، وهو يجمع كثيراً من علوم الدِّين، وهو في نحو خمسة آلاف ورقة»[4]، وذكر في مكان آخر أنه في نحو ألف ورقة.

٥ ـ وقال ابن خَلِّكان (٦٨١ هـ) عن الطبريّ: «صاحب التفسير الكبير، والتاريخ الشهير...، وتاريخه أصح التواريخ وأثْبَتُها»[5].

---

(١) مروج الذهب ٣/١٥.
(٢) تاريخ بغداد ٢/١٦٢.
(٣) الكامل في التاريخ ١/٢.
(٤) معجم الأدباء ١٨/٧٠.
(٥) وفيات الأعيان ٣/٣٣٢، وانظر أبجد العلوم ٢/١/١٨٢ فقد نقل صديق =

٦ ـ وقال ابن كثير (٧٧٤ هـ): «وصنَّف التاريخ الحافل»[١].

٧ ـ وقال الحاج خليفة (١٠٦٧ هـ): «تاريخ الطبري . . . ، وهو من التواريخ المشهورة الجامعة لأخبار العالم»[٢].

٨ ـ وقال فرانز روزنثال: «أما تاريخ الأمم والملوك للطبري، فأعظمُ أهميةً من كتاب اليَعْقُوبي الذي نَسِيَه النّاس تقريباً، ولقد أسبغَ الطبريّ على كتابه تدقيقَ المتكلمين وطولَ نَفَسِهم، وما للفقيهِ العالم من دقّةٍ وحبّ للنظام، وما للسياسي القانوني العملي من بصيرةٍ في الأمور السياسية، كل هذه الخصائص أدت إلى إحلاله مكانة مرموقة دائمة ومتزايدة في الأوساط الفكرية السُّنيّة في الإسلام . . . »[٣].

٩ ـ وقال الأستاذ أحمد أمين (١٣٧٣ هـ/ ١٩٥٤ م): «وقد عُني الناس بتاريخه كثيراً، حتى ليكاد أن يكون عماد كل مؤرخ بعده»[٤].

١٠ ـ وقال الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم عن تاريخ الطبري: «وكتابه يُعَدُّ أوفى عمل تاريخي بين مصنفات العرب، أقامه على منهج مرسوم، وساقه في طريق استقرائي شامل، بلغت به الرواية مَبْلَغَها من الثقة والأمانة والإتقان، أكمل ما قام به المؤرخون قبله كاليَعْقُوبيّ والبَلاذُريّ والوَاقِديّ وابن سَعْد، ومهَّد السبيل لمن جاء بعده كالمَسْعُودي وابن مِسْكَوَيْه وابن الأثير وابن خَلْدون»[٥].

= ابن حسن خان القنوجي (١٣٠٧ هـ) نفس عبارة ابن خلكان، كما فعل غيره ذلك، وترددت هذه العبارة في الكتب.

(١) البداية والنهاية ١١/١٤٥.

(٢) كشف الظنون ١/٢٢٧.

(٣) علم التاريخ عند المسلمين لروزنثال ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

(٤) ظهر الإسلام ٢/٢٠٤.

(٥) تاريخ الطبري، المقدمة ١/٢ وهذه شهادة من محقق هذا الكتاب الذي خبر =

١١ ـ وقال الأستاذ عبد الهادي بو طالب، المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة: «وتعددت جوانب المعرفة لدى الطبري، فكان مؤرخاً عظيماً، يفهم حركة الأحداث، ذا قدرة على ربطها وتفسيرها، لم يحصر تاريخه في زمان خاص أو بلاد واحدة، فجاء كتابه امتداداً لتارخ البشرية جغرافياً وزمانياً، لم يُؤرِّخ للعرب وحدهم، وإنما أرّخ للرومِ واليونان والترك وفارس والهند والصين، وظل كتابه في التاريخ المَرجع الأساسي الذي يَعتمد عليه كلٌ باحث في سُنن التاريخ لسعة مادّته وتنوعها، ولغزارة مضمونه، وعلوّ نفس مصنفه، وحاز تاريخ الطبري شهرة عالمية، وسارع المستشرقون إلى ترجمة أجزاء منه إلى اللغة الألمانية واللاتينية، وترجمه الأتراك إلى التركية، والفرس إلى الفارسية، حتى صار مرجعاً عالمياً عظيم القيمة»[١].

١٢ ـ وأخيراً قال الأستاذ شاكر مصطفى عن الطبري: «وهو عَلَمٌ معروف في التاريخ الإسلامي (وفي التفسير) بلغ به التدوينُ التاريخي نهاية عهد التكوين والنشأة قمةً من قمم التاريخ الحقيقي»[٢].

سابعاً: ذيول تاريخ الطبري وتكملاته:

ونظراً لأهمية كتاب تاريخ الطبري ومكانته العلمية فقد اتجهت الأنظار إلى السير على مِنْواله، وكتابة الذيول عليه، والتكملات لسنواته، منها:

١ ـ ذَيْل تاريخ الطبري، للطبري نفسه الذي كان أول من ذيَّل على كتابه، وله ذَيْل على الذَّيْل، ولم يصل إلينا شيء من ذلك[٣].

= جوهره، وعاش مع كل حرف فيه.

(١) من كلمته في افتتاح ندوة الإمام الطبري بالقاهرة ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩ م.

(٢) التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٥٣.

(٣) قال السخاوي عن الطبري: «وله على تاريخه المذكور ذيل، بل ذيّل على الذيل =

واعتبر بروكلمان كتاب الطبري «ذيل المذيَّل من تاريخ الصحابة والتابعين» الذي أتمه يوم ٢٧ من ربيع الآخر سنة ٣٠٣ هـ/ ١٠ من نوفمبر (تشرين الأول) ٩١٥ م، ذيلاً لتاريخه[1].

٢ ـ أكمل عُرَيْب بن سعد تاريخ الطبري إلى سنة ٣٢٠ هـ، بعنوان «صلة تاريخ الطبري» ويوجد منه نسخة خطية، وحققه دي خويه في ليدن سنة ١٨٩٧ م، وأكمله ثابت بن سنان الصَّابي (٣٦٣ هـ) حتى سنة ٣٦٠ هـ[2].

٣ ـ وأكمله هلال بن المُحْسِن الصّابي إلى سنة ٤٤٨ هـ.

٤ ـ وأكمله ابن هلال المذكور محمد غرس النِّعْمة إلى سنة ٤٧٩ هـ بعنوان «عيون التواريخ».

٥ ـ وأكمله محمد بن عبد الملك الهَمَذاني (ت ٥٢١ هـ/١١٢٧ م) إلى سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م، ويوجد نسخة مخطوطة منه في مكتبة باريس ـ أول برقم ١٤٦٩، وطبع الموجود من الكتاب مستقلاً[3]، كما طبع ضمن ذيول تاريخ الطبري[4].

٦ ـ وأكمله نجم الدين بن الملك الكامل الأيوبي (ت ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩ م).

= أيضاً» انظر: الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ أهل التوريخ، ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين لفرانز روزنثال ص ٦٧٠.

(١) تاريخ الأدب العربي، بروكلمان ٣/ ٤٧، التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٦٢، كشف الظنون ١/ ٢٢٨.

(٢) تاريخ الأدب العربي ٣/ ٤٧، تاريخ التراث العربي ١/ ٢/ ١٦٤، الطبري للحوفي ص ٢٣٢.

(٣) تكملة تاريخ الطبري، تحقيق البرن يوسف كنعان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، انظر: تاريخ التراث العربي ١/ ٢/ ١٦٥.

(٤) ذيول تاريخ الطبري، طبعة دار المعارف، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

٧ ـ وأكمله عبدالله بن أحمد الفَرْغاني (ت ٣٦٢ هـ/ ٩٧٣ م) بعنوان «الصلة»، ثم كتب الفرغاني نفسه «ذيل الصِّلة» وكلاهما في حكم المفقود.

قال ابن النديم (٤٣٨ هـ): «وقد ألحق به جماعة من حيث قطع إلى زماننا هذا، لا يُعوَّل على إلحاقهم، لأنهم ليس ممّن يختص بالدولة ولا بالعلم»[1].

ثامناً: مختصرات تاريخ الطبري وترجماته:

ولمزيد الأهمية بتاريخ الطبري والعناية به، والحرص على الانتفاع به على أوسع صعيد ممكن، فقد قام عدد من العلماء باختصاره لتقريبه إلى القراء، ومختلف المستويات، وترجمته إلى لغات أخرى، فمن ذلك:

١ ـ ذكر ابن النديم أن تاريخ الطبري قد اختصره وحذف أسانيده جماعة، منهم محمد بن سليمان الهاشمي، وأبو الحسن الشِّمْشاطي المعلم من أهل الموصل، وثالث يعرف بالسَّليل ابن أحمد[2].

٢ ـ مختصر لتاريخ الطبري، مع ترجمة قسم منه إلى اللغة الفارسية، أعده أبو علي محمد البَلْعَمي (٣٦٣ هـ/٩٧٣ م) وهو من وزراء الدولة السامانية، ترجمه بأمر منصور بن نوح الساماني[3].

وترجم هذا المختصر من الفارسية إلى الفرنسية في أربعة أجزاء طبعت في باريس.

---

(١) الفهرست ص ٣٢٧.

(٢) الفهرست ص ٣٢٧، والشمشاطي هو أبو الحسن علي بن محمد العدوي (٣٨٠ هـ) انظر: التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٦٢.

(٣) تاريخ الأدب العربي ٣/٤٨، تاريخ التراث العربي ١/٢/١٦٥.

وقام خضر بن خضر الآمدي (٩٣٥ - ٩٣٧ هـ/ ١٥٢٨ - ١٥٣٠ م) بترجمة هذا المختصر أيضاً من الفارسية إلى العربية، ويوجد منه نسخة في ليدن برقم ٨٢٥، وتوجد ترجمة عربية أخرى للمختصر، وتوجد منه نسخة في ليدن برقم ٨٢٦.

وتُرجم هذا المختصر أيضاً إلى اللغة التركية في ثلاثة أجزاء، طبعت باستنبول سنة ١٢٦٠ هـ، ثم طبع ثانية ١٢٨٨ هـ، ١٣٢٧ هـ، ثم طبع في بولاق مصر ١٢٧٥ هـ، ويوجد ترجمات أخرى إلى اللغة التركية أيضاً[1].

وترجم هذا المختصر المذكور إلى اللغة الجَغْطائية ٩٢٧ هـ/ ١٥٢١ م، بقلم واحدي بَلْخي، بأمر عبد اللطيف بن كوجكنجي الشَّيْباني الذي حكم في سنة (٩١٦ - ٩٣٧ هـ / ١٥١٠ - ١٥٣٠ م) وتوجد منه نسخة في مكتبة بطرسبرج العامة[2].

٣ - مختصر تاريخ الطبري مع إيراد زيادات إلى سنة ٣٢٠ هـ لعُرَيْب ابن سعد القرطبي (٣٦٦ هـ) مع إصلاحات وزيادات في تاريخ إفريقيا والأندلس، ويوجد منه نسخ خطية في جوتا برقم ١٥٥٤، ونقل ابن عذاري منه ما يختص بتاريخ إفريقيا والأندلس، وأودعه في كتابه «البيان المُغْرب» وطبعت أخبار العراق ملحقة بالتاريخ باسم «صلة تاريخ الطبري» من سنة ٢٩١ هـ إلى سنة ٣٢٠ هـ[3].

٤ - مختصر تاريخ الطبري لمؤلف مجهول ذكره فؤاد سزكين، ويوجد منه نسخ خطية في الأحمدية بتونس وباريس[4].

---

(١) تاريخ التراث العربي ١/٢/١٦٥.

(٢) تاريخ الأدب العربي ٣/٤٨، تاريخ التراث العربي ١/٢/١٦٥، التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٦٢.

(٣) المراجع السابقة، كشف الظنون ١/٢٢٧.

(٤) تاريخ التراث العربي ١/٢/١٦٥.

تاسعاً: تحقيق تاريخ الطبري وطبعه ونشره:

ولاستمرار أهمية تاريخ الطبري، والحاجة إليه في الحاضر والمستقبل، فقد اتجه العلماء إلى تحقيقه وطبعه ونشره، وطُبع عدة طبعات في عدد من الدول والبلاد، فمن ذلك:

١ ـ طبعة ليدن بين سنتي **١٨٧٩** و**١٨٩٨** م، أشرف عليها بعض المستشرقين، وهي طبعة ناقصة لعدم الحصول على نسخة كاملة في ذلك الوقت، وأُلحق بهذه الطبعة كتاب «المنتخب من ذيل المذيل في تاريخ الصحابة والتابعين للطبري» وقسماً من «مختصر تاريخ الطبري» وكلاهما لعُريب بن سعد القرطبي، وسموا الثاني «صلة تاريخ الطبري»، وفي هذه الطبعة مجلد للفهارس العامة.

٢ ـ الطبعة الثانية في ليدن ما بين سنتي **١٨٩٧** و**١٩٠١** م، وأشرف على التحقيق عدد من المستشرقين بإشراف دي غويه، ورجعوا إلى عدة مخطوطات من اثنتي عشرة مكتبة في أوربا والعالم الإسلامي.

وقال الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم عن هذه الطبعة بأنها من أمثل المطبوعات العربية وأدقها[١]، وتقع في خمس عشرة مجلدة، منها اثنتان للفهارس.

٣ ـ قامت المطبعة الحسينية بالقاهرة بطبع تاريخ الطبري عن النسخة الأوربية، وبإشراف يُوسُف بك حنفي، ومحمد أفندي عبد اللطيف الخطيب سنة **١٣٢٦** هـ، وجاءت في ثلاثة عشر جزءاً مع ذيله «صلة تاريخ الطبري» لعُريب بن سعد، و«المنتخب من ذيل المذيل».

٤ ـ قامت المكتبة التجارية الكبرى بمصر بنشر تاريخ الطبري، وطبعه في مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة**١٣٥٨** هـ/ **١٩٣٩** م، في ثمانية

(١) تاريخ الطبري، المقدمة ١/ ٢٩ طبعة دار المعارف.

مجلدات، ومعها «صلة تاريخ الطبري» و«المنتخب من ذَيْل المذيل»، ثم طبع في نفس المطبعة سنة ١٣٧٥ هـ/ ١٩٥٥ م، وصوِّرت هذه الطبعة مجدَّداً في مطبعة الأمير، قم، إيران سنة ١٤٠٤ هـ، وحذف في طبعة المطبعة الحسينية ومطبعة الاستقامة التعليقات والفهارس.

٥ ـ قامت دار المثنى ببغداد بتصوير تاريخ الطبري بالاعتماد على طبعة دي غويه في أربعة عشر جزءاً.

٦ ـ وجاءت مكتبة خياط في بيروت وصورت تاريخ الطبري سنة ١٩٦٥ م عن طبعة المطبعة الحسينية.

٧ ـ طبعت مؤسسة انتشارات جيهان بطهران تاريخ الطبري سنة ١٩٦٥ م.

٨ ـ وأهم طبعة لتاريخ الطبري صدرت عن دار المعارف بمصر ما بين سنتي ١٩٦٠ و١٩٦٧ م في أحد عشر مجلداً بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، وخصَّص ثلاثة أرباع الجزء العاشر للفهارس، والجزء الحادي عشر لذيول الكتاب، وهي «صلة تاريخ الطبري» لعُريب بن سعد، و«تكملة تاريخ الطبري» لمحمد بن عبد الملك الهمذاني، و«المنتخب من ذيل المذيَّل للطبري» لعُريب بن سعد.

ورجع المحقق إلى الطبعات السابقة والأصول الخطية التي لم يقف عليها المستشرقون، كما رجع إلى المصادر ذات الصلة بالكتاب مثل تفسير الطبري وسيرة ابن هشام وكتب التاريخ واللغة والأدب ودواوين الشعر، وسجَّل ذلك كله في مقدمته[1].

ويعتقد الأستاذ شاكر مصطفى أن جميع هذه العناية لم تمنع ضياع

---

(١) تاريخ الطبري، المقدمة ١/ ٣٠ طبعة دار المعارف، وانظر مقدمات بقية الأجزاء، تاريخ الأدب العربي ٣/٤٧، تاريخ التراث العربي ١/٢/١٦٣.

بعضِ تاريخ الطبري، ولكن ذلك لا يشكِّل نقصاً هاماً في جملة الكتاب أو يُقلِّل من قيمة النُّسَخ المطبوعة والمتداولة[1].

وهكذا تحقق لهذا الكتاب العظيم القيِّم البقاءُ والحفظ، واستفادت منه الأجيال على مر التاريخ، وانتشر في أيدي الناس في العالم أجمع، وطبع عدة طبعات، وتوفرت نسخه في كل البلاد، وبقي ذكرى غالية وثمينة للإمام الطبري ليتجدّد له الثواب والأجر بسبب الانتفاع بعلمه.

---

(١) التاريخ العربي والمؤرخون ١/٢٦٣.

المبحث الثالث

مَنْهَجُ الطَّبَرِيِّ في تاريخه

أولاً: المنهجية عند الطبري:

بدأت تدوين العلوم عامة، وكتابة التاريخ خاصة في منتصف القرن الثاني الهجري كما سبق، وكانت بشكل ابتدائي وكيفي، ثم اتجهت العلوم إلى التدقيق والتنظيم والترتيب في القرن الثالث الهجري.

وكان الطبري رحمه الله يتّسم بالمَوْسُوعية والشمولية من جهة، والتدقيق والتنظيم والمنهجية من جهة ثانية، وكان منهجه واضحاً ومنظَّماً في مختلف العلوم والفنون التي شارك فيها، وكان يصرِّح بخطته ومنهجه في مقدمات كتبه ومصنفاته.

وبلغ التحقيق والترتيب والمنهجية في كتابة التاريخ قمَّتَه عند الطبري، فكان أكثر من غيره تنظيماً، وأمْيَل إلى تنسيق الحوادث وترتيبها[1]، ولذلك يُعتبر الطبري شيخ مدرسة التاريخ بالمنقول التي امتدت خلال القرون الثلاثة السابقة، وكان الطبري يقصد تحرِّي الدقة في نقل الخبر، دون أن يتحوّل التاريخ على يديه إلى مجال التحليل والنظر العقلي والاستنتاج.

وصرح الطبري بمنهجه في مقدمة تاريخه، والتزم بهذا المنهج، فقال:

---

(١) وهذا ما دفع بعض الباحثين إلى تشبيه عمل الطبري في التاريخ الإسلامي بما قام به البخاري ومسلم في الحديث. انظر: التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٥٧.

«وليعلم الناظرُ في كتابنا هذا أنَّ المتمادي في كل ما أحضرتُ ذكرَه فيه، مما أنّي راسِمُه فيه، إنما هو على ما رَوَيْتُ من الأخبار التـي أنا ذاكرُها فيه، والآثارِ التي أنا مُسْنِدُها إلى رُواتِها فيه، دون ما أُدْرِكَ بحجج العقول، واستُنْبِط بفكر النفوس، إلا اليسير القليل منه، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين، وما هو كائن من أنباء الحادثين، غير واصل إلى من لم يشاهدهم، ولم يُدْرك زمانهم، إلا بإخبار المخْبرين، ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول، والاستنباط بفكر النفوس، فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يَعرف له وجهاً في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يُؤْتَ في ذلك من قِبَلنا، وإنما أُوتي من قِبَل بعض ناقليه إلينـا، وإنّما أدَّيْنا ذلك على نحو ما أُدِّي إلينا»(١).

وبالتأمل في هذا المنهج المحدد، وبالرجوع إلى نصوص «تاريخ الأمم والملوك» استخرج علماء التاريخ منهج الطبري في التاريخ، وأبدوا عليه المآخذ والملاحظات.

وسبق البيان أن تاريخ الطبري ينقسم إلى قسمين رئيسين، تاريخ قبل الإسلام، وتاريخ بعد الإسلام، ولكل قسم منهجه وطبيعته، كما سنبيِّنه إن شاء الله تعالى.

ثانياً: سمات منهج الطبري في «التاريخ» قبل الإسلام:

ويتضمن هذا القسم مقدمة عن الكون والزمان وخلق إبليس وآدم وتاريخ البشرية منذ هبوط آدم إلى الأرض، وتاريخ الأنبياء والفرس والروم والعرب قبل البعثة النبوية.

وجعل الطبري في هذا القسم تاريخ الأنبياء هو المنطلق لتاريخ

---

(١) تاريخ الطبري ١/٥.

الإنسانية، فيذكر النبيَّ ومن يعاصره من الأمم والملوك، والمقارنة بين الدول.

ولم يرتِّب الطبري الحوادث على حسب وقوعها سنة فسنة، لأن ذلك غير ممكن له، وإنما قلّد طريقة علماء التوراة بالبدء بالخليقة، ثم بذكر تاريخ الأنبياء على حسب ما ورد في التوراة، وفي أثناء ذلك يتعرّض للحوادث التي وقعت في أيام كل نبيّ، ويذكر الملوك والحكّام الذين كانوا يعارضونهم، وما جرى بينهم من حوادث وحروب، ثم عرض للأمم التي جاءت بعد الأنبياء حتى ظهور الإسلام.

ويُعرف هذا الترتيب من أهل الكتاب، ويطلق على تدوين التاريخ بهذه الطريقة «التأْريخ» تمييزاً له عن «الحَوْليات» أو النظام الحَوْلي أو النظام السَّنَوي.

ويتسم هذا القسم من تاريخ الطبري بالقصص الخيالي، ويكثر فيه الأساطير والخرافات التي تتحدث عن العهود التاريخية القديمة للإنسان، كما تظهر الحكايات والأخبار الإسرائيلية التي ترجع إلى العهد القديم وكتب اليهود، ويذكر الطبري أيضاً بعض الأساطير الشعبية الوثنية عن الأمم الأخرى.

واقتصر الطبري في هذا القسم على أصول الحوادث، وأعرض عن التفصيلات إما لخشية الإطالة، وإما لعدم الثقة بها نظراً لطول العهد، ودخول التحريف، وعدم اتصال الأسانيد، وإما لعدم أهميتها في نظره، وأنها كانت من نسج الخيال والتسليات، خلافاً لما سنراه في التاريخ الإسلامي[1].

---

(١) الطبري للحوفي ص ١٩٥.

ثالثاً: معالم منهج الطبري في التاريخ الإسلامي:

عرض الطبري تاريخ ما بعد الإسلام من خلال منهج محدد، واتّبع طريقة واضحة في معظم الأحوال[1]، والتزم بهذا المنهج والطريقة التي نذكر معالمها فيما يلي:

١ ـ **نظام الحَوْليات**: سلك الطبري في تاريخ القسم الخاص بالتاريخ الإسلامي نظام الحَوْليات، فراعى ترتيب الحوادث ترتيباً زمنياً، عاماً بعد عام، وحَوْلاً بعد حول، ابتداءً من الهجرة النَّبويَّة حتى سنة ٣٠٢ هـ/٩١٥ م، وذكر في كل سنة ما وقع فيها من أحداث مهمة، فإن كانت الحادثة طويلة جزّأها، وأشار إليها مجملة ثم يذكرها مفصَّلة في الوضع الملائم، ولذلك يختلف حجم الحوليات عنده بحسب كثرة الأحداث وأهميتها في كل حول.

وطريقة الحوليات انفرد بها المؤرخون المسلمون عن اليونان والرومان وأوربا في العصور الوسطى، ولم يبتكر الطبري هذه الطريقة، بل سبقه إليها بعض المؤرخين المسلمين مثل الهَيْثَم بن عَدي (٢٠٧ هـ) وجَعْفر بن محمد بن الأزهر (٢٧٦ هـ) وعمار بن وسيمة المصري (٢٨٩ هـ) والوَاقدي (٢٠٧ هـ) لكن تاريخ الطبري أقدم كتاب وصل إلينا على ترتيب السنين، ثم سار على هذه الطريقة بعد الطبري كثيرون، مثل ابن مِسْكَويه (٤٢١ هـ)، وابن الجَوْزي (٥٩٧ هـ) وابن الأثير (٦٣٠ هـ) وأبو الفداء (٧٣٢ هـ)، وخالفهم في ذلك اليَعْقُوبي (٢٨٤ هـ) والدِّيْنَوَري والمَسْعُودي (٣٤٦ هـ) وابن خَلْدون (٨٠٨ هـ) الذين كتبوا تاريخ الحوادث بشكل كامل ومتصل ولو استغرق سنوات، إلى أن أدخل

(١) انظر: الطبري للحوفي ص ١٩١ وما بعدها، تاريخ التراث العربي ١/٢/١٦٠، ظهر الإسلام ٢/٢٠٤، التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٥٧ وما بعدها، تاريخ الطبري، المقدمة ١/٢٤ طبعة دار المعارف.

مؤرِّخ الإسلام الذهبي (٧٤٨ هـ) في كتابه «تاريخ الإسلام» تعديلاً عليه بالتقسيم الفرعي للحوادث متتبعاً نظام العُقُود، أي من السنة الأولى إلى السنة العاشرة، وهكذا، وطبق هذا التقسيم إلى عقود على كل أجزاء كتابه (وهو ٢١ جزءاً من بداية التاريخ الإسلامي حتى بداية القرن الثامن الهجري)، واستمد الذهبي أصول هذا التقسيم من تاريخ السيرة النبوية مع الربط بآداب الطبقات والتراجم.

وطريقة الطبري في سرد أحداث كل حَوْلية ليست على نسق واحد، فتارة يذكر الحدث التاريخي، ثم يبدأ بذكر تفاصيله، والروايات التي فيه، وتارة يذكر جملة أحداث وقعت في سنة واحدة، ثم يعود إلى تفصيلها، ويختم الحولية غالباً بذكر من توفي فيها من الأعلام المشهورين، ويذكر باستمرار في ختام كل حوليّة أسماء عمال الأقاليم وأمراء الحج في تلك السنة، كما يذكر أخبار المرابطين في الثغور للجهاد، خاصة مع الروم.

أما الأخبار التي لا ترتبط بسنة معينة فكان الطبري يذكرها كاملة، فمثلاً كان يختم الحديث عن كل خليفة واستعراض الأحداث التي وقعت في عهده بذكر سيرته وترجمته.

٢ ـ **نقل الروايات**: عوَّل الطبري في أكثر كتابه على الرُّواة، كما صرّح في مقدمته السابقة، محتجاً أنّ المؤرخ لا يصحُ له أن يستند إلى المنطق والقياس والاستنباط وإنما يعتمد على ما ينقل إليه، ليدِّون الأخبار على عهدة رواتها، ويعرضها بشكل موضوعي محايد، مع عَزْوِ كلٍّ رواية لصاحبها.

وكان الطبريّ ـ رحمه الله تعالى ـ يذكر الروايات المختلفة، سواء كانت موافقة لفكره ورأيه، أم مخالفة لذلك، ولم يعلّق غالباً بترجيح، أونقد، وترك ذلك للقارىء، لكن كان أحياناً يُدلي برأيه، ويرجِّح بعض

الروايات مبيِّناً وجه الترجيح، ومستخدماً في هذه الطريقة معرفته بالحديث وطرقه.

ويذكر الطبري سند الرواية موصولاً إلى صاحبه على طريقة علم الحديث، فإذا سمع الرواية من إنسان مشافهة قال: «حدّثني» وإذا اشترك معه آخرون في السماع قال: «حدّثنا» و«أخبرنا»، وإذا كان بالمراسلة قال: «كتب إلي»، وإذا أخذ الأخبار عن الكتب أو بطريق الإجازة قدّم لعبارته بقوله: «قال» و«ذُكر» و«رُوي» و«حُدّثت عن فلان» ويهمل اسم المحدث، كما يذكر اسم مؤلف الكتاب، ولا يذكر اسم الكتاب، واستخدم الطبري اصطلاحات الحديث، التزاماً منه بمنهج المحدِّثين، في رواية الحديث النبوي، لذلك كان رجال الحديث هم واضعو أسس المنهج التاريخي.

ولكنّ الطبري، وغيره من المؤرخين، لم يلتزموا بجميع قواعد مصطلح الحديث في كتابة التاريخ للفارق الكبير بينهما، فالحديث مصدر من مصادر التشريع الإسلامي، وتؤخذ منه الأحكام الشرعية، ويمثل التطبيق العملي لأحكام الدين، وهو مصدر العقيدة، وهو المنبع لسيرة الرسول ﷺ التي يُعتمد عليها في الاقتداء والتأسِّي، ولا يرقى التاريخ إلى هذا المستوى، لذلك تساهل الطبريُّ رحمه الله في الروايات التاريخية، ولم يطبِّق على رجال السند منهج الجَرْح والتعديل، واكتفى بإلقاء العُهدة في الخبر على الرَّاوي، كما ذكر في مقدمته، واعتمد قيمة الروايات بقوة أسانيدها من جهة، وقرب السند إلى الحادثة من جهة أخرى، ومن هنا يظهر السبب في قبول الطبري لرواية الضعفاء ـ عند المحدثين، مثل محمد بن السائب الكلبي، وابنه هشام بن محمد الكلبي، وإسماعيل بن عبد الرحمن السُّدي الكبير ـ كما يقبل رواية المجهولين، والروايات المرسلة إلى ابن عباس وغيره.

وتساهل الطبري أكثر فأكثر في الأجزاء الأخيرة من الكتاب، فيقول مثلاً: «ذكر لي بعض أصحابي» و«ذكر لي جماعة من أصحابنا» و«ذكر من رآه وشاهده» و«حدثني جماعة من أهل كذا» ولعل الباعث على زيادة التساهل خوفه على محدِّثيه الأحياء من غضب الآخرين الذين تمسُّهم الرواية، ويقل السندُ أكثرَ فأكثرَ في الأجزاء الأخيرة حتى لينذر أحياناً في صفحات متتالية.

وإن استخدام الإسناد والروايات قد شاع في مختلف التصانيف والعلوم، وصار هو الصفـة الغالبة على منهج تدوين العلوم الإسلامية الأخرى، واستمر حتى نهاية القرن الخامس الهجري تقريباً، ثم قلَّ الاعتناء به، وحلّ محلّه تدريجياً النقل من الكتب والمؤلَّفات، وبقي شيء منه عند علماء الحديث للتبرّك والمحافظة على قدسية الحديث وخاصيَّة الأمة الإسلامية بالإسناد ومصطلح الحديث.

وكان السبب في استعمال طريقة الإسناد والروايات في التاريخ أن المؤرِّخين الأوائل جمعوا بين صفتي المحدث والمؤرخ، وأن الدراسات التاريخية ظهرت في أحضان علم الحديث، وما فيه من سيرة رسول الله ﷺ وشمائله ومغازيه وهديه، كما لجأ المؤرخون إلى طريقة الرواية لاختيار الروايات والسلاسل التي تتفق مع ميولهم ورغباتهم وعقائدهم.

وطريقة الإسناد تقابل في زماننا الالتزام بمنهج البحث العلمي في ذكر المصادر والمراجع للمادة المعروضة في مختلف العلوم، وفي بيان الأجزاء المركّب منها الدواء والجهاز وغير ذلك.

٣ ـ **الاعتماد على المصادر**: كان جلُّ اعتماد الطبري في الأخبار التاريخية على المصادر التاريخية التي صُنّفت قبله، وكان الطبري يذكر غالباً الإسناد إلى المصادر عن طريق الرواة الذين يذكر أسماءهم، دون كتبهم، ومعظم هؤلاء الرواة صنّفوا المؤلفات في الموضوعات التي

تطـرَّق إليها الطبري، ويأخذ من المؤلف نفسه مباشرة، أو بالواسطة عمن نقل عنهم.

وكان الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ في اقتباس الروايات التاريخية يخالف منهج المحدثين الذين يَحْرصون على نقل كل حديث بمفرده، ثم ضمّه إلى حديث آخر ولو اختلف الموضوع، أما في التاريخ فكان الطبري وعلماء التاريخ يجمعون بين الرِّوايات العديدة، ويَمْزجون بعهضا مع بعض لإخراج الحادثة متكاملة ووافية في المعنى والموضوع وأطراف الحادثة، وهذا ما يُسمَّى تاريخياً بالإسناد الجَمْعي، لحاجة كتب التاريخ والقصص والأخبار إلى السَّرْد الموضوعي، واستمرار الحوادث في نَسَق تاريخي متتابع، فتتكامل الصورة التاريخية في الموضوع، لكنهم يضطرون إلى ذكر السند لكل رواية لإتاحة الفرصة للتحقق من صحتها، والتأكد من سندهـا.

٤ ـ جمع الأخبار وضبط النصوص: حرص الطبري ـ رحمه الله ـ على ذكـر أحداث كـل سنة بشكـل أخبار، ولكنـه يـذكـر غـالبـاً للحادثة الواحدة روايات مختلفة لاعتقاده بوجوب ذكرها، ويقف غالباً عند هذا الحدّ، فلا ينتقد الروايات المختلفة التي ذكرها، ولا يناقش مضمونها، ولا يرجِّح بعضها على بعض، لذلك أطلق عليه بعض المؤرخين اسم «الجمّاعة» وأطلقوا على كتابه اسم «مجموع» خلافاً لمنهج الطبريّ في التفسير، فإنّه يناقش الروايات، ويبيِّن الراجح، ويبدي رأيه باستمرار.

وكان الطبري يحرص أيضاً في التاريخ على ضبط النصوص التي يرويها دون تبديل، حتى ولو كان في النص كلمات أعْجمية، ونصوص أعجمية، وأشعار فارسية.

٥ ـ الاستطراد في ذكر الأسباب والتفصيلات المصاحبة: فيذكر

الطبري السبب في كل حادث يسجّله، وهذا أمر طيّب لإلقاء الضوء عليه، كما كان يستطرد في عرض التفصيلات المتعلقة بالأحداث، ويعرض الحواشي المصاحبة لها، لأنها تتعلق بهـا، ثم يعود إلى الموضوع الرئيس الذي بدأ به، ويذكِّر القارىء فيه بقوله «نعود إلى سياق خبر كذا وكذا، أو سياق خبر فلان أي راوي الخبر، أو نرجع إلى حديث فلان».

٦ ـ **وضع العناوين للأحداث**: ويمتاز الطبري في منهجه التاريخي بوضع عناوين للأحداث التـي يَعْرِضها، وخاصة للأحداث المهمة التي تحتل المكانة الأولى في السنة التي يُؤرِّخ لها، ويقدم عناوينه بمقدمة عن الحادث المعيَّن للتأكيد على كلمة «سبب»، أما الأحداث الصَّغيرة فإنه يذكرها متعاقبة دون عناوين.

٧ ـ **التوسّع في سيرة الخلفاء**: يظهر من تاريخ الطبري أنه يعطي الخلفاء أَوْلويّة خاصة، وأهمية متميّزة، وكأنَّ التاريخ محيطٌ بهم، ويدور في فلكهم، وأن حياتهم ذات أثر كبير في غيرهم، للمثل القائل «الناس على دين ملوكهم»، وانعكاس أعمالهم على فعاليات الأمة، فكان الطبري إذا ذكر خليفة بيّن سبب وفاته، وساق الروايات في ذلك، وعرض جانباً من أحواله وأقواله وتصرّفاته وسيرته العامة والخاصة، ويطيل أحياناً في الخلفاء المهمّين كما فعل في سيرة الخلفاء الراشدين، ومعاوية بن أبي سفيان، وعبد الملك بن مروان، وعمر بن عبد العزيز، والمنْصُور، والمهْدي، والرَّشيد.

٨ ـ **الإكثار من الوثائق التاريخية**: أكثر الطبري من إيراد الوثائق التاريخية لمادته العلميـة، لذلك اعتبر تاريخه أوثق مصادر التاريخ الإسلامي، كما وصفه ابن خلكان سابقاً بأنَّه «أصحُّ التواريخ وأثبتُها» وكذلك يُعتبر تاريخ الطبري أوثق ما دُوِّن في السيرة النبوية، وهذا ينمّ عن

دقة الطبري وتحقيقه وسعة اطلاعه، وهو ينسجم مع منهج الطبري العلمي والدقيق في مختلف كتبه ومصنفاته.

وعلى سبيل المثال تضمَّن تاريخ الطبري حوالي ثلاثين وثيقة تتعلق بالسيرة النّبوية، أكثرها في العهد المدني، وتضمّن حوالي خمسين وثيقة تتعلق بعصر الخلفاء الراشدين، وذكر الطبري بعض الوثائق للعهد الأموي، تُعتبر فريدة وهامّة، كما التزم هذه الدقة في تاريخ الروم والفرس والعرب، بالإضافة إلى الوثائق الأدبية.

٩ ـ تسجيل النُّصُوص الأدبية: وهنا يُكثر الطبري من ذكر النصوص الأدبية المرتبطة بالأحداث، كالشعر والخطابة والرسائل والمحاورات ذات الصلة بالمناسبات التاريخية(١).

والطبري في هذه الناحية يتبع منهج الؤرخين في عصره، ورواة الأخبار قبله، الذين يحرِصُون على تدوين الشعر الذي يتصل بالموضوع، كما كان الأدباء يستعينون بالأخبار التاريخية لبيان مناسبات القصائد، والأحداث التي سبقتها، والأخبار التي عرضتها، وأسماء الأشخاص المذكورين فيها، ولذلك امتزج التاريخ بالأدب، وصار المؤرِّخ غالباً راوية للأدب، وصار الأديب مؤرِّخاً.

ومن الأمثلة الأدبية التي ذكرها الطبري خُطبة زياد بن أبيه بالبصرة سنة ٤٥ هـ، (٦/١٢٤) وخطبة الحجاج بالكوفة سنة ٧٥ هـ (٧/٢١٠) وخطبة عبد الملك بن مروان بدمشق (٧/١٧٥) وخطبة خالد القَسْري بمكة (٨/٨٠) وخطبة الحسين بن علي في أصحابه (٦/٢٢٩) والحوار

(١) يقول أحمد أمين: «وكتابه هذا، مع أنه تاريخي في أصله، فالقارىء له يقف على ثروة كبيرة في الأدب، لأنه في حكايته للروايات المختلفة يقصُّها في لغة رصينة بليغة، غاية في القوة» (ظهر الإسلام ٢/٢٠٤).

بين عبدالله بن الزبير وأمّه أسْماء حينما حاصره الحجاج بمكة (٧/٢٠٢) والحوار بين الخوارج والمهلب بن أبي صُفْرة (٧/١٩١) ورسالة المختار الثقفي إلى محمد ابن الحَنَفِيَّة (٧/١٢٧) والقصائد الكثيرة التي تظهر جلية على صفحات «تاريخ الطبري».

١٠ ـ **الحياد والواقعية**: كان الطبريُّ ورعاً وتقياً ودقيقاً، وكان في الوقت نفسه ملتزماً بمذهب أهل السنة والجماعة، وعقيدة السلف، ومع ذلك كان يورد الروايات المختلفة في الأحداث، دون مَيْل مع أي هوى في إيراد الأخبار التاريخية، وكان في الغالب حيادياً بتصوير الأحداث، وترك الحكم عليها للقارىء، وعدم ممارسة النقد في الروايات وفي المتون، لأنه يعتقد أن أحاديث التاريخ لا تُبنى عليها أحكام شرعية، باستثناء الشؤون السياسية، وخاصة في العصر الراشدي، فكانت هذه الأحداث ذات انعكاس إيجابي وسلبي على المجتهدين في التطبيق الصحيح للشرع.

والطبري في نفس الوقت جريء في قول الحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، وقد تعرض في «تاريخه» لذكر كثير من الأحداث التي لا يرضى عنها العباسيون أنفسهم؛ وهم الخلفاء وأصحاب السلطة والنفوذ[١].

رابعاً: المآخذ على تاريخ الطبري:

قلَّما يسلم عمل إنسان من نقص، أو يصدر بشكل كامل، فإن الكمال لله وحده، وكل عمل للبشر معرَّض للنقص والخطأ، والنقد والمآخذ، ولذلك سجَّل علماء التراجم والتاريخ عدة ملاحظات على تاريخ الطبري

(١) انظر: ظهر الإسلام ٢/٢٠٤.

والمادة العلمية فيه، وعلى منهجه الذي سلكه، ونبدأ الآن بالمآخذ التي أوردها العلماء على المادة التاريخية فيه[1]، وأهمها:

١ ـ لم يحفظ الطبري التوازن بين فترات التاريخ قبل الإسلام وبعده، لأنه عرض تاريخ العالم منذ بدء الخليقة وهبوط آدم وتاريخ الأنبياء والأمم والدول في مجلد واحد يساوي تقريباً عُشْر الكتاب، بينما عرض التاريخ الإسلامي بتوسُّع، وأفرد له تسعة أعشار الكتاب.

ولكن هذه الملاحظة لا تَرِدُ على الطبريّ رحمه الله، لأنه لا يريد حقيقة أن يؤرِّخ للعالم، ليحقِّق التوازن، ولكنه قصد أن يكتب التاريخ الإسلامي فحسب، وقدَّم لكتابه بتمهيد ومدخل للتاريخ السابق، ولذلك كان تاريخ الطبري أجلّ وأعظم كتاب عن التاريخ الإسلامي في القرون الثلاثة الأولى، وصار المرجع لكل من جاء بعده.

٢ ـ أسرف الطبري بذكر الإسْرائيليات والخُرافات والأوهام والحكايات فيما يتعلق ببدء الخلق وقصص الأنبياء والتاريخ القديم، دون أن يُمحِّص ذلك ويَعْرِضه على النقد والمنطق والعقل وما جاء في القرآن والسنة.

وهذه الملاحظة لم ينفرد بها الطبري، بل شاركه فيها بقية المؤرخين، لأن مصدر المعلومات لهم غالباً في ذلك هم أهل الكتاب، الذين عَرَضوا هذه المعلومات عن بدء الخليقة، ولا يوجد مرجع آخر فيها، فنقل المؤرِّخون ذلك دون تمحيص أو تدقيق أو تعليق[2].

---

(١) التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٦٠ وما بعدها، الطبري للحوفي ص ٢٠٤، ظهر الإسلام ٢/٢٠٤.

(٢) قال أحمد أمين: «إن كثيراً من تاريخ الأمم القديمة ليس إلا خرافات وأوهاماً، ولكن عذر الطبريّ في ذلك أن هذا هو ما كان معدوداً في وقته، وليس له من الوثائق ما يستطيع أن يذكر به التاريخ الصحيح» ظهر الإسلام ٢/٢٠٣.

٣ ـ اقتصر الطبري في تاريخه عما نقله من المصادر والأسناد الماضية، وهذا صرفه عن النظر في أحداث عصره، فلم يُسجِّلها في كتابه، ولم يُؤرِّخها، فجاءت الأحداث التي عاصرها باهتة ومختصرة جداً، مع أن الطبري كان على اطِّلاع واسع بها، وكانت خبرته جيدة، ورحل إلى عدة أقطار في العالم الإسلامي، وعاش دهراً طويلاً وقعت فيه أحداث كبيرة وأمور مهمة، فلم يولِ اهتمامه بجيله وعصره، وظهر فيما كتبه عنه الضعف والإيجاز المخلّ.

ولعل الباعث للطبري على ذلك تصوُّرُه لدراسة التاريخ وفهمه له بأنه مستودع خبرات الأجيال السابقة فقط، وأنه يكتب لأبناء جيله الذين يشاركونه في معرفة الأحداث ومجريات الأمور، فلا يأتيهم بجديد، وفاته أن الأجيال اللاحقة بحاجة ماسة للمعرفة التفصيلية للجيل الذي عاصر الطبري، وخاصة أنه شاهدُ صدق على ما يقول، وأنه أقرب من غيره لتسجيل هذه الأحداث، فحَرَمَ التالين من ذلك، ولو أرّخ لعصره لقدّم لغيره مادة غزيرة وموثّقة.

٤ ـ كان فهم الطبري للتاريخ العالمي أقل وأضيق من فهم بعض المؤرِّخين السابقين له كاليَعْقوبي وابن قُتَيْبَة مثلاً ـ في نظرتهم الشمولية، بينما اقتصرت نظرة الطبري إلى تاريخ العالم على الخطّ الذي يصل بين الأنبياء والعهد الجاهلي كمقدمة للتاريخ الإسلامي.

وقد يكون عذر الطبري في ذلك أنه يريد التاريخ الإسلامي بحدّ ذاته، وذَكَرَ تاريخ الأمم والملوك الآخرين كمقدّمة فقط، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن التاريخ القديم قليل المصادر، ومصادره غير معتمدة، والثقة فيها غير متوفِرة، والخَيال فيها والخرافة والأساطير من بنات الأفكار أكثر من الحقائق، فأخذ الطبري جانباً من ذلك، لأن ما لا يُدْرَك كلّه لا يُترك جلّه.

٥ ـ كان الطبري **مهتماً في تاريخه بالأحداث السياسية**، فحصر تاريخه غالباً في المشاكل الداخلية للدولة، وما يتصل بالسياسة الداخلية، وأغفل كثيراً الحديث عن الفتوحات الإسلامية كالأندلس وغيرها، وأعرض عن بيان العلاقات الدولية، وحتى في العلاقات بين الدولة الإسلامية والدول المجاورة لها كالبيزنطية والإفرنجية، وأحوال هذه الدول وأمرائهم، وفي الأمور الداخلية اهتم بالحَدَث السياسي، ولم يولِ أمور الإدارة والقضاء والاقتصاد، والاجتماع أيَّ عناية[١].

وهذا الأمر يشترك فيه الطبري مع بقية المؤرِّخين، لأنَّ التاريخ كان مركَّزاً على الحكَّام والأمراء، ولم يلتفت إلى الجوانب الحضارية والإدارية والاقتصادية، إلى أن تطور علم التاريخ، واتجه إلى بقية عناصر الحياة، وبلغ أوجه في عهد ابن خلدون وكتبه.

٦ ـ كان مفهوم التاريخ عند **الطبري متأثراً بالنزعة الدينية** أكثر من تأثره بالنظرة التجاربية، فأحداث التاريخ تعبير عن المشيئة الإلهية، والتاريخ مستودع خبرات عليا للأمة، دون اهتمام بقيمة التجارب التي مرت بها، ورسالتها التاريخية الواحدة.

وهذه الملاحظة تُعتبر مزيّة لتاريخ الطبري المحدِّث والمفسر والمجتهد والعالم والحافظ للقرآن، والإمام لمذهب فقهي عملي في الحياة، وأن الطبري المحدّث عبّر عن وجهة النظر الدينية الإسلامية عامة، ووجهة نظر المحدِّثين في كتابة التاريخ بفكرة تكامل الرسالات السماوية في التاريخ، وأنه تعبير عن المشيئة الإلهية، فكان تاريخه قريناً ومكمِّلاً لتفسيره، فالتفسير لتوضيح إرادة الله في كلامه، والتاريخ يوضح إرادة الله في مسيرة البشرية[٢].

---

(١) ظهر الإسلام ٢/٢٠٤.

(٢) انظر: ظهر الإسلام ٢/٢٠٦.

خامساً: المآخذ على منهج الطبري:

تعرض علماء التاريخ لبيان المآخذ على منهج الطبري في تاريخه، وقدَّموا عدة ملاحظات عليه[1]، نذكر أهمها:

١ ـ **ضمور النقد عند الطبري**: وذلك أنه اكتفى بسرد الروايات، وبيّن في مقدمته أنه يرمي العهدة على الرواة، ووقف خارج الأحداث، وملتزماً بالرواية، ولم يعدِّل الرواة، ولم يُجرِّحهم، مع أن الطبري من علماء الحديث، ويمكنه الالتزام بطريقة المحدّثين في مجرَّد سرد الرواية دون تعرّض لمتنها، كما أنه يفعل فعلهم في التعديل والتجريح للرواة، ولذلك يُعتبر ضمور النقد عند الطبري في التاريخ نقطة ضعف ونقص، وإن اعتُبرت في الحديث أمانة وميزة، وقد ذكر الطبريّ أحياناً روايات غير معقولة، أخذها عليه المؤرِّخون بعده بإيرادها دون نقد وتفكير، وأنها منافية للعقول، ولا يجوز أن تُسطَّر في الكتب، ولم يشر إلى الروايات المكذوبة.

وهذه النظرة من الطبري إلى التاريخ تحصره في نطاق المعرفة، وتجرِّده من العظة والاعتبار والتأسّي من جهة، خلافاً لابن مِسْكويه في كتابه «تجارب الأمم» قاصداً بيان التجارب التي مرّت بالسلف، ويحسن بالخلف أن يطَّلِع عليها، ويستفيد منها، ويتّعظ بها، كما أبعدت نظرة الطبريّ للتاريخ المؤرِّخَ عن التدخّل في الأحداث وتحليلها وبيان مدلولاتها، وهو ما يتجه إليه المؤرِّخون المتأخرون.

لكن الطبري رحمه الله أدْلى بدلوه أحياناً، وأبدى رأيه، ورجَّح ما يراه قوياً بقوله «والصحيح عندنا»، و«أنا أشك في ذلك» وقوله «وقد زعم

---

(١) التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٥٩، الطبري للحوفي ص ٢٠٤، ظهر الإسلام ٢/٢٠٤ وما بعدها، تاريخ الطبري، المقدمة ١/٢٥ طبعة دار المعارف.

بعضهم كذا» وهو توجيه نقدي واضح، كما أنّه لم يعتمد من الأصل في النقل على من كان فيه مظنّة شبهة، من أمثال محمد بن السائب الكلبي، ومقاتل بن سليمان إلا في النُّدْرة، واعتمد على المؤلَّفات التي يثق بها مثل كتب سَيْف بن عمر في التاريخ، كما أن رجال الحديث والتاريخ في الأصل لم يتشدَّدوا في الرواية التاريخية تشدُّدَههم في الحديث النبوي الشريف، وكان عمل الطبري في التاريخ جليلاً، لأنه حفظ لنا الروايات من الضياع، ونسّقها تنسيقاً جيداً، ولولاه لضاع معظمها، وحُرمنا من معرفتها.

٢ ـ **عدم ذكر الكتب والمؤلفات**: كان الطبري يَرْوي التاريخ عن الرواة والمؤرخين، دون أن يحدِّد الكتاب المأخوذ منه، وكان لكثير منهم عدد من الكتب، فَسَيْف بن عمر له كتاب الفتوح، والردة، وموقعة الجمل، وغيرها، والواقدي له كتاب المغازي، والردة، والتاريخ الكبير، وهشام الكلبي له مائة وأربعون كتاباً ذكرها ابن النديم، واستخرج فرانز روزنثال أسماء الكتب الواردة في الفهرست لكل واحد من المؤلفين، مصنَّفَة حسب مواضيعها[١].

ولو ذكر الطبري أسماء الكتب لاستطاع الباحثون الرجوع إلى ما بقي منها، ولعرف الخلف مؤلفات السلف للتنقيب عنها، وتحقيق ما سلم من الضياع منها، والمقارنة بين نصوصها ونصوص الطبري. . .

٣ ـ كان الطبري **يقطع الأحداث بالروايات المتعددة، وبالسنين المتعاقبة**، فيقطع الرواية الواحدة إذا وقع فيها خلاف، فيذكر الرواية أو الروايات المخالفة ثم يعود للرواية الأولى، فتتداخل الروايات وتتشابك، ويتشتّت معها القارىء، وينشغل بالفروع عن الحادث

---

(١) انظر: الفهرست ص ١٣١ وما بعدها، علم التاريخ عند المسلمين ص ٢٧٣.

الأصيل، مع ما في طريقة الطبري من أمانة ودقة، وكان يمكنه تحقيق هدفه بعرض كل رواية عرضاً كاملاً، ثم بالتعقيب عليها بغيرها، ثم بالموازنة فيما بينها، وترجيح بعضها على بعض.

وكان منهج الطبري «الحولي» يضطره إلى تجزئة الحادث الذي امتد عدة سنوات، فتتبعثر صورته، ويفقِد وَحْدته وموضوعه، مما يصعب معه على القارىء أنْ يُلمَّ بالحادث الواحد متكاملاً.

٤ ـ **التركيز على الجانب السياسي**، وهو ما فعله أكثر المؤرخين الذين كتبوا في التاريخ العام، وتأثّر الطبري رحمه الله بهم وبروح العصر الذي عاش فيه، ولذلك قال السخاوي عنه: «وهو جامع لطرق الروايات، وأخبار العالم، لكنه مقصور على ما وضعه لأجله من علم التاريخ والحروب والفتوحات»[1]، وحتى في الجانب السياسي يُغفل الطبري أسماء الولاة والموظفين، ويُغفل أحياناً بعض الحركات المعارضة للسلطة.

وبعد: فإن هذه الملاحظات على تاريخ الطبري، والمآخذ على منهجه، لا تقلِّل من قيمته، ولا تُنْقص من أهميته، وأنه كتاب جليل القدر، عظيم القيمة، وأنَّه المرجع الأول للتاريخ العربي الإسلامي، ويحتل الصدارة عند المؤرخين، ويتبوّأ المكانة الأولى بين كتب التاريخ، وأنه المرجع الأصيل لكل من كتب في التاريخ، والمصدر الأساسي لمن جاء بعده من المؤرِّخين، ويمثّل صفحة مشرقة، وصورة ناصعة للثقافة التي جمعها الطبري في ذهنه، ومثّلها لأبناء عصره وجيله، وبقي تاريخ الطبري ماثلاً في الأذهان طوال الأجيال الماضية، وسيبقى بمشيئة الله

---

(١) الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ أهل التوريخ ص ٦٦٩ ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين.

تعالى أمام العين والقلب، والعقل والفكر، في المستقبل، فجزاه الله خيراً، وأعطاه ما يستحق من الثواب والأجر.

يقول الأستاذ شاكر مصطفى: «وعلى أي حال، فإن ما قد يُوجّه إلى منهج الطبري، وإلى تاريخه من نقد لا يمكن أن يُلغي شيئاً من قيمته كمؤرخ أوّل، انتهى به العصر الأول للتدوين التاريخي، وكمؤلِّف ظلت أجيال المؤرخين في العصور التالية عِيالاً على كتابه في كل ما يتصل بالقرون الثلاثة الأولى من تاريخ الإسلام»[1].

---

(١) التاريخ العربي والمؤرخون ص ٢٦١.

الفصل الخامس

الطَّبَريُّ وبقيّة العُلُوم الشَّرْعيَّة

الطبري موسوعة علمية:

كان الطبريّ ـ كما سبق ـ موسوعة علمية، ودائرة معارف، درس جميع العلوم، وضرب فيها جميعها بسهم وافر، ولذلك وصفه عبد العزيز الطبري بقوله: «كان كالقارىء الذي لا يعرف إلا القرآن، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث، وكالفقيه الذي لا يعرف إلا الفقه، وكالنحويّ الذي لا يعرف إلا النحو، وكالحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب، وكان عالماً بالعبادات، جامعاً للعلوم، وإذا جمعت بين كتبه وكتب غيره وجدت لكتبه فَضْلاً على غيره»(١).

ولم يقتصر نشاطه وتصنيفه في التفسير والتاريخ والفقه، بل كان متفوّقاً كذلك في الحديث، ، وهو محدِّث حافظ، وصنف فيه الكتب الفريدة، كما كان قارئاً، وله قراءة مشهورة في زمانه، وصنّف كتاباً في القراءات، كما كان إماماً في العقيدة وأصول الدين، وصنف في ذلك، وبثّ عقيدة السلف وآراء أهل السُّنَّة والجماعة في مختلف كتبه، ثم أفرد ذلك بمصنَّفات، كما كان يزكّي نفسه، ويؤدِّبها، ويرعى الآداب الإسلامية ويدعو إليها، وصنف كتاباً في آداب النفوس.

ولذلك خصّصنا هذا الفصل لمشاركة الطبري في بقية العلوم الشرعية، وأفردنا كل علم بمبحث، فجاء في أربعة مباحث.

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٦١.

المبحث الأوّل

الطَّبَريُّ مُحَدِّثًا

أولاً: تعريف علم الحديث وأهميته:

علم الحديث أحد العلوم الشرعية الأساسية، وعرّفه السيوطي بقوله: «علم بقوانين يُعرف بها أحوال السند والمتن»(١)، أي هو الإدراك والمعرفة والاطلاع على القواعد والضوابط التي تكشف عن صفات وكيفية حكاية رجال الحديث الذين رَوَوْه واحداً عن واحدٍ إلى رسول الله ﷺ، ومعرفة الكلام دقّةً وضبطاً وترتيباً باللفظ الذي نطق به رسول الله ﷺ، وما يتعلق بالمتن من رفع، أو وقف، أو شذوذ، أو اضطراب، أو صحة، أو قطع(٢).

والحديث الشريف هو المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، لذلك يهدف علم الحديث إلى حفظ أحاديث الرّسول عليه الصلاة والسلام، وصَوْنها عن الخلل في النقل، أو الخلط في الرواة والسّند، أو الدّس والافتراء في المتن، ومعرفة المقبول من المردود، والصحيح من غيره، بقصد حفظ الدين من التحريف والتبديل، والدقة في نقل الأمة للحديث النبوي، والتحرر من التساهل أو الخطأ أو التفريط أو الكذب على رسول الله ﷺ الذي حذّر من ذلك، ورهّب من هذا العمل الشنيع، والصنيع الخطير، بقوله ﷺ في الحديث المتواتر: «من كذب عليَّ

---

(١) النقاية ص ٧٦ على هامش مفتاح العلوم.

(٢) انظر: أصول الحديث ص ٨، منهج النقد ص ٢٤ وما بعدها.

متعمَّداً فليَتَبَوَّأ مَقْعَدَه من النَّار»، وتمَّ ـ بفضل علم الحديث الذي انفردت به الأمة الإسلامية، وبفضل جهود العلماء فيه ـ حفظُ الأحكام الشرعية، ونقلُها للأمّة والأجيال المتلاحقة، وتصفيته من الخرافات والإسرائيليات والأباطيل والدس وما تسرب إلى البلاد الإسلامية من أديان الفرس والهند والصين، وفلسفات الإغريق واليونان والرومان[١].

وكان شباب الإسلام يقصدون تحصيل علم الحديث بعد حفظ القرآن وعلوم القرآن، ومعرفة الفقه والأحكام، لأنَّ علم الحديث يأتي في الدرجة الثالثة بين العلوم الشرعية.

ثانياً: الطبري يطلب الحديث:

وهذا ما فعله الطبري رحمه الله تعالى، فحفظ القرآن في صغره، ثم اتجه إلى حفظ أحاديث رسول الله ﷺ وكتابتها، وروايتها عن المحدثين في وطنه، ثم في البلاد التي رحل إليها.

روى الشجري[٢] عن الطبري قال: «حفظت القرآن ولي سبع سنين، وصلَّيْت بالناس وأنا ابن ثمان، **وكتبتُ الحديث وأنا ابن تسع سنين**»[٣].

فأول ما كتب الحديث بآمل، ثم رحل إلى الريّ وما جاورها، فأخذ عن محمد بن حُمَيْد الرَّازيّ، واختص به، وبلغ ما أخذه عنه الطبري في الريّ مائة ألف حديث، ثم شَخِص إلى بغداد، وكان في نفسه أن يسمع من الإمام أحمد بن حنبل، ويأخذ عنه الحديث، ولكنه لم يكد يصل إليها حتى علم بوفاته سنة ٢٤١ هـ أي قبل دخوله بقليل، فأخذ الأحاديث

---

(١) انظر: كتابنا تعريف عام بالعلوم الشرعية ص ٧٧.

(٢) هو أحمد بن كامل الشجري، القاضي، كان عالماً بالأحكام والقرآن والأدب والتاريخ، ولي قضاء الكوفة، وهو من أهل بغداد، توفي سنة ٣٥٠ هـ، (الأعلام ١/ ١٩٠).

(٣) معجم الأدباء ١٨/ ٤٩.

عن علماء البلاد التي رحل إليها في طلب الحديث، فأخذه عن الجمّ الغفير في بلاد الأعاجم، والعراق والشام، ومصر والحجاز، وأخذ عن كبار المحدثين مباشرة، وعن عدد كبير من الشيوخ[١].

قال ابن النديم: «وأدرك الأسانيد العالية بمصر والشام، والعراق والكوفة والبصرة والرَّي»[٢].

ونقل ياقوت عن ابن كامل الشجري أنه قال: «فأول ما كتب الحديث ببلده، ثم بالريّ وما جاورها، وأكثر من الشيوخ حتى حصّل كثيراً من العلم»[٣].

ثالثاً: شيوخ الطبري في الحديث:

وهنا نذكر بعض شيوخ الطبريّ الذين رَوَى عنهم حديث رسول الله ﷺ وذَكَر بعضهم في تفسيره في صدر الأسانيد، وذكرهم ياقوت وابن النديم وابن السُّبكي والخطيب البغدادي وابن الجَزَري وغيرهم في ترجمة الطبريّ[٤]، ومنهم:

- أحمد بن حمّاد الدُّولابي، أخذ عنه الطبري في الريّ كتاب المبتدأ والمغازي عن سلمة بن المُفَضَّل عن محمد بن إسحاق مؤلِّف المغازي.

---

(١) إنباه الرواة ٣/٨٩، معجم البلدان ١٨/٤٩، ٥٠.

(٢) الفهرست ص ٣٢٦.

(٣) معجم البلدان ١٨/٤٩.

(٤) انظر: الفهرست ص ٣٢٦، معجم الأدباء ١٨/٤٩ وما بعدها، تاريخ بغداد ٢/١٦٢، طبقات الشافعية الكبرى ٢/١٢١، طبقات القراء ٢/١٠٧، تفسير الطبري ٣٠/٣٩٧، تفسير الطبري ١/٣ طبعة دار الفكر، خلاصة تذهيب تهذيب الكمال ١/٧٠، ٢/٦١، ٣/٢٧٣، ٢٨٧.

٢ ـ أحمد بن المِقداد بن سليمان بن الأشعث العِجْلي، أبو الأشعث البصريّ الحافظ (المتوفى ٢٥٣ هـ).

٣ ـ أحمد بن مَنيع بن عبد الرحمن البَغَـويّ، أبو جعفـر الأصمّ، صاحب المسند (ت ٢٤٣ هـ).

٤ ـ إسحاق بن أبي إسرائيل إبراهيم (كامَجْر) المَرْوزي، أبو يعقوب، نزيل بغداد، الحافظ (٢٤٥ هـ).

٥ ـ إسماعيل بن موسى الفَزَاريّ، أبو محمد ابن بنت السُّدّيّ (ت ٢٤٥ هـ).

٦ ـ بشر بن معاذ العَقَديّ، أبو سهل البصري الضرير (٢٤٥ هـ).

٧ ـ عُبيد الله بن إسماعيل الهباريّ.

٨ ـ عُبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فَرّوخ المَخْزوميّ مولاهم، أبو زُرْعة الرازيّ، الحافظ، أحد الأعلام والأئمة (٢٦٤ هـ).

٩ ـ عُمْران بن موسى بن حِبّان الليثي البصري القَزّاز (بعد سنـة ٢٤٠ هـ).

١٠ ـ عَمْرو بن عليّ بن بحر بن كُنين، أبو حفص الصَّيْرفي، الفلّاس، الحافظ أحد الأعلام (ت ٢٤٩ هـ).

١١ ـ محمد بن بشّار بن عثمان العَبْدي، أبو بكر البصري الحافظ، أحد أوعية السنّة، (٢٥٢ هـ).

١٢ ـ محمد بن حُمَيد بن حيَّان التميمي، أبو عبدالله الرازيّ الحافظ (٢٤٨ هـ) أخذ عنه الأئمة كأحمد بن حنبل والترمذي، وبلغ ما أخذ عنه الطبريّ في الري مائة ألف حديث.

١٣ ـ محمد بن العلاء بن كُرَيب الهَمْداني الحافظ، أبو كُرْيب شيخ الجماعة (٢٤٨ هـ)، وبلغ ما رواه عنه الطبري أيضاً مائة ألف حديث.

١٤ ـ محمد بن المُثَنَّى بن عُبيد الله بن قيس العَنَزي، أبو موسى الزَّمِن البصريّ الحافظ (٢٥٢ هـ).
١٥ ـ هنَّاد بن السَّرِيّ بن مُصْعَب التميمي الدارمي الحافظ (٢٤٣ هـ).
١٦ ـ الوليد بن شجاع بن الوليد السَّكوني، أبو همّام الكوفي (٢٤٣ هـ).
١٧ ـ يعقوب بن إبراهيم بن كثير العبديّ الدورقيّ الحافظ، صاحب المُسْند (٢٥٢ هـ).
١٨ ـ يونس بن عبد الأعلى بن مَيْسرة بن حفص الصَّدَفي، أبو موسى المِصْري، أحد الأعلام (٢٦٤ هـ) وقد أخذ عنه الطبري الحديثَ ومذهبَ مالك والشافعي في مصر.

ومن أخذ عنهم الطبري الحديث أيضاً:

١٩ ـ محمد بن عبد الملك بن أبي الشَّوارب الأُموي، أبو عبدالله الأُبُلِّي (٢٤٤ هـ).
٢٠ ـ عبدالله بن سعيد بن حُصَين الكِندي الكوفي، أبو سعيد الأشجّ الحافظ (٢٥٧ هـ).

رابعاً: الطبري محدثاً وحافظاً:

جمع الطبري حديث رسول الله ﷺ، وحفظ منه الكثير الكثير، وكان ثقة في الرواية، وحدَّث الناسَ بحديث رسول الله ﷺ، وأخذ الكثيرون عنه الحديث، وصنف فيه الكثير الطيب، وصار أحد المحمّدين الذين اجتمعوا في مصر في أيام ابن طولون. وهم محمد بن إسحاق ابن خزيمة، إمام الأئمة، ومحمد بـن نَصْر المَرْوَزيّ، ومحمد بن هارون الرُّوْيانيّ، ومحمد بن جرير الطبريّ، وكانوا يلتقون ويجتمعون في الحياة الاجتماعية والعلمية، ولهم قصص طريفة[1].

(١) انظر: البداية والنهاية ١١/١٤٦، معجم الأدباء ١٨/٤٦.

وأثنى العلماء كثيراً على مصنفات الطبريّ في الحديث، كما سنرى، كما أثنوا على روايته وحديثه وتوثيقه، فقال الذهبيُّ عنه: «ثقة صادق، فيه تشيع يسير، وموالاة لا تَضُرُّ» ثم نقل أن «السليماني أقذع فيه، واتهمه بالرفض» وردّ الذهبي فقال: «بل إنَّ ابنَ جرير من كبار أئمة الإسلام، فإن كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يُتأنّى فيه، ولا سيَّما في مثل إمام كبير، فلعل السُّليماني أراد الآتي: محمد بن جرير بن رستم، أبو جعفر الطبري، رافضي، له تواليف، منها كتاب «الرواة عن أهل البيت» رماه بالرفض عبد العزيز الكتاني»[1].

كما تظهر شخصية الطبري الحديثية في كتبه عامة، كالتفسير والتاريخ والقراءات وغيرها، فكان يعتمد على الرواية والأسانيد، ويلتزم بطريقة المحدثين في النقل، ويسير ـ غالباً ـ على منهجهم في النقد والمناقشة والترجيح.

خامساً: تلاميذ الطبري في الحديث:

كان عطاء الطبري جمّاً في التصنيف والتدريس، وكان له تلاميذ كثر، أخذوا عنه علمه، وأملى عليهم كتبه، ورَوَوْا عنه الأحاديث، ونذكر هنا بعض تلاميذ الطبري في الحديث الذين سمعوا منه الحديث في عدة بلدان، ومنهم:

١ ـ أحمد بن كامل بن خَلَف بن شجرة، البغدادي الشجري القاضي من أهل بغداد، كان عالماً بالأحكام والقرآن والأدب والتاريخ، وله عدة مصنفات، ولي قضاء الكوفة، وكان متساهلاً في الحديث، توفى سنة ٣٥٠ هـ[2].

---

(١) ميزان الاعتدال ٣/٤٩٩، وانظر ترجمة ابن رستم الرافضي في (سير أعلام النبلاء ١٤/٢٨٢) وانظر: وفيات الأعيان ٣/٣٣٢، الرسالة المستطرفة ص ٤٣.

(٢) الأعلام ١/١٩٠، طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢١، تاريخ بغداد ٢/١٦٢، تاج =

٢ ـ سُليمان بن أحمد بن أيوب اللخْمي الشَّامي ٣٦٠ هـ[١].

٣ ـ أبو شُعَيْب الحرَّانيّ، روى عن الطبري مع تقدُّمه عنه، وهو أكبر من الطبري سِنّاً وسَنَداً[٢].

٤ ـ عبد الغفَّار الحُصَيْبي[٣].

٥ ـ محمد بن أحمد بن حَمْدان بن علي بن عبدالله بن سِنان، أبو عمرو، الحِيري، النَّيْسابوري (٣٧٦ هـ) الزاهد المقرىء، الفقيه، المحدّث، النَّحْوي، سمع من محمد بن جرير الطبري[٤].

٦ ـ محمد بن شعيب بن إبراهيم النَّيْسابوري (٣٢٤ هـ) الفقيه العِجْلي، أبو الحسن، البيهقي، أحد الأئمة المشهورين بالفصاحة والبلاغة والبراعة والفقه والإمامة، سمع الحديث بالعراق من الطبري وغيره[٥].

٧ ـ محمد بن عبدالله الشَّافعي[٦].

٨ ـ محمد بن علي بن إسماعيل القفَّال الكبير، الشاشي، الإمام الجليل، أحد أئمة الدهر، سمع من الطبري بالعراق، وتوفي سنة ٣٦٥ هـ[٧].

٩ ـ مَخْلد بن جعفر الباقَرْحِي[٨].

= التراجم ص ١٤، معجم الأدباء ٤١/١٨.

(١) الأعلام ١٨١/٣، طبقات الشافعية الكبرى ١٢١/٣.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ١٢١/٣، طبقات القرّاء ١٠٧/٢.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ١٢١/٣.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى ٦٩/٣، ١٢١.

(٥) طبقات الشافعية الكبرى ١٧٣/٣.

(٦) طبقات الشافعية الكبرى ١٢١/٣ عن الطبقات الصغرى، تاريخ بغداد ١٦٢/٢.

(٧) طبقات الشافعية الكبرى ٢٠٠/٣ ـ ٢٠١.

(٨) طبقات الشافعية الكبرى ١٢١/٣، تاريخ بغداد ١٦٢/٢.

١٠ ـ يوسف بن القاسم بن يوسف بن فارس بن سَوَّار، أبو بكر الميانجي (٣٧٥ هـ)، قاضي دمشق، ومُسند الشَّام في وقته، سمع الحديث من محمد بن جرير الطبري[١].

سادساً: كتب الطبري في الحديث:

صنف الطبري رحمه الله تعالى عدة كتب في الحديث على مستويات مختلفة، ولأغراض متباينة، ويأتي في قمتها كتابه «تهذيب الآثار»، كما جاء التصنيف في الحديث أحياناً لسبب غير مباشر، ومعظم هذه الكتب مفقودة وللأسف الشديد، ووصل إلينا بقيّة من كتابه «تهذيب الآثار» ولذلك نقتصر هنا على تعداد كتب الطبري في الحديث[٢]، وهي:

١ ـ **تهذيب الآثار**، وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار، وسوف نفرده بشيء من الدراسة والتفصيل.

٢ ـ **المسند المُجَرَّد**، وهو كتاب حديث قرأه على الناس، وهو مما أخذه من حديث مشايخه، وقرأه على الناس[٣].

٣ ـ **فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه**، وسبب تأليفه أنه سمع من يشكِّك بحديث «غَدِير خُمّ»[٤] فذكر هدا الحديث، وبين طرقه ورواياته وسنده، ثم أعقبه بفضائل علي كرم الله وجهه، ولكنه مات ولم

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣/٤٨٨.

(٢) انظر: الطبري للحوفي ص ٨٨ وما بعدها، الطبري للمصلح ص ٣٨.

(٣) انظر: معجم الأدباء ١٨/٧٧.

(٤) غدير خم موضع بين مكة والمدينة على ثلاثة أميال من الجُحْفة، وهو مجتمع ماء تصبّ فيه عين، وحوله شجر كبير (مراصد الاطلاع ١/٤٨٢) والحديث رواه البراء بن عازب وفيه «من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، وأخذل من خَذله، وأدِر الحق معه حيث دار» والشيعة تتذرع بهذا الحديث للاستدلال على حصر الخلافة بالإمام علي رضي الله عنه.

يتمه، قال ابن كثير: «وقد رأيت له كتاباً جمع فيه أحاديث «غدير خُمْ» في مجلدين ضخمين»[1].

٤ ـ **فضائل أبي بكر وعمر**، وجمع الطبريّ في هذا الكتاب الأحاديث والآثار التي تدل على فضل الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لمّا علم أن بعض أهل طبرستان بَسَطوا ألسنتهم في سبِّهما، كما ردَّ على الهواجس التي اتهمته بالتشيع بعد تصنيف وجمع أحاديث «غدير خم»، فتبرأ أبو جعفر من هذا الاتهام، وأُسقط في يد الذين حاولوا النَّيْل من سمعتـه واتهامه بالتشيع، ولم يتم هذا الكتاب أيضاً[2].

٥ ـ **فضائل العبـاس**، وفيه الأحـاديث التي ثبتت في فضل عم النبي ﷺ العباس بـن عبد المطلب، وكان تصنيفه بطلب بعض أمراء آل عباس في بيان فضل العباس ومنزلته في الإسلام، وانقطع الكتاب أيضاً بموت الطبري[3].

٦ ـ **مسند ابن عباس**، وهذا الكتاب لم يذكره ياقوت الحموي في «معجم البلدان» وذكره غيره.

وأرجح أن يكون هذا الكتـاب جزءاً من كتابه «تهذيب الآثار» الذي حُقِّق وطبع كما سنرى.

٧ ـ **كتاب في عبارة الرؤيا**، جمع فيه الطبري الأحاديث حول الرؤيا وتعبيرها، ومات قبل أن يتمه[4].

٨ ـ **حديث الطير**، قال ابن كثير عن الطبري: «رأيت له كتاباً جمع فيه طريق حديث الطير»[5].

---

(١) البداية والنهاية ١١/١٤٧، وانظر: معجم الأدباء ١٨/٨٠، ٨٤.

(٢) معجم الأدباء ١٨/٨٠، ٨٥.

(٣) معجم الأدباء ١٨/٨١، ٨٥.

(٤) معجم الأدباء ١٨/٨١.

(٥) البداية والنهاية ١١/١٤٧.

هذه الكتب والمصنفات التي ذكرها المؤرِّخون في مصنفات الطبري في علم الحديث، ويضاف إليها حشد كبير من الأحاديث الشريفة التي بثّها في سائر كتبه الأخرى، وخاصة كتابه في التفسير، والتي جمعها ودوَّنها ورتّبها ناشر الطبعة الخامسة في دار الفكر ببيروت، ووضع في مطلع كل جزء أربعة فهارس، أحدها فهرس الأحاديث الشريفة التي رواها الطبري بسنده في تفسير كل جزء من أجزاء القرآن.

سابعاً: كتاب تهذيب الآثار:

وعنوانه كما ذكره الطبري رحمه الله تعالى: «تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار»، وسماه القِفْطي «شرح الآثار» وقال: «لم يتمه، وهو كتاب أَعْيى العلماء إتمامه»[1].

وصنف الطبري هذا الكتاب بعد أن بلغ الغاية في التحصيل والإنتاج، وتقدّم في العمر، وجمع فيه خلاصة علمه وتجاربه وخبرته في الحديث وعلومه، لكن وافَتْه المنيّة قبل إتمامه، مما أثار الحسرة والأسى في قلوب المسلمين، وتمنى العلماء لو تمَّ هذا الكتاب ليُغني عن كثير غيره، ومع ذلك وردت على هذا الكتاب عبارات الثناء والإطراء، والمدح، ونقتطف بعضاً منها:

١ ـ ذكر ابن النَّديم (٤٣٨ هـ) في «الفهرست» أسماء كتب الطبري، وقال: «وكتاب تهذيب الآثار، ولم يتمه، والذي خرج منه ما أنا ذاكره»[2]، ولم يذكر بعد شيئاً لخرم وقع في نسخة الفهرست.

٢ ـ قال الخطيب البغداديّ (٤٦٣ هـ): «وكتاب سمَّاه تهذيب الآثار، لم أرَ سواه في معناه، إلا أنه لم يتمه»[3].

---

(١) إنباه الرواة ٣/٩٠.

(٢) الفهرست ص ٣٢٧.

(٣) تاريخ بغداد ٢/١٦٣.

٣ ـ وقال ياقوت الحموي (٦٢٦ هـ) في كتب الطبري: «وكتاب سماه تهذيب الآثار، لم أر سواه في معناه، لم يتمِّمْه» ثم قال: «وما سمعتُه من كتاب التهذيب من مسند العشرة، ومسند ابن عباس إلى حديث المِعْراج» ثم قال: «ومنها كتاب تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار، وهو كتاب يَتَعَذَّرُ على العلماء عملُ مثله، ويصعب عليهم تتمّته، قال أبو بكر بن كامل: لم أرَ بعد أبي جعفر أجمع للعلم وكتب العلماء ومعرفة اختلاف الفقهاء، وتمكّنه من العلوم منه، لأني أُروِّض نفسي في عمل مسند عبدالله بن مسعود في حديث عنه نظير ما عمله أبو جعفر فما أحسن عمله، ولا يستوي لي (أي لا يستقيم لي)»[1].

ثم نقل ياقوت نصيحة أبي جعفر الطبري لتلاميذه، فقال: «وكان يجتهد بأصحابه أن يأخذوا «البسيط» و«التهذيب» ويجدُّوا في قراءتهما، ويشتغلوا بهما دون غيرهما من الكتب»[2].

٤ ـ وقال تاج الدين السبكي (٧٧١ هـ): «وابتدأ تصنيف كتاب «تهذيب الآثار» وهو من عجائب كتبه، ابتدأ بما رواه أبو بكر الصِّدّيق رضي الله عنه، كما صح عنده بسنده، وتكلم على كل حديث منه بعِلَله وطُرُقه، وما فيه من الفقه والسُّنن، واختلاف العلماء، وحُجَجهم، وما فيه من المعاني والغريب، فتمَّ مسند العشرة، وأهل البيت، والموالي، ومن مسند ابن عباس قطعة كثيرة، ومات قبل تمامه»[3].

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٤١، ٤٥، ٧٤، ٧٥.

(٢) معجم الأدباء ١٨/٧٦.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢١، ونقل الكتاني عبارة السبكي بكاملها في الرسالة المستطرفة ص ٧٣.

٥ ـ قال ابن كثير (٧٧٤ هـ) عند تعداد كتبه: «ومن أحسن ذلك «تهذيب الآثار» ولو كمل لما احتيج معه إلى شيء، ولكان فيه الكفاية، لكنه لم يتمه»[١].

٦ ـ وذكره الحاج خليفة (١٠٦٧ هـ) فقال: «تهذيب الآثار لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، المتوفى سنة ٣١٠ هـ عشر وثلثمائة، وهو كتاب تفرّد في بابه بلا مشارك»[٢].

٧ ـ وقدّم للكتاب الأستاذ العلامة محمود محمد شاكر (معاصر)، وقال: «وكتاب تهذيب الآثار من أجلّ كتب أبي جعفر، نهج فيه نهجاً فريداً، لم يُسبَق إليه، ولا يشبهه شيء من الكتب التي أُلِّفت بعده، ولولا أنه مات قبل إتمامه لكان عمدة عند علماء الحديث وأئمة الفقه، ومع ذلك فقد أثنى عليه العلماء، ونقلوا منه نقولاً كثيرة، وأكثرهم نقلاً عنه في كتبه الحافظ ابن حجر (٨٥٢ هـ) في «فتح الباري» و «تهذيب التهذيب» وغيرهما من كتبه، ثم ابن التركماني (٧٥٠ هـ) في «الجَوْهر النَّقي في الرَّدِّ على البيهقي»[٣].

وصنف الطبري «تهذيب الآثار» على ترتيب المسانيد، فبدأ بمسند العشرة المبشرين بالجنة، وهم:

١ ـ أبو بكر الصِّديق.
٢ ـ عمر بن الخطاب.
٣ ـ عثمان بن عفان.
٤ ـ عليُّ بن أبي طالب.
٥ ـ طَلْحة بن عبيد الله.

---

(١) البداية والنهاية ١١/١٤٥.
(٢) كشف الظنون ١/٣٥٠.
(٣) تهذيب الآثار، مسند علي بن أبي طالب ص ٧.

٦ ـ الزُّبير بن العوام.
٧ ـ سعد بن أبي وقّاص.
٨ ـ سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل.
٩ ـ عبد الرحمن بن عَوْف.
١٠ ـ أبو عُبَيْدة بن الجراح.

ثم أتبع ذلك بمسند أهل البيت، ثم مسند الموالي، ثم مسند بني هاشم وهم:

١ ـ مسند العباس بن عبد المطلب.
٢ ـ مسند الفضل بن العباس.
٣ ـ مسند تمام بن العباس.
٤ ـ مسند عُبَيْد الله بن عباس.
٥ ـ مسند عبدالله بن عباس.

والراجح أن مسند ابن عباس آخرهم، كما هو عند الإمام أحمد، ولأن الإمام أحمد أَتْبع مسند عبدالله بن عباس بمسند عبدالله بن مسعود، ولذلك قال أبو بكر بن كامل كما مرَّ سابقاً: «إنه راض نفسه في عمل «مسند عبدالله بن مسعود» ليتمم ما بدأه الطبري، ثم عجز وأقر بعجزه»[1].

ثامناً: منهج الطبري في تهذيب الآثار:

ويظهر من كلام ابن كامل الذي نقله ياقوت، ومن كلام ابن السبكي، والأستاذ محمود شاكر، يظهر منهج الطبري في هذا الكتاب الجليل، وأنه ألّفه على ما أداه إليه اجتهاده في الحديث، ورتّبه ترتيباً خاصاً

---

(١) تهذيب الآثار، مسند علي بن أبي طالب، مقدمة محمود شاكر ص ٩ ـ ١٠، وانظر تاريخ التراث العربي ١/٢/١٦٦.

بحسب الأسانيد، وأنه تناول كل حديث بتدقيق السند، وما في المتن من الفقه، ويذكر غريب الألفاظ، وغريب المعاني، وما يُستنبط من الحديث من الأحكام الشرعية، وما يثور حوله من اختلاف الفقهاء، مع إيراد حججهم وأدلّتهم، وأنه ـ بحسب منهجه العام ـ يناقش الأدلة والآراء والاجتهاد، ويصل إلى بيان القول الراجح، والصواب في ذلك، ليبيِّن مذهبه في المسألة، وحجّته فيما ذهب إليه بناءً على أصوله التي قررها في كتابه «الرسالة» التي صنفها غالباً لبيان أصول مذهبه في الاجتهاد، محاكاةً لرسالة الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في أصول الفقه[١]، وهذا ما يصرِّح به الطبري نفسه، في كتابه هذا تهذيب الآثار[٢].

وذكر الطبري رحمه الله تعالى في «مسند أبي بكر» وهو أوّل الكتاب، مقدمةً ذكر فيها شروطه ومنهجه في تأليف هذا الكتاب، وأنه حصره بالأحاديث الصحيحة، ولكنه ذكر أخباراً غير صحيحة حكاية عمّن احتج بها في توهين خبر، أو تأييد مقالة، أو بيان علة، وليس ليكون استشهاداً به على دين، أو اعتماداً عليه، ثم يجمع بين الآثار المختلفة[٣].

تاسعاً: تحقيق ونشر ما بقي من تهذيب الآثار:

على الرغم من عدم إتمام الطبري لكتابه العظيم «تهذيب الآثار» وأنه صنف مسانيد العشرة، ومسانيد أهل البيت، ومسانيد الموالي ثم مسانيد بني هاشم، ووصل إلى مسند عبدالله بن عباس رضي الله عنهم، وأنه بلغ القمة في هذا الكتاب، على الرغم من كل ذلك فقد ضاع معظم الكتاب مع ما ضاع من تراث المسلمين وذخائرهم أيام النكبات

---

(١) تهذيب الآثار، مسند علي بن أبي طالب ص ١٠.
(٢) تهذيب الآثار، مسند علي بن أبي طالب ص ٣٤.
(٣) انظر: تهذيب الآثار، مسند علي بن أبي طالب ص ١١، ١٣.

والحروب والعدوان والضياع، ولم يُعثر حتى الآن إلا على أجزاء منه، وبقية محدودة من مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومسند عمر ابن الخطاب رضي الله عنهم، وبقية من مسند عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

وعثر الأستاذ الدكتور ناصر بن سعد الرشيد على جزأين مخطوطتين من الكتاب وقام بتحقيقهما ونشرهما، وقدم للكتاب فضيلة الشيخ العلامة عبدالله بن محمد بـن حميد رئيس مجلس القضاء الأعلى في المملكة العربية السعودية، وطُبع الجزءان في مطابع الصفا بجدّة.

ثم قام العلامة المحقق، والاستاذ المؤرخ، والأديب المدقق محمود محمد شاكر بتحقيق الأجزاء المتبقّية من مخطوطات «تهذيب الآثار» في أربع مجلدات، طبعت في مطبعة بمصر سنة ١٩٨٢ م، وقامت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض بنشر هذه المجلدات الأربعة، بما فيها من تحقيق وتدقيق، وعلم غزير في الحواشي، وفهارس فريدة في الأخير، وهي:

١ ـ تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار، مسند عمر بن الخطاب (٢) السفر الأول، وهو البقية الباقية من هذا المسند.
٢ ـ تهذيب الآثار، مسند علي بن أبي طالب (٤) وهو البقية الباقية من هذا المسند وفيه مقدمة المحقق للكتاب.
٣ ـ تهذيب الآثار، مسند عبدالله بن عباس، السفر الأول (٥٩٨ صفحة).
٤ ـ تهذيب الآثار، مسند عبدالله بن عباس، السفر الثاني (٦٠٣ ـ ٨٣٧). ثم الفهارس (٨٣٩ ـ ١١٤٢).

ومسند ابن عباس رضي الله عنهما آخر ما ألفه الطبري من كتاب

«تهذيب الآثار» ومات قبل تمامه، كما صرح ابن السبكي وغيره[1]، وبهذا نكتفي بهذه الصورة عن الطبري محدّثاً، والحمد لله رب العالمين.

(١) انظر: تهذيب الآثار، مسند ابن عباس ١/٣، مسند علي ص ١٠.

المبحث الثاني

الطَّبَرِيُّ قَارِئًا

أولاً: تعريف علم القراءة ونشأته:

عرّف ابن الجزري علم القراءات بأنه «علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة»(١)، أي إن هذا العلم يتعلق بطريقة النطق لألفاظ القرآن الكريم، مع تعدّد الطرق، واختلاف الوجوه في الأداء المنقول حصراً عن النبي ﷺ.

ويهدف علم القراءة إلى الحرص على كلام الله تعالى، والنطق به على الكيفية الصحيحة الكاملة كما أنزل، وصَوْن اللسان عن الخطأ فيه، والاحتراز عن التحريف أو التبديل أو التغيير في القرآن الكريم صورةً بالرسم، ونطقاً باللسان، وكتابة بالخط.

ونشأ علم القراءة أصلاً منذ اللحظات الأولى لنزول القرآن الكريم من اللوح المحفوظ على رسول الله ﷺ عن طريق جبريل الأمين عليه السلام، الذي نزل بكلام الله تعالى، وتلاه على رسول الله، وحدَّد له لفظه، وكيفية تلاوته، ثم تلاه الرسول الله ﷺ على الصحابة كما نزل، فحفظوه في الصُّدور، وكتبوه في الصُّحف عن طريق كتّاب الوحي، كما نزل، وتلَوْه في الصلاة وفي البيوت، ونقلوه إلى أولادهم وأصحابهم، ثم إلى التابعين، كما نزل وكما سمعوه من رسول الله ﷺ.

---

(١) منجد القارئين ص٣ عن كتاب القرآن والدراسات الأدبية، للدكتور العتر ص ١٢٣، وانظر: مفتاح السعادة ٢/٦، كشف الظنون ٢/٢١٩، تاريخ الأدب العربي ٤/١ وما بعدها.

ولكن القرآن الكريم نزل على سبعة أحرف، وكان رسول الله ﷺ يُراعي لهجات القبائل العربية في النُّطق واللفظ، وتفرّقت القبائل وهي تتلو القرآن الكريم على الحرف والكيفية التي تلقّتها من رسول الله ﷺ، وجمع أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه القرآن الكريم في مصحف واحد، وجاء عثمان رضي الله عنه وطلب من كبار القرّاء والحفّاظ وكُتّاب الوحي أن ينسخوا سبع نسخ للقرآن الكريم، ووزَّعها على الأمصار والعواصم الإسلامية، وخرجت الجيوش الإسلامية بالدعوة الإسلامية خارج الجزيرة العربية، وهي تحمل القرآن وتتلوه وتعلّمه، وكل فرقة تقرأه على حسب ما سمعته ونقلته، أو بحسب رسم مصحف عثمان، فاختلفت قراءة أهل الأمصار، كما اختلفت القراءة في الجيش الواحد، أو البلد الواحد، وقام الصحابة والتابعون والحفّاظ والقرّاء بالتحرِّي والدقّة لضبط القراءة، ونقلها وتلقينها للناس، وحرص القرّاء على ذلك، وبرز بعض أئمة القراء، فضبطوا هذه الاختلافات ودوّنوها ونقلوها، والتزم كل واحد منهم قراءة ومنهجاً، وعلّمه لتلامذته، ونقلوه بدقة، فصار كالمذهب، وعُرف بالقراءة.

واشتهر سبعة قرّاء في سبعةِ بلدان، لكل منهم قراءة، فعُرفت بالقراءات السبع، وظهر معها ثلاث قراءات، أقل شهرة، فصارت القراءات عشراً، ونتيجة الحصر التام للوجوه النادرة والشاذة عُرفت أربع قراءات أخرى، فصار المجموع أربع عشرة قراءة، وصارت القراءة منسوبة إلى إمام مُقْرِىء، وتعتمد على النقل بالإسناد المتواتر إلى النبي ﷺ، وأخذ القراءة على كل إمام عدد من القراء، ثم شاعت وانتشرت في المساجد والمعاهد والمدارس والكتب والمصنفات وكتب التفسير[١].

(١) انظر كتابنا تعريف عام بالعلوم الشرعية ص ٢٧ وما بعدها.

وأول ما يبدأ به الطفل المسلم عادة أن يقرأ القرآن الكريم تلقِّياً من أبويه، ثم من الشَّيْخ والمعلم والمربِّيَ والقارىء، وبعد أن يحفظ المسلم القرآن الكريم كلّياً أو جزئياً يتّجه إلى تناول علم القراءة عَرْضاً عن القُرّاء بضبط النطق الصحيح والكامل.

ثانياً: الطبري يحفظ القرآن ويتعلم القراءات:

والإمام الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ سار على هذه السُّنة الرشيدة، فحَفظ القرآن الكريم كاملاً في الصِّغَر، وهو ابن سبع سنين، كما روى ذلك عنه تلميذه أبو بكر بن كامل الشَّجَرِيّ، وصلّى بالنّاس إماماً، وهو ابن ثمان، واتجه إلى أخذ القراءات عن علماء القراءة المتخصِّصين، نذكر منهم[1]:

١ ـ سُلَيْمان بن عبد الرحمن بن حماد الطَّلْحي التَّمّار اللؤْلؤي الكوفي، المقرىء الثقة (٢٥٢ هـ)، عرض عليه الإمام محمد بن جرير الطبري وغيره القراءة[2].

٢ ـ العبّاس بن الوليد بن مِزْيد العُذْري أبو الفضل البَيْروتي الشّامي، روى عنه الحروف محمد بن جرير الطبري، وقال الحافظ ابن عساكر: إنّه قرأ عليه القرآن ببيروت، فالطبري أقام ببيروت مدةً يقرأ عليه القرآن كله برواية الشاميين[3].

٣ ـ محمد بن العلاء بن كُرَيب الهمْداني الكوفي الثقة القارىء، مات سنة٢٤٣ هـ[4].

٤ ـ يونس بن عبد الأعلى بن موسى، أبو موسى الصَّدَفي المصري، فقيه

---

(١) انظر: طبقات القراء ٢/١٠٧، معجم الأدباء ١٨/٤٩، ٦٦.

(٢) انظر: طبقات القراء ١/٣١٤، طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢١.

(٣) انظر: طبقات القراء ١/٣٥٥.

(٤) طبقات القراء ٢/١٩٧.

كبير، ومقرىء ومحدث ثقة صالح، تفقّه عليه وحدّث عنه مسلم والنسائي وأبو عوانة والإمام محمد بن جرير الطبري وابن ماجه وخلق من المغاربة والمشارقة، وروى عنه الطبريّ الحروف سماعاً، وتوفي سنة ٢٦٤ هـ، كما أخذ الطبري عنه قراءة حمزة، وانتهت إليه رياسة العلم بديار مصر[١].

ثالثاً: الطبري يُتْقِن القراءة علماً وأداءً:

وأتقن الطبريّ رحمه الله تعالى علم القراءات، وكان يقرأ بقراءة حمزة قبل أن يختار قراءة لنفسه، وكان يقرأ القرآن في المسجد، ويعلّمه الناس[٢].

قال ابن كثير: «وكان حَسَنَ الصَّوْت بالقراءة، مع المعرفة التامة بالقراءات على أحسن الصفات»[٣].

وصار الطبري إماماً في القراءات وعلوم القرآن، ونُقل عن أبي بكر ابن مجاهد إمام الناس في القراءات أنه استمع ليلة بقراءة محمد بن جرير الطبري، وهو يقرأ سورة الرحمن، فاستمع قراءته طويلاً، ثم قال: «ما ظننتُ أنَّ اللهَ خلق بشراً يُحْسن أن يقرأ هذه القراءة»، وقال أيضاً: «ما سمعُت في المحراب أقرأ من أبي جعفر»[٤] وهذا يدل على صحة قراءة ابن جرير، ودقة إخراج الأحكام، وموافقتها للمتواتر.

وقال ياقوت: «وكان أبو جعفر مجوِّداً في القراءة، موصوفاً بذلك،

(١) طبقات القراء ٢/٤٠٦، معجم الأدباء ١٨/٦٦، طبقات الشافعية الكبرى ٢/١٧٠.

(٢) معجم الأدباء ١٨/٦٦.

(٣) البداية والنهاية ١١/١٤٦.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٤، تهذيب الأسماء ١/٧٩، تاريخ بغداد ٢/١٦٤، معجم الأدباء ١٨/٦٦.

يقصده القراء البُعَدَاء من الناس للصلاة خلفه، يسمعون قراءته وتجويده»[1].

ثم صنف الطبريّ في علم القراءات كتابه المشهور «كتاب القراءات وتنزيل القرآن»، سنعرضه بعد قليل.

كما أن الطبري ضمّن كتابه العظيم في التفسير «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» قراءات القرّاء في كل آية تعدَّدت فيها القراءة، واختلفت فيها وجهات النظر، ورجَّح ما ارتضاه، كما علّم تلاميذه القراءة، وأخذوا عنه الحروف كما سنرى في الفقرة التالية.

وكان للطبري مع اشتغاله بالعلم وِرْدٌ من القرآن، وكان يقرأ كل ليلة رُبُعاً أو حظاً وافراً منه[2].

رابعاً: تلاميذ الطبري في القراءة:

العالم يأخذ ويعطي، ويجمع العلوم، ثم يقدّمها لغيره، والإمام خاصة يخص تلاميذه بما وهبه الله به، ويمنحهم ما أوْدَعه الله فيه من المواهب والعلوم، وما وصل إليه من الاجتهاد والاستنباط، وما ترجَّح لديه من الأقوال والآراء.

والطبريُّ ـ رحمه الله تعالى ـ صار إماماً في القراءات، فعلّمها لتلاميذه، وروى الحروف عنه كثيرون[3]، منهم:

١ ـ أحمد بن عبدالله بن الحسين الجُبْني الكبائي الذي روى عنه الأهوازي، وأكثر عنه، وتوفي سنة ٣٨١ هـ بالأهواز[4].

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٦٦.

(٢) معجم الأدباء ١٨/٨٦.

(٣) انظر: طبقات القراء ٢/١٠٧، معجم الأدباء ١٨/٦٧.

(٤) طبقات القراء ١/٧٢.

٢ ـ أحمد بن موسى بن العباس، التميمي، الحافظ الأستاذ أبو بكر ابن مجاهد البغدادي، شيخ الصَّنعة في القراءة، وأول من سبَّع السبعة، توفي سنة ٣٢٤ هـ، وروى عن محمد بن جرير الطبري، ودلَّسه فقال: محمد بن عبدالله[1].

٣ ـ عبدالله بن أحمد الفرغاني، صاحب ابن جرير الطبري، وروى عنه الحروف.

٤ ـ عبد الواحد بن عمر بن محمد، أبو طاهر البغدادي البزَّار، الأستاذ الكبير الإمام النحوي العلم الثقة، مات سنة ٣٤٩ هـ، وأخذ القراءة عن الطبري[2].

٥ ـ محمد بن أحمد بن عمر، أبو بكر الضَّرير الرَّمْلي، ويعرف بالدَّاجُوني الكبير، إمام كامل ناقل رحال مشهور ثقة، مات سنة ٣٢٤ هـ، وروى الحروف عن الطبري[3].

٦ ـ محمد بن محمد بن فَيْروز، أبو عُبيد الله الكَرَجي، شيخ جليل مقرىء، توفي سنة ٣٨٦ هـ، وهو شيخ الأهْوازي، وقرأ القراءات على الطبري[4].

خامساً: كتاب الطبري في القراءة:

عندما يفيض العلم عن صاحبه فإنّه يتجه إلى مختلف الجهات، والطبريّ رحمه الله تعالى طبق ما يعرفه بالقراءات، فأحسن الأداء، وأتقن القراءة، وجوَّد في صلاته، ثم ظهر علمه في القراءات عند تفسير الآيات الكريمة في كتابه «جامع البيان» ثم أفرد كتاباً مستقلاً في هذا

(١) طبقات القراء ١/١٣٩، ١٤٠.
(٢) طبقات القراء ١/٤٧٥.
(٣) طبقات القراء ٢/٧٧.
(٤) طبقات القراء ٢/٢٤٧.

الخصوص، وهو: «كتاب القراءات وتنزيل القرآن».

وأشار إلى هذا الكتاب معظم العلماء الذين ترجموا للإمام الطبري، وعرضوا جانباً من حياته، وعدَّدوا كتبه ومصنفاته.

ولم يطبع هذا الكتاب، ولم يُنشر، ولكنَّه نجا من الضَّياع، وسلم من الفقدان، ووصلت إلينا نسخة مخطوطة منه في مكتبة جامع الأزهر، والأمل وطيد في تحقيقه وطباعته ونشره.

والكتاب في القراءات، وأسماء القرّاء، وفيه مذهب الطبري في القراءات فيما له فيه وجه مستقلّ.

وهو كتاب جيّد، قال عنه أبو بكر بن مجاهد: «ما صُنِّف في معنى كتابه مثله»[1]. ووصفه أبو علي الحسن بن علي الأهوازي المقرىء[2] (صاحب المؤلفات، وشيخ القرّاء في عصره، وأعلى من بقي في الدنيا إسناداً في زمانه، وهو إمام كبير ومحدّث) (٣٦٢ هـ - ٤٤٦ هـ)، فقال: «إنّه كتاب جليل كبير» وقال: «رأيته في ثماني عشرة مجلدة بخطوط كبار، ذكر فيه جميع القراءات من المشهور والشواذّ، وعلّل ذلك وشَرَحَه، واختار منها قراءة لم يخرج بها عن المشهور»[3].

وقال ياقوت الحموي: «ومن كتبه: كتاب الفَصْل بين القراءة، ذكر فيه اختلاف القرّاء في حروف القرآن، وهو من جيّد الكتب، وفصَّل فيه أسماء القرّاء بالمدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام وغيرها، وفيه من الفَصْل بين كل قراءة، فيذكر وجهها، وتأويلها، والدلالة على ما ذهب

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٦٦، وانظر: طبقات القراء ٢/١٠٧، الطبري للحوفي ص ٩٤، طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢١.
(٢) طبقات القراء ١/٢٢٠ وما بعدها.
(٣) الطبري للحوفي ص ٩٥.

إليه كل قارىء لها، واختياره الصواب منها، والبرهان على صحة ما اختاره، مستظهراً في ذلك بقوّته على التفسير والإعراب الذي لم يشتمل على حفظ مثله أحد من القراء، وإن كان لهم ـ رحمهم الله ـ من الفضل والسبق ما لا يدفع ذو بصيرة، بعد أن صدَّره بخطبة تليق به»[1].

وقال أبو بكر بن مجاهد، وقد كان لا يجري ذكر الطبري إلا فضَّله ـ «ما صُنّف في معنى كتابه مثله»[2].

وقال الدَّانيّ: «وصَنّف كتاباً حسناً في القراءات، سماه الجامع»[3]، وعقب ابن الجزري على ذلك فقال: «قلت: وقد وقع له فيه مواضع... فذكر الخلاف فيه... فصيّر بذلك المتفق عليه مختلفاً فيه، والمختلَف فيه مجمعاً عليه، وهذا عجيب من مثله مع جلالته»[4].

ويعود السبب في هذا الغلط أن الطبري رحمه الله اعتمد في هذا الكتاب على كتاب أبي عُبيد القاسم بن سلّام، وبنى كتابه عليه، ولذلك تسرّب بعض الغلط إلى كتاب الطبري منه[5].

وسار الطبريُّ في كتاب «القراءات» حسب منهجه العام، وكما وصفه الأهوازي، فيذكر جميع القراءات الواردة، واختلاف القراء فيها، وفصَّل فيه أسماء القرّاء بالمدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام على غيرها، وبيّن وجه كل قراءة، تعليلاً وشرحاً وتأويلاً، مع الاستدلال لكل رأي، ثم بيَّن الصواب الذي اختاره منها، والدليل على صحة ما اختار، معتمداً على

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٦٥ ـ ٦٦.

(٢) معجم الأدباء ١٨/٦٦.

(٣) طبقات القراء ٢/١٠٧، ونسخة الأزهر بعنوان «الجامع في القراءات من المشهور والشواذ» انظر تاريخ التراث العربي ١/٢/١٦٨.

(٤) طبقات القراء ٢/١٠٧.

(٥) معجم الأدباء ١٨/٦٧، ٣٨.

ثقافته الواسعة في التفسير وعلوم القرآن وعلوم اللغة والإعراب والنحو، وحسب الصورة التي جاءت في تفسيره[1].

سادساً: منهج الطبري في القراءة:

عرض الطبري في «كتاب القراءات» وفي «تفسيره: جامع البيان» القراءات المتواترة والمشهورة والشاذة، واعتنى بنقد الروايات والقراءات، واختار قراءة لنفسه، وكان يعتمد في كتابه على المنهج التالي[2].

١ ـ المقياس لقبول القراءة واختيارها يقوم على ثلاثة أسس، وهي:

أ ـ **موافقة القراءة لرسم المصحف**، لذلك يقول مثلاً: «والصواب عندنا ﴿يوم يأت لا تَكَلَّـم نفس﴾ بحذف الياء «يأت» وصلاً ووقفاً **اتباعاً لخط المصحف**، وأنها لغة معروفة لهُذَيْل»[3]، ويقول: «والصواب من القراءة ما عليه قراءة الأمصار وهو ﴿لِأَهَبَ﴾ بالألف دون الياء، **لأن ذلك كذلك في مصاحف المسلمين**، وعليه قراءة قديمهم وحديثهم غير أبي عمرو»[4]، ويقول: «والصَّواب في ذلك عندي قراءة من قرأ ﴿يأتَلِ﴾ لأنَّ ذلك في **خط المصحف كذلك**، والقراءة الأخرى مخالفة خط المصحف، **فاتّباع خط المحصف مع قراءة جماعة القرّاء وصحة المقروء به أولى من خلاف ذلك**»[5].

ب ـ **إجماع الحجّة من القراء بالنقل المستفيض**، فيعتمد الطبري

---

(١) الطبـري للحوفي ص ٩٤.

(٢) انظر بحث: «ظاهرة نقد القراءات، ومنهج الطبري فيها» للدكتور إسماعيل طحان ص ٢٦ وما بعدها.

(٣) تفسير الطبري ١١٦/١٢.

(٤) تفسير الطبري ٦١/١٦.

(٥) تفسير الطبري ١٨/١٠١ ـ ١٠٢.

على إجماع القرّاء الذين يُعتدّ بهم في النقل، ويستفيض ذلك عنهم، لذلك يقول الطبري رحمه الله تعالى بعد عرض أقوال القراء في قوله تعالى ﴿أنْ تضلَّ إحداهما فتذكِّرَ﴾ يقول: «والصَّوابُ عندنا فتح الهمزة، وتشديد الكاف ونصب الراء منه... وإنما اخترنا ذلك في القراءة **لإجماع الحجّة من قدماء القراء والمتأخرين على ذلك**... ولا يجوز ترك قراءة جاء بها المسلمون مستفيضة بينهم إلى غيرها»[1]، وقال في قراءة قوله تعالى: ﴿فَيَسُبُّوا الله عَدْواً﴾: «والصواب من القراءة عندي في ذلك قراءة من قرأ بفتح العين وتخفيف الواو **لإجماع الحجة من القراء** على ذلك، وغير جائز خلافها فيما جاءت مجمعة عليه»[2].

جـ - قوة الوجه في العربية والأفصح في اللغة، ولذلك يقول الطبري في قوله تعالى: ﴿واتَّقُوا اللهَ الذي تَسَاءلُون به والأَرْحامَ﴾: «والقراءة التي لا نستجيز للقارىء أن يقرأ غيرَها في ذلك النصبُ، لما قد بيّنا أنَّ العرب لا تعطف بظاهر من الأسماء على مكنّي في حال الخفض إلا في ضرورة شعر»[3]، ويقول في قوله تعالى: ﴿وقالوا هذِهِ أنْعامٌ وحَرْث حِجْر﴾: «وهي القراءة التي لا أستجيز خلافها بكسر الحاء **لإجماع الحجّة** من القراء عليها، وأنها **اللغة الجُودَى من لغات العرب**»[4].

٢ - معايير الطبري في الترجيح:

يعتمد الطبري في ترجيح قراءة على أخرى على ثلاثة معايير، وهي:

أ - رأي الكثرة من القرّاء، قال الطبري: «غير أني أختار القراءة بالذي عليه معظم القرّاء»[5].

(١) تفسير الطبري ٣/١٢٥

(٢) تفسير الطبري ٧/٣١١.

(٣) تفسير الطبري ٤/٢٢٨.

(٤) تفسير الطبري ٨/٤٥.

(٥) تفسير الطبري ٨/١٠٤.

ب ـ **الاعتضاد برأي أهل التفسير والتأويل**، قال الطبري: «لإجماع الحجّة من القراء، وأهل التأويل من علماء السلف والخلف»[1].

جـ ـ **اتّساق الأسلوب مع القراءة**، قال الطبري: «فالصواب من القراءة أن يوفّق بينهما في المعنى بأن يقرأ جميعاً على مذهب ما لم يسمَّ فاعله»[2].

ولكل معيار أمثله واضحة في تفسيره، ونكتفي بذلك[3].

٣ ـ مسلك الطبري في التطبيق العملي للقراءات:

يلتزم الطبري رحمه الله تعالى عند تطبيق منهجه على عرض القراءات في تفسيره على أسس موضوعية، يمكن إجمالها تعداداً، وهي:

أ ـ تصويب الوجوه المختلفة عند التساوي[4].

ب ـ تمسك الطبري برأي الحجة وإن خالف رأيه[5]، وهذا يدل على موضوعيته.

جـ ـ اتهام المخالف لقراءة العامّة بالشذوذ[6].

د ـ نقده للإسناد المضطرب، واعتضاده بسند الروايـة[7]، وهذا تأثّر

---

(١) تفسير الطبري ١/٢٤٣.

(٢) تفسير الطبري ٤/١٩٦.

(٣) انظر: ظاهرة نقد القراءات ص ٣٠.

(٤) انظر: تفسير الطبري ٤/٢٢٥ في قوله تعالى: ﴿تَسَاءَلُون﴾ بالتخفيف والتشديد، النساء/١.

(٥) انظر: تفسير الطبري ٦/٢٩٤ ـ ٢٩٥ في قوله تعالى: ﴿وعَبَد الطاغُوتَ﴾ [المائدة/٦١].

(٦) انظر: تفسير الطبري ٣/١٣٢ في قوله تعالى: ﴿تِجَارةً حاضِرَةً﴾ [البقرة/٢٨٢]، وقال: «لإجماع القرّاء على ذلك، وشذوذ من قرأ ذلك نصباً عنهم، ولا يعترض بالشاذّ على الحجة».

(٧) انظر: تفسير الطبري ٨/١٤٧ في قوله تعالى: ﴿وريشاً﴾ [الأعراف/٢٦].

منه بالحديث وكونه إماماً في الحديث والروايات.

ولكل ذلك أمثلة مبثوثة في تفسيره، نكتفي بالإشارة إليه، ونُحيل القارىء إلى مطالعة التفسير نفسه، ليجد الأمثلة العديدة لذلك[1].

وإلى هنا نكتفي بهذه الصورة عن الإمام الطبري قارئاً، ويظهر منها أنه كان حافظاً لكتاب الله، عالماً بالقراءات، عارفاً بالقرَّاء، مُدْركاً لوجهة كل قراءة مع التعليل لها والاستدلال عليها، ناقداً لبعض القراءات، إماماً في القراءات وصاحب قراءة خاصة، وله مصنَّف جيِّد في القراءات.

(١) انظر: بحث «ظاهرة نقد القراءات» ص ٣٢ وما بعدها.

المبحث الثالث

الطبري وعلم أصول الدين

أولاً: تعريف علم أصول الدين:

عرّف السيوطي علم أصول الدين بأنه: «علم يبحث عما يجب اعتقاده»[1]، لأنه يبحث في أركان الدين، وأعظم مبادئه، وأول أهدافه، وهو الإيمان، ولذلك سماه العلماء بعلم أصول الدين، وأن بقية أحكام الدين فروع له، ومبنيّة عليه، ويسمى هذا العلم أيضاً بعلم التوحيد، لأن توحيد الله تعالى هو منطلق الإيمان وأساسه، وأن التوحيد «هو العقيدة الإيمانية، وهو الذي تحصل به السعادة»[2].

كما سُمي هذا العلم في العصر العباسي بعلم الكلام، لأنه استُخدم فيه المحاورة والمناظرة والمجادلة والحِجاج، وصار يعرّف بأنه «العلم الذي يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والردّ على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة»[3]، أو لأن أهم محاوره التي أدت إلى خلافات وفتن هو البحث في كلام الله تعالى، وما نشأ عنها من فتنة خلق القرآن.

وهو أهم العلوم الشرعية على الإطلاق لأنه يتعلق بالإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقضاء والقدر، وتوسّع فيه العلماء

---

(١) تمام الدراية ص ٤، النقاية ص ٢٦٠.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦١.

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٥٨.

لبحث صفات الله تعالى، وما يتعلق بالغيبيّات، وخاصة في الآخرة، كما دخل في هذه العلم تبعاً بحث الإمامة والخلافة، وتسرّبت أفكار الديانات السابقة، وخاصة الوثنية، وآراء الفلسفات الإغريقية واليونانية والفارسية إلي دَرَهات هذا العلم، وثار الخلاف الشديد، وظهرت الفِرَق المتباينة وصُنفت الكتب الكثيرة، والتزم العلماء بالمواقف المشهودة، وبيان العقيدة الصحيحة، والوقوف في وجه الفِرَق المنحرفة والشاذة والضالّة، وصنّفوا الكتب لتفنيد آرائهم وأوهامهم، وكانت مباحث علم الكلام وأصول الدين مسيطرة على الساحة[1].

ثانياً: الطبري يُتقن علم أصول الدين:

والإمام الطبري رحمه الله تعالى درس علم أصول الدين على العلماء الأفاضل، وعلى منهج أهل السُّنة والجماعة، واطّلع على آراء المذاهب والفِرَق، وعاش حلبة الصراع الفكري في العصر العباسي، وخاض المعركة بأسلوبه العلمي الهادىء، ومنهجه الموضوعيّ الواضح، وردَّ على المعتزلة والقدرية والروافض والخوارج وغيرهم.

وظهرت شخصية الطبري الصريحة، وإتقانه لعلم أصول الدين، ومواقفه من الصراع المحتدم في عصره في مجالين:

الأول: في تفسير القرآن الكريم «جامع البيان» لأن القرآن الكريم هو المصدر الأول والأساسي لعقيدة المسلم، وهو الإشعاع الإلهي، والنور الساطع لأركان الإيمان، وما يتعلق بصفات الله تعالى، وتوحيده، وألوهيته، وربوبيته، وبالغيْبيّات عن الجنّة والنَّار، والحساب والرؤية والشفاعة وغيرها. ولمّا فسر الطبري هذه الآيات لم يُعرض عنها، وعن تفسيرها وعما يدور حولها، بل تناولها بالبيان، والتفسير والتأويل، وبين

---

(١) انظر: كتابنا: «تعريف عام بالعلوم الشرعية» ص ٨٩ وما بعدها.

آراء العلماء وأقوال المفسِّرين بها، ثم أعلن رأيه الصريح، وترجيحه الواضح، وتصويبه لما يعتقد، وتفنيد حجج المخالفين[1].

الثاني: لم يكتفِ الطبري في عرض أصول الدين عند تفسير الآيات المتفرقة، بل جمع ذلك في كتب ومصنفات، وأفردها بالبحث والدراسة، كما سنعرضها بعد قليل. كماعرض مذهبه في الاعتقاد في كتب السُّنة، وهو المحدث الكبير، والمصنف في أحاديث رسول الله ﷺ، والشارح لها، والمبيِّن لمعناها ودلالاتها.

ثالثاً: مذهب الطبري في علم أصول الدين:

كان الطبري رحمه الله تعالى ملتزماً بمذهب أهل السُّنة والجماعة وما كان عليه السَّلف من الصحابة والتابعين، قبل الخوض في التأويلات، والتأثر بالوثنيات والفلسفات، وكان رحمه الله تعالى يُعلن ذلك بشكل صريح وواضح، وتشدَّد في هذا الخُصوص على المخالفين والخصوم، خلافاً لعادته ومنهجه في بقية العلوم، لأن علم أصول الدين هو أساس الإسلام، ولا تُقبل فيه المساومة والمفاوضة وأنصاف الحلول، واضطراب المواقف، لذلك كفَّر الطبريُّ المخالفين لآراء السلف، وكفَّر من تطاول على تكفير الصحابة من الخوارج والرافضة، مع أنه لم يكفِّر أحداً في المجالات الأخرى، وأن التكفير أمر كبير وصعب وخطير، لا يجوز الحكم به، واللجوء إليه إلا عند الضرورة القصوى.

ونقل لنا تلاميذ الطبريّ مذهبه بوضوح وجلاء، فقال عبد العزيز ابن محمد الطبري: «كان أبو جعفر يذهب في جُلّ مذاهبه إلى ما عليه

---

(١) انظر تفسير الطبري ٢٩٨/٧ في تفسير قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكه الأبصار، وهو يُدْرِك الأبصار﴾ [الأنعام/ ١٠٣]، ورده على المعتزلة الذين ينكرون رؤية الله يوم القيامة، ويؤوِّلون ببعد قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يومئِذ نَاضِرَة إلى رَبِّها نَاظرة﴾ [القيامة/ ٢٢ ـ ٢٣].

الجماعة من السَّلف،وطريق أهل العلم، المتمسِّكين بالسنن، شديداً عليه مخالفتُهم، ماضياً على منهاجهم، لا تأخذه في ذلك ولا في شيءٍ لومةُ لائم، وكان يذهب إلى مخالفة أهل الاعتزال في جميع ما خالفوا فيه الجماعة من القول بالقدر، وخلق القرآن، وإبطال رؤية الله في القيامة، وفي قولهم بتخليد أهل الكبائر في النار، وإبطال شفاعة رسول الله ﷺ، وفي قولهم: إن استطاعة الإنسان قبل فعله»[1].

«وكان أبو جعفر يعتقد أن ما أخطأه ما كان ليُصيبه، وأن ما أصابَه لم يكن ليخطئه، وأن جميع ما في العالم لا يكون إلا بمشيئة الله، وأن الله عز وجل لم يزل موصوفاً بصفاته التي هي كلامه وقدرته، وكلامه غير مُحْدَث»[2].

«وكان أبو جعفر يذهب في الإمامة إلى إمامة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، وما عليه أصحاب الحديث في التفضيل»[3].

«وكان يكفِّر من خالفه في كل مذهب، إذ كانت أدلة العقول تُدفع، كالقول في القدر، وقول من كفّر أصحاب رسول الله ﷺ من الروافض والخوارج، ولا يقبل أخبارهم، ولا شهاداتهم، وذكر ذلك في كتابه في الشهادات»، وفي «الرسالة» وفي أول «ذَيْل المُذَيَّل». . . وذكر ذلك في «مُسْنَد أسامة بن زيد»[4].

وسأل أبو بكر بن كامل ـ تلميذ الطبري ـ أستاذه قائلاً: «من سبقك إلى إكفار أهل الأَهْواء؟ قال: فقال: إمَامَـا عَدْلٍ: عبْد الرحمن بن مَهْدي،

(١) معجم الأدباء ١٨/ ٨١.
(٢) المرجع السابق ١٨/ ٨٢.
(٣) المرجع السابق ١٨/ ٨٣.
(٤) المرجع السابق ١٨/ ٨٣.

ويحيى بن سعيد القطَّان»، «وكان إذا عَرَف من إنسان بدعةً أبعدَه واطّرحه»[1].

وهكذا كان الطبري رحمه الله تعالى سليم الفكر، صحيح العقيدة، عالماً بأصول الدين، نصيراً لأهل السُّنة في الاعتقاد، مجانباً لأهل البدع، مهاجماً لبقية الفِرَق والمذاهب[2].

رابعاً: كتب الطبري في أصول الدين:

كان الطبري رحمه الله تعالى موسوعة علمية، ودائرة معارف، ويمتلك ملكة ناصعة، وفكراً ثاقباً، وصبراً حميداً، وعملاً دؤوباً في التصنيف والتأليف في مختلف فنون المعرفة.

ولم يكتف الطبري بعرض مذهبه في الاعتقاد، وبيان مذهب أهل السنة والجماعة في التوحيد وأصول الدين والإيمان، في كتاب التفسير، وكتب الحديث، بل أفرد هذا العلم بالتصنيف، وله في ذلك ثلاثة كتب أو رسائل أو كتيبات، وهي:

١ ـ صَريح السُّنَّة: وهي رسالة بيَّن فيها الطبريُّ مذهبه وعقيدته، وما يَدين اللهَ تعالى به فيما أُثير من اختلاف في الصفات وغيرها، وهي في عدة أوراق، وجاءت أحياناً باسم «شرح السُّنة»، وطبع الجزء المتعلق بالاعتقاد في بُومْباي، سنة ١٣٢١ هـ، ثم طبع بمصر[3].

٢ ـ العَدَد والتنزيل، وهو ما ذكره المؤرخون في ترجمة الطبري، وتعداد كتبه.

---

(١) المرجع السابق ١٨/ ٨٤.

(٢) انظر: الطبري للحوفي ص ٢٤٢، الطبري للمصلح ص ٧٣.

(٣) انظر: معجم الأدباء ١٨/ ٨٠، تاريخ التراث العربي ١/ ٢/ ١٦٨، الطبري للحوفي ص ٩٥.

٣ ـ البصير في معالم الدين، كتبه الطبري لأهل طبرستان عند اختلافهم في الاسم والمسمى من أسماء الله الحسنى وصفاته، وذكر مذاهب أهل البدع وردًّ عليها، وهي في نحو ثلاثين ورقة.

ولعل هذا الكتاب هو ما سماه الصَّفَدي «التبصير في أصول الدين»، أو الكتاب الذي وصف نسخته الخطية الدكتور فؤاد سزكين بعنوان: «تبصير أولي النهي ومعالم الهدى» وتوجد نسخته في الأرسكوريال ٦/١٥١٤ من ورقة ٨١ ـ ١٠٤، ومكتوبة سنة ٦٣١ هـ.

كما ذكر فؤاد سزكين للطبريّ كتاب «العقيدة» وأنه يوجد منه نسخ خطية في مكتبة تيمور ٤/٩٤، مجموع ٤/١٠٦ (من صفحة ١٦١ ـ ١٦٨ القرن العاشر الهجري).

ولعلّ هذه النسخة هي للكتاب السابق[١].

(١) انظر: معجم الأدباء ١٨/ ٨٠، تاريخ التراث العربي ١/٢/١٦٨ (عن فهرس معهد المخطوطات العربية ١/ ٣٣٠)، الطبري للحوفي ص ٩٥، الطبري للمصلح ص ٣٩.

المَبحَثُ الرَّابِع

الطَّبَرِيُّ وعِلْمُ الأَخْلَاقِ وَالنَّفسِ

أولًا: تعريف علم الأخلاق وأهميته:

علم الأخلاق هو علم بالفضائل وكيفية اقتنائها لتتحلى النفس بها، وبالرذائل وكيفية توقّيها لتتخلى عنها، وموضوعه الأخلاق والملكات والنفس التي تتصل بها[1].

ويتفق الفلاسفة والعلماء والمربُّون على أهمية الأخلاق، ويكادون يجمعون على أنها الهدف الأسمى للتربية والتعليم للفرد والمجتمع، وأن جميع الأديان تدعو إلى الأخلاق الفاضلة وترغّب في التمسك بها، وتنهى عن الأخلاق الفاسدة، وتحذّر من الوقوع فيها، أو الاقتراب منها[2].

وتُعتبر الأخلاق أهم دعامة في تكوّن المجتمع، وهي أساس الإصلاح، ولها ارتباط جوهري بالدين والعقيدة والعبادة والمعاملات، والهدف من تعليمها وتدريسها غرس الفضائل في النفوس للتمسك بها، والابتعاد عن الرذائل وكراهيتها، وتهذيب سلوك الفرد، وإضفاء السمات الكريمة في المجتمع[3].

والإسلام دعا إلى الأخلاق الفاضلة بشكل واسع، واعتبرها أحد

---

(١) انظر: كشف الظنون ١/٦٧، مفتاح السعادة ١/٤٠٦.

(٢) انظر: كتابنا «طرق تدريس التربية الإسلامية» ص ٣٨١ وما بعدها.

(٣) المرجع السابق ص ٣٨٢ وما بعدها.

أسسه الأربعة مع العقيدة والعبادة والمعاملات، ويقول القابسي: «والأخلاق في الإسلام أساسها القرآن»[1] ولذلك «كان خلق رسول الله ﷺ القرآن» كما وصفته عائشة رضي الله عنها[2]، وقال عليه الصلاة والسلام «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[3]، والآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التي تدعو للأخلاق الفاضلة، وتحذّر من الأخلاق الفاسدة كثيرة وعديدة، ولكن المهم في الأخلاق هو التطبيق والسلوك، والالتزام والعمل، وليس مجرّد النظريات والمبادىء والمُثُل والشعارات.

ثانياً: كتب الطبري في الأخلاق:

كان الطبري رحمه الله تعالى على جانب كبير من سموّ الأخلاق، والتزام الفضائل، وحسن العشرة والمعاملة، ورفعة السلوك، كما سبق في حياته مع ذويه وشيوخه وزملائه وأصدقائه ومعارفه وتلاميذه، وكان على غاية المعرفة والتطبيق لمحاسن الأخلاق والكرم والعفّة والزهد والتواضع والورع[4]، كما سبق.

وشارك الطبري رحمه الله تعالى في هذا العلم لبيان فضائله، والترغيب بمحاسنه، والتحذير من مساوئه، وبيان الصلة بينه وبين الدين والإيمان، وصنف في ذلك عدة كتب، منها:

١ ـ الموجز في الأصول، ابتدأ في هذا الكتاب برسالة الأخلاق، لكنه لم يتمه، كما ذكره المترجمون له[5].

---

(١) التربية في الإسلام أو التعليم في رأي القابسي ص١٠٣.
(٢) رواه مسلم وأبو داود وأحمد عن عائشة رضي الله عنها (الفتح الكبير ٢/٣٦٦).
(٣) رواه البخاري في الأدب والحاكم في المستدرك والبيهقي وابن سعد عن أبي هريرة مرفوعاً.
(٤) انظر صفات الطبري وأخلاقه كما ذكرها عنه تلميذه عبد العزيز بن محمد في (معجم الأدباء ١٨/٨٦).
(٥) معجم الأدباء ١٨/٨١.

٢ ـ كتاب آداب النفوس الجيدة والأخلاق النفيسة، وهو كتاب في التهذيب والتدقيق وتربية النفس، ومات ولم يتمه، وربما سمّاه بأدب النفس الشريفة، والأخلاق الحميدة، وهو كتاب كبير.

وصف ياقوت ذلك فقال: «ومِن جِياد كتبه: كتابُه المسمّى بكتاب أَدَب النُّفوس الجيِّدة، والأخلاق النَّفيسة، وربما سمّاه بـ «أدب النفس الشريفة، والأخلاق الحميدة»، وربَّما زاد في ترجمته، المشتمل على علوم الدين والفضل والورع، والإخلاص والشكر والكلام في الرِّياء والكِبْر، والتَّخَاضع والخشوع والصَّبْر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبدأ فيه بالكلام في الوسوسة وأعمال القلوب، ثم ذكر شيئاً كثيراً من الدعاء وفضل القرآن، وأوقات الإجابة ودلائلها، وما رُوي من السُّنن وأقوال الصحابة والتابعين في ذلك، وقطع الإملاء في بعض الكلام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان ما خرج منه نحو خمسمائة ورقة، وكان قد عمل أربعة أجزاء. . . وكان ابتدأ في سنة عشر وثلاثمائة، ومات بعد مُدَيْدة من قطعه الإملاء، وكان يقول: إن خرج هذا الكتاب كان فيه جمال، لأنه كان أراد أن يخرج بعد الكلام في الحقوق اللازمة للإنسان، إلى ما يُعيذنا منه من أهوال القيامة وشروطها، وأهوال الآخرة وما ورد فيها، وذِكْر الجِنَّة والنَّار»(١).

ووصفه ابن عساكر فقال: «عمله على ما ينوب الإنسان من العرائض في جميع أجزاء جسده، فبدأ بما ينوب القلب واللسان والبصر والسمع، على أن يأتي بجميع الأعضاء، وما رُوي عن رسول الله ﷺ في ذلك، وعن الصحابة والتابعين، ويذكر كلام المتصوفة وما حُكي من أفعالهم، وإيضاح الصواب في ذلك»(٢).

---

(١) معجم الأدباء ١٨/٧٦ ـ ٧٧.

(٢) تاريخ ابن عساكر ١٨/٣٥٢ عن مقدمة تاريخ الطبري ١/١٥ طبعة دار المعارف.

وهذا الوصف يدل على أهمية هذا الكتاب، وأن الطبري رحمه الله تعالى بدأ بتصنيفه في آخر حياته، ليقدِّم لنا زُبْدة علمه وخبرته، وتجاربه ونصائحه، ونظرته إلى الحياة والكون، ويأخذ بيدنا للاستعداد إلى ما بعد الحياة من أحوال الآخرة.

ولم يرد في فهارس المطبوعات والمخطوطات ودور الكتب ما يفيد بوجود نسخة خطية منه، ويبقى الأمل في العثور عليه في المستقبل القريب، لنحظى بقراءته، ويستفيد النّاس منه، وما ذلك على الله بعزيز.

الخاتمة

وبعد هذه الجولات الشَّيِّقة مع الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ندرك أننا أمام عَلَم من أعلام المسلمين، وشخصية علمية فذّة، وحياةِ أحد أولياء الله الصالحين، تربيةً وتهذيباً، وتعليماً وتعلّماً، وأخلاقاً وسلوكاً، وزهداً ووَرَعاً، وهو القمّة في العلوم، ويعتلي ذورة التصنيف والتأليف، ويمكننا أن نلخص البحوث السابقة بما يلي:

عاش الإمام الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ جميع حياته في ظل الخلافة العباسية، وكان يعتورها بعض الخلافات السياسية والانقسامات الإدارية وظهور الفِرَق والمذاهب، ولكنها كانت من الناحية العلميـة في تألّق ونهضة وحضارة ونشاط، وكان الخلفاء والأمراء والحكام يشجّعون العلم، ويُجِلّـون العلماء، ويتنافسون في ذلك.

وفي هوية الطبري الشخصية رأينا أنه وُلد في آمُل بطبرستان من أرض فارس، وتعلم في بلده، ثم رحل لطلب العلم والتزوّد منه إلى الريّ والعراق والشام ومصر، وجمع مختلف العلوم الإسلامية، ونذر نفسه لتحصيل المعارف، ورضي بقليل العيش، وخشونة المأكل ليجمع العلم، فبلغ ذورته، وأصبح موسوعة علمية، ودائرة معارف متنوّعة ومتنقّلة، وبدأ بالعطاء بالتدريس والمناظرة والمجالس العلمية والإفتاء والإقراء والتحديث والتصنيف، فكان صورة صادقة عن علماء القرن الثالث الهجري تنوّعاً وعمقاً، مع ما يتمتع به من الصفات الخُلُقية السامية، والمواهب الفطرية النادرة، وكانت له حافظة فريدة، وذكاء خارق، وعنده تواضع جـمّ، وعفةٌ

وإباء، وامتنع عن تولّي القضاء، وترفّع عن العطايا والمكافآت، وزهد في الدنيا، ورضي بالقليل، وعفَّ عن الزواج، وتفرّغ للعلم والتصنيف.

وفي الفصل الثاني رأينا الطبري مفسّراً لكتاب الله تعالى بعد أن درس التفسير، وجمع أقوال العلماء والسَّلف فيه، وتوفرت فيه المؤهلات العلمية لتفسير القرآن العظيم، فبدأ بإملائه وتدوينه طوال ثلاث عشرة سنة معتمداً على الله تعالى، مستعيناً به، بعد أن استخار الله في هذا العمل الجليل، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، ومن اعتمد على الله كفاه، فكتب الله التوفيق للطبري في عمله، وتناول تفسير القرآن سورة سورة، وآية آية، وعرض فيه مختلف علوم القرآن من القراءات وأنواع التفسير والبلاغة والبيان والأخبار التاريخية، والاجتهادات الفقهية، والعقيدة، مع بيان الأقوال المختلفة، والتدليل عليها، ثم الترجيح مع التعليل، والجمع بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي والاجتهاد والاستنباط، فظهرت شخصية الطبري العلمية عامة، وفي الاجتهاد والفقة خاصة، مما دعانا إلى المطالبة باستخراج فقه الإمام الطبري من تفسيره، واستقلال تفسير آيات الأحكام بكتاب منفرد كما فعل البَيهْقي رحمه الله في تفسير آيات الأحكام للشافعي.

وقد لقي تفسير الطبري عناية شديدة، وثناءً عاطراً، وأقبل عليه العلماء في كل عصر، وأصبح عمدة المفسرين وغيرِهم، وحصل على الرعاية الكاملة خلال التاريخ الإسلامي إلى وقتنا الحاضر، فصانه الله تعالى من الضَّياع، وتم تحقيقه وطباعته ونشره عدة مرات.

وفي الفصل الثالث عرضنا حياة الطبري فقهياً وصاحب مذهب، وقد عاش رحمه الله في عصر ازدهار المذاهب الفقهية، ونضوجها وكمالها، فتفقه على المذهب الشافعي، ثم أخذ فقه بقية المذاهب، وجمع أقوال الصحابة والتابعين، وتعرف على المذاهب التي انقرضت، وصار إماماً في الفقه المقارن، وصنّف فيه عدة كتب، أهمها «اختلاف الفقهاء» الذي يشهد ما

بقي منه إلى الآن على طول باعه، وسعة اطلاعه، وإحاطته بمذاهب الأمصار، وأفتى على المذهب الشافعي عشر سنوات، ودرَّسه، واجتهد فيه، حتى صار من «الأصحاب» ومن «أهل الوجوه في المذهب» وتتلمذ على يديه كثيرون من أتباع المذهب وعلمائه، ثم أصبح مجتهداً مطلقاً، واستقل عن المذهب الشافعي، وصار صاحب مذهب مستقـل، وأصول خاصة، عُرف فيما بعد بالمذهب الجرَيري، وصار يفتي بما يؤديه إليه اجتهاده فيما لم يُنصّ عليه، وصنّف فيه عدة كتب فقهية، أهمها «لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام» الذي دوَّن فيه مذهبه الذي اختاره، وجوَّده واحتج به، وصار له أتباع في المذهب، درسوه، وحملوه، وعملوا به أكثر من قرن إلى أن انقرض في القرن الخامس الهجري، ثم ضاعت معظم كتب الطبري الفقهية، وتوارت شخصيته الفقهية عن الأنظار، ليبقى علمه شامخاً في التفسير والتاريخ، ولم يصل إلينا حتى الآن إلا قطعة من كتابه «اختلاف الفقهاء» مع آرائه واجتهاداته التي بثها في التفسير وفي كتب الحديث، مما يمكن جمعه وتدوينه كفقه للطبري، كما يمكن ـ إلى حد ما ـ استخراج منهجه في الاجتهاد، وأصوله في الاستنباط بعد أن فُقدت كتبه الأصولية أيضـاً.

وفي الفصل الرابع عشنا مع الطبري مؤرخاً، في دراسته للتاريخ وجمع الأخبار والروايات، وتصنيف كتابيه «ذيل المذيّل» و «تاريخ الأمم والملوك»، فاعتُبر شيخ المؤرخين، وأباً للتاريخ، وكان الكتاب الثاني أوسع كتاب في التاريخ وصل إلينا من القرون الثلاثة الهجرية الأولى، وحوى هذا الكتاب ـ تقريباً ـ جميع ما دُوِّن قبله من مصنفات ومصادر وكتب، وأثنى عليه العلماء، وأصبح قِبلة المؤرخين، وكعبة الدارسين، وحظِي بالرعاية والعناية، والنسخ والدراسة والتدريس، إلى أن وصلنا كاملاً، وعكف العلماء المعاصرون على خدمته، وتمَّ تحقيقه وطبعه ونشره عدة مرات، وقام كثيرون بتكملته وترجمته واختصاره، وكان للطبري فيه منهجه الواضح، وظهر فيه جهده الواسع، ومعارفه المتعددة.

وفي الفصل الخامس تناولنا حياة الطبري العلمية مع بقية العلوم الشرعية، فرأينا أنه محدِّثٌ من الطراز الأول، وقرنه بعضهم بالترمذي والنسائي، وكان أحد المحدّثين الأربعة في مصر، وأخذ الحديث عن علماء الأمصار في البلاد التي رحل إليها، وحدَّث في مصر وبغداد وفارس، ثم صنف عدة كتب في الحديث، أجلُّها وأعظمها «تهذيب الآثار» الذي وصل إلينا بقية منه في أربعة أجزاء، ونهج فيه على الطريقة الموسوعية لكل حديث سنداً ومتناً، رواية ودراية، وعرض فيه أقوال علماء الحديث، واجتهاد الفقهاء مما يُعَدُّ بحق أنه موسوعة علمية، لكنّ الطبري رحمه الله تعالى مات قبل أن يُتمّه، وضاع معظمه مع بقية كتبه في الحديث.

كما كان الطبري قارِئاً مجوِّداً، ومتقناً للقراءات، واختار قراءة لنفسه، وكان يَؤُم النَّاس في الصلاة من صغره، ويقصده العلماء لأخذ القراءات عنه، وصنّف كتاباً في القراءات، وُجدت منه نسخة مخطوطة في مكتبة الجامع الأزهر، كما تعرّض للقراءات بإسهاب في تفسيره الكبير.

وكان الطبري على عقيدة صّحيحة، ويلتزم بمذهب أهل السُّنة والجماعة، ويتبع منهج السلف في الصفات وغيرها، وبيّن عقيدة المسلم في كتبه، وخاصة في التفسير، ووقف بقوة في وجه أعداء الإسلام، وردَّ على الفِرَق الضالة، والمذاهب المنحرفة، وتصدّى لأوهامهم وحججهم فنقضها، وكشف زَيْفَها، وصنف كتباً خاصة في أصول الدين.

ولم يكتفِ بالتخلّق الفاضل، والسُّلوك الإسلامي القويم، والالتزام بالصفات الحميدة التي لمسها منه أساتذته وطلابه، وأحبّاؤه ومعارفه، ونقلوها لنا، لم يكتف بذلك بل صنّف كتاباً في آداب النفس الجيّدة والأخلاق النفسية، ليقدِّم للبشرية بعده منهج الإسلام في الأخلاق والتربية وعلم النفس.

رحم الله الإمام الطبريَّ، وأنزل عليه شآبيب رحمته، وأسكنه فسيح

جِنانه، ونفعنا الله بعلمه، ووفّقنا لخدمته، وتقديم ما بقي منه للمسلمين وللعالم أجمع، ليكون أنموذجاً حيّاً، ومثلاً خالداً لأبناء الإسلام، وتربية القرآن، والتاريخ الإسلامي والحضاري والعالمي، وعلى الله قصد السبيل.

«ربنّا عليك توكلنا، وإليك أَنَبْنا؛ وإليك المصير، اللهم خُذ بيدنا إليك ودُلَّنا بك عليك، وألهمنا الرشد والسَّداد، وافتحِ عيوننا وقلوبنا على دينك ومحبّتك وشرعك وهُداك، اللهم رضّنا، وارضَ عنّا، وأحينا مسلمين، وتوفّنا مؤمنين، واحشرنا في زمرة عبادك الصالحين، ولا تُخزِنا يوم الدين، ووفّقنا لما يُرضيك عنّا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين».

الدكتور محمد الزحيلي

أهم مراجع البحث

١ ـ **أبجد العلوم**، لِصدِّيق حسن القِنَّوْجي (١٣٠٧ هـ)، إعداد عبد الجبّار زكّار. الجزء الثاني ـ قسمان، نشر وزارة الثقافة بدمشق ١٩٨٨ م.

٢ ـ **الإتقان في علوم القرآن**، لجلال الدين السُّيوطي (٩١١ هـ). مطبعة المشهد الحسيني بالقاهرة سنة ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م.

٣ ـ **اختلاف الفقهاء**، للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبريّ (٣١٠ هـ). تصوير دار الكتب العلمية ـ بيروت، بدون تاريخ عن طبعة مصر ١٣٢٠ هـ/ ١٩٠٢ م.

٤ ـ **الأربعين النَّووية، وشرحها**، للإمام يحيى بن شرف النووي (٦٧٦ هـ). طبع شركة الشمرلي بالقاهرة ـ الطبعة الرابعة ـ بدون تاريخ.

٥ ـ **الإسرائيليات في التفسير والحديث**، للشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي. طبع دار الإيمان بدمشق ـ الطبعة الثانية ـ ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.

٦ ـ **أصول الحديث وعلومه**، للأستاذ الدكتور محمد عجاج الخطيب. طبع دار الفكر ـ لبنان ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٧ م.

٧ ـ **أصول الفقه الإسلامي**، للدكتور محمد مصطفى الزحيلي. مطابع مؤسسة الوحدة بدمشق ـ الطبعة الثانية ـ ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م.

٨ ـ **أصول المحاكمات الشرعية والمدنية**، للدكتور محمد مصطفى

الزحيلي. مطابع مؤسسة الوحدة بدمشق ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م.
٩ ـ **الأعلام**، لخير الدين الزِّرِكْلي. الطبعة الثالثة ـ بيروت ـ ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩ م.
١٠ ـ **الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ أهل التوريخ**، لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السَّخاوي (٩٠٢ هـ). مطبوع مع كتاب علم التاريخ عند المسلمين، نشر مكتبة المثنى، بغداد ـ ١٩٦٣ م.
١١ ـ **إنباه الرُّواة على أنباه النُّحاة**، للوزير جمال الدين علي بن يوسف القِفْطي (٦٤٦ هـ). مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ـ سنة ١٣٧٤ هـ/ ١٩٥٥ م.
١٢ ـ **البداية والنهاية**، للحافظ المؤرخ أبي الفداء بن كثير (٧٧٤ هـ). تصوير عن الطبعة الأولى، مكتبة المعارف ـ بيروت، ومكتبة النهضة بالرياض ـ ١٩٦٦ م.
١٣ ـ **البُرْهان في علوم القرآن**، بدر الدين محمد بن عبدالله الزَّرْكشي (٧٩٤ هـ) طبع دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٧٧ هـ/١٩٥٨ م.
١٤ ـ **البَيْضاوي**، للدكتور محمد الزحيلي. من سلسلة أعلام المسلمين، دار القلم بدمشق ـ الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م.
١٥ ـ **تاج التراجم في طبقات الحنفية**، لأبي العدل زين الدين قاسم بن قُطْلُوبُغا (٨٧٩ هـ). مطبعة العاني ـ بغداد ـ سنة ١٩٦٢ م.
١٦ ـ **تاريخ الأدب العربي**، لكارل بُروكلمان. الجزء الثالث، طبع دار المعارف بمصر ـ سنة ١٩٦٢ م.
١٧ ـ **تاريخ الأمم والملوك**، للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠ هـ). مطبعة الاستقامة بالقاهرة ـ ١٣٥٨ هـ/١٩٣٩ م،

وطبعة دار المعارف بالقاهرة ـ ١٩٦٠ م. ونشير للثانية عند الرجوع إليها.

١٨ ـ **تاريخ بغداد**، للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (٤٦٣ هـ). طبعة الخانجي بالقاهرة ـ سنة ١٣٤٩ هـ/ ١٩٣١ م.

١٩ ـ **تاريخ التراث العربي**، للدكتور فؤاد سزكين. مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ـ ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م.

٢٠ ـ **تاريخ التشريع الإسلامي**، للسُّبكي والسَّايس والبَرْبري. الطبعة الثانية ـ مطبعة الشرق الإسلامي بالقاهرة ـ ١٣٥٨ هـ/١٩٣٩ م.

٢١ ـ **تاريخ التشريع الإسلامي**، لأستاذنا الدكتور إبراهيم دسوقي الشهاوي. شركة الطباعة المتحدة بالقاهرة ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٨٩ هـ/ ١٩٧٠ م.

٢٢ ـ **تاريخ التشريع الإسلامي**، للشيخ محمد الخضري بك (١٣٤٥ هـ). نشر دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ الطبعة السابعة ١٩٦٠ م.

٢٣ ـ **التاريخ العربي والمؤرخون**، للأستاذ شاكر مصطفى. دار العلم للملايين ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٧٨ م.

٢٤ ـ **تحفة المَوْدُود بأحكام المولود**، للإمام محمد بن أبي بكر بن قَيِّم الجَوْزية (٧٥١ هـ). نشر مكتبة دار البيان بدمشق ـ الطبعة الثانية ـ ١٤٠٧ هـ.

٢٥ ـ **تذكرة الحفّاظ**، للإمام أبي عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد الذَّهبي (٧٤٨ هـ). تصوير دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

٢٦ ـ **التربية في الإسلام، أو التعليم في رأي القابسي**، للدكتور أحمد فؤاد الأهواني. طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ القاهرة ـ ١٩٥٥ م.

٢٧ ـ **الترغيب والترهيب**، للحافظ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المُنْذري (٦٥٦ هـ). مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ـ الطبعة الثالثة ـ ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م.
٢٨ ـ **تعريف عام بالعلوم الشَّرْعية**، للدكتور محمد الزحيلي. طبع دار طلاس ـ دمشق ـ الطبعة الأولى ١٩٨٨ م.
٢٩ ـ **التفسير بالمأثور ومناهج المفسرين فيه**، للدكتور محمد أبو النور الحديدي صقر. نشر المركز العالمي للتعليم الإسلامي بمكة المكرمة ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م.
٣٠ ـ **تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، للإمام محمد ابن جرير الطبري (٣١٠ هـ). مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٧٣ هـ/١٩٥٤ م.
٣١ ـ **تفسير مُجاهد** (١٠٤ هـ)، قدم له وحققه عبد الرحمن الطاهر ابن محمد السورتي. طبع على نفقة أمير قطر ـ الطبعة الأولى عام ١٣٩٦ هـ/١٩٧٦ م.
٣٢ ـ **التفسير ورجاله**، للشيخ محمد الفاضل بن عاشور. طبع مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة ـ سنة ١٣٩٠ هـ/١٩٧٠ م.
٣٣ ـ **التفسير والمفسرون**، للشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي. طبع دار الكتب الحديثة بالقاهرة ـ سنة ١٣٨١ هـ/١٩٦١ م.
٣٤ ـ **تمام الدراية = الدراية = إتمام الدراية**، لجلال الدين عبد الرحمن السُّيُوطي (٩١١ هـ). مطبوع على هامش مفتاح العلوم ـ المطبعة الأدبية ـ القاهرة سنة ١٣١٧ هـ.
٣٥ ـ **تهذيب الآثار** (مسند علي بن أبي طالب، مسند ابن عباس، مسند عمر بن الخطاب)، للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠ هـ)، تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر. نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ـ ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م.

٣٦ ـ تهذيب الأسماء واللغات، للإمام محيي الدين بن شَرَف النَّووي (٦٧٦ هـ). تصوير دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ بدون تاريخ.
٣٧ ـ الجُوَيْني، للدكتور محمد الزحيلي. من سلسلة أعلام المسلمين، طبع دار القلم بدمشق. الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧ هـ/١٩٨٦ م.
٣٨ ـ حاشية ابن عابدين = ردُّ المُحْتار، لمحمد أمين عابدين (١٢٥٢ هـ). مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٨٦ هـ/١٩٦٦ م.
٣٩ ـ خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للحافظ صفي الدين أحمد بن عبدالله الخزرجي الأنْصاري (بعد ٩٢٣ هـ). مطبعة الفجالة الجديدة بمصر، نشر مكتبة القاهرة ـ ١٣٩١ هـ/١٩٧١ م.
٤٠ ـ دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، للدكتور فتحي الدُّرَيْني. طبع دار قتيبة ـ دمشق ـ الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨ م.
٤١ ـ الدِّيباج المُذْهَب في معرفة أعيان المذْهب، للقاضي برهان الدين إبراهيم بن علي، المعروف بابن فرحون المالكي (٧٩٩ هـ). مطبعة الفحامين بمصر ـ الطبعة الأولى ـ سنة ١٣٥١ هـ.
٤٢ ـ الرسالة المستطرفة، للسيد الشريف محمد بن جعفر الكَتَّاني (١٣٤٥ هـ). طبع دار الفكر بدمشق ـ الطبعة الثالثة ـ ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٤ م.
٤٣ ـ رَوْضَات الجنَّات، الميرزا محمد باقر المُوْسَوي الخَوَانْسَاري الأصْبَهاني (١٣١٣ هـ). طبع طهران ـ سنة ١٣٩٢ هـ.
٤٤ ـ سُبُل السَّلام، للعلامة محمد بن إسماعيل الصنعاني (١١٨٢ هـ). مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٣٧٩ هـ/ ١٩٥٩ م.
٤٥ ـ سنن الترمذي مع شرحه تُحْفة الأَحْوذي، للعلامة محمد بن

عبد الرحمن المباركفوري (١٣٥٣ هـ). مطبعة الفجالة الجديدة - القاهرة - سنة ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م.

٤٦ - **سُنَن الدَّارِمي**، لأبي محمد عبدالله بن عبد الرحمن الدَّارِمي (٢٥٥ هـ). طبع إحياء السنة النبوية - تحقيق محمد أحمد دهمان - بلا تاريخ ولا مكان.

٤٧ - **سُنَنَ ابن مَاجه**، لأبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني، المعروف بابن ماجه (٢٧٥ هـ). طبع دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة - سنة ١٣٧٢ هـ/١٩٥٢ م.

٤٨ - **سِيَر أعلام النُّبلاء**، للحافظ محمد بن أحمد الذَّهبي (٧٤٨ هـ). طبع مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م.

٤٩ - **شَذَرات الذهب في أخبار من ذَهَب**، لعبد الحي بن العماد الحنبلي (١٠٨٩ هـ). طبعة القدسي - القاهرة - سنة ١٣٥٠ هـ.

٥٠ - **صحيح البخاري**، للإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البُخَاري (٢٥٦ هـ). نشر وتوزيع دار القلم بدمشق - الطبعة الأولى - ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م.

٥١ - **صحيح مسلم بشرح النووي**، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٦١ هـ). المطبعة المصرية بالقاهرة - بدون تاريخ.

٥٢ - **ضُحَى الإسلام**، للأستاذ أحمد أمين (١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م). مطبعة الاعتماد بمصر - الطبعة الأولى - ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٣ م.

٥٣ - **الطَّبَرِيّ**، للدكتور أحمد محمد الحوفي. من سلسلة أعلام العرب، طبع وزارة الثقافة بمصر - ١٣٨٢ هـ/١٩٦٣ م.

٥٤ - **الطَّبَرِيّ**، بحث في التفسير، لعبدالله بن عبد العزيز المُصْلح. مطابع الرياض، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - بدون تاريخ.

٥٥ ـ **طبقات الشافعية الكبرى**، لتاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي (٧٧١ هـ). مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة ـ ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٥ م.

٥٦ ـ **طبقات الفقهاء**، للشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن علي الشِّيرَازي (٤٧٦ هـ). نشر دار الرائد العربي ـ بيروت ـ ١٩٧٠ م.

٥٧ ـ **طبقات القُرّاء**، للإمام محمد بن محمد بن الجَزَري (٨٣٣ هـ). نشر ج. برجستراسر، تصوير دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م.

٥٨ ـ **طرق تدريس التربية الإسلامية**، للدكتور محمد الزحيلي. المطبعة الجديدة بدمشق ـ ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م.

٥٩ ـ **ظُهْر الإسلام**، للأستاذ أحمد أمين (١٣٧٣ هـ/١٩٥٤ م). نشر مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٦٢ م.

٦٠ ـ **علم التاريخ عند المسلمين**، لفرانز روزنثال، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي. نشر مكتبة المثنى ـ بغداد ـ ١٩٦٣ م.

٦١ ـ **الفتح الكبير في ضم الزيادات إلى الجامع الصغير للسيوطي**، ترتيب يوسف النَّبْهاني (١٣٥٠ هـ). طبع دار الكتب العربية بمصر.

٦٢ ـ **الفقه الإسلامي وأدلته**، للدكتور وَهْبَة الزحيلي. مطابع دار الفكر بدمشق ـ الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤ م.

٦٣ ـ **فقه اللُّغَة**، للإمام أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (٤٣٠ هـ). المطبعة الأدبيَّة بمصر، الطبعة الأولى سنة ١٣١٧ هـ.

٦٤ ـ **الفِهْرِست**، لابن النَّديم محمد بن إسحاق (٤٣٨ هـ). تصوير دار المعرفة ـ بيروت ـ بلا تاريخ.

٦٥ ـ القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفَيْرُوزَابَادِيّ (٨١٧ هـ). طبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٣٧١ هـ/١٩٥٢ م.
٦٦ ـ كشّاف اصطلاحات الفنون، لمحمد بن علي التَهانَوِيّ (١١٥٨ هـ). تصوير مكتبة كلكِتا ـ سنة ١٨٦٢ م.
٦٧ ـ كَشْف الظُّنُون عن أسامي الكتب والفنون، لمصطفى بن عبدالله، الشهير بحاجي خليفة، وكاتب جلبي (١٠٦٧ هـ). طبع إستانبول ـ سنة ١٣٥١ هـ.
٦٨ ـ لُبّ الأَلْباب في تحرير الأَنْسَاب، للعلامة جلال الدين السّيوطي (٩١١ هـ). تصوير مكتبة المثنى ـ بغداد، بلا تاريخ.
٦٩ ـ مجموع الفَتاوى الكبرى، لشيخ الإسلام، تقي الدين أحمد ابن عبد الحليم بن تَيْمية الحراني (٧٢٨ هـ). الطبعة الأولى بمطابع الرياض ـ سنة ١٣٨٠ هـ.
٧٠ ـ محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، للشيخ محمد الخضري بك (١٣٤٥ هـ). مطبعة الاستقامة ـ الطبعة الرابعة ـ سنة ١٣٥٣ هـ/١٩٣٤ م.
٧١ ـ محاضرات في تاريخ الخلافة العباسية، للدكتور يوسف العش. مطبعة رياض ـ عربين ـ دمشق سنة ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م.
٧٢ ـ المحمَّدُون من الشعراء، جمال الدين علي بن يوسف القِفطي (٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م). مطبعة الحجاز بدمشق ـ سنة ١٣٩٥ هـ/١٩٧٥ م.
٧٣ ـ مختار الصحاح، للشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرَّازي (بعد ٦٦٦ هـ). المطبعة الأميرية ببولاق مصر ـ الطبعة الثانية سنة ١٣٦٩ هـ/١٩٥٠ م.
٧٤ ـ المختصر في علم التاريخ، لمحيي الدين محمد بن سليمان

الكافيجي (٨٧٩ هـ/ ١٤٧٤ م). مطبوع ضمن كتاب علم التاريخ عند المسلمين، نشر مكتبة المثنى ـ بغداد ـ ١٩٦٣ م.

٧٥ ـ **المَدْخل الفقهي العام**، لأستاذنا العلامة مصطفى أحمد الزرقاء. مطبعة جامعة دمشق ـ الطبعة السادسة ـ ١٣٧٨ هـ/ ١٩٥٩ م.

٧٦ ـ **مراصد الاصلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، لصفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (٧٣٩ هـ). طبع عيسى البابي الحلبي بالقاهرة، الطبعة الأولى ـ ١٣٧٣ هـ/ ١٩٥٤ م.

٧٧ ـ **مُرُوج الذَّهب ومعادِن الجوهر**، لأبي الحسن علي بن الحسين ابن علي المَسْعُودي (٣٤٦ هـ). نشر المكتبة التجارية الكبرى بمصر ـ مطبعة السعادة ـ الطبعة الرابعة ـ ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤ م.

٧٨ ـ **مسند أحمد**، للإمام أحمد بن حَنْبل (٢٤٢ هـ). المطبعة الميمنية بالقاهرة ـ سنة ١٣١٣ هـ.

٧٩ ـ **المصْباح المنير**، لأحمد بن محمد بن علي المقري الفَيُّومي (٧٧٠ هـ). المطبعة الأميرية ببولاق مصر ـ سنة ١٣٢٣ هـ/ ١٩٠٦ م.

٨٠ ـ **مُعْجم الأدباء**، لياقوت بن عبدالله الحموي (٦٢٦ هـ). مطبعة المأمون بالقاهرة ـ سنة ١٣٥٧ هـ/ ١٩٣٨ م.

٨١ ـ **مفتاح السَّعادة ومصباح السِّيادة**، لأحمد بن مصطفى، الشهير بطَاشْ كُبْري زادة (٩٦٨ هـ). مطبعة الاستقلال الكبرى بالقاهرة ـ سنة ١٩٦٨ م.

٨٢ ـ **مقدمة ابن خلدون**، لعبد الرحمن بن خَلْدون المَغْربي (٨٠٨ هـ). طبع المكتبة التجارية الكبرى بمصر، بلا تاريخ.

٨٣ ـ **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، لأبي الفرج عبد الرحمن ابن علي بن الجَوْزي (٥٩٧ هـ). الطبعة الأولى ـ حيدر آباد الدكن بالهند ـ سنة ١٣٥٩ هـ.

٨٤ ـ **مِنْهاج الوُصول إلى علم الأصول**، للقاضي عبدالله بن عمر البَيْضاوي (٦٨٥ هـ). طبع مصر ـ سنة ١٣٢٦ هـ.

٨٥ ـ **منهج النَّقد في عُلُوم الحديث**، للأستاذ الدكتور نور الدين عتر. طبع دار الفكر بدمشق ـ ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢ م.

٨٦ ـ **ميزان الاعتدال**، للحافظ أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذَّهبي (٧٤٨ هـ). مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر ـ الطبعة الأولى ـ سنة ١٣٨٢ هـ/١٩٦٣ م.

٨٧ ـ **النُّجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ليوسف بن تغري بَرْدي الأتابكي (٨٧٤ هـ). تصوير الطبعة الأولى بدار الكتب المصرية بالقاهرة ـ سنة ١٣٤٩ هـ/ ١٩٣٠ م.

٨٨ ـ **النُّقاية شرح إتمام الدراية**، للعلامة جلال الدين عبد الرحمن السيُّوطي (٩١١ هـ). مطبوع على هامش مفتاح العلوم، المطبعة الأدبية، القاهرة ـ سنة ١٣١٧ هـ.

٨٩ ـ **نَيْل الأوطار شرح منتقى الأخبار**، للعلامة محمد بن علي الشوكاني (١٢٥٠ هـ). مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة ـ سنة ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١ م.

٩٠ ـ **وَفَيات الأَعْيان وأَنْباء أَبْناء الزمان**، لأبي العباس أحمد بن محمد بن خَلِّكان (٦٨١ هـ). مطبعة السعادة بمصر ـ الطبعة الأولى ـ سنة ١٣٦٧ هـ/ ١٩٤٨ م.

فهرس الموضوعات

٧ ـ أصول المحاكمات الشَّرْعية والمدنيَّة ـ كتاب جامعي. الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ/١٩٨٠ م، الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ/١٩٨٩ م.

٨ ـ القانُون المدني المقارن بالفقه الإسلامي ـ العُقُود المُسَمَّاة ـ كتاب جامعي. الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م، الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ/١٩٨٩ م.

٩ ـ التنظيم القضائي في الفقه الإسلامي وتطبيقه في المملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى بدار الفكر بدمشق ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م.

١٠ ـ الإمام الجُوَيْني ـ من سلسلة أعـلام المسلمين. دار القلم بدمشق ـ الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦ م . نفد.

١١ ـ القاضي البَيْضَاوي ـ من سلسلة أعلام المسلمين. دار القلم بدمشق ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨ م.

١٢ ـ تَعريف عام بالعلُوُم الشَّرْعية. نشر دار طلاس ـ الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨ م.

١٣ ـ المَدْخل إلى العلوم الإسلامية. نشر دار المعرفة ـ الطبعة الأولى ـ ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م.

أعلام المسلمين

سلسلة تراجم إسلامية تجمع بين العلم والفكر والتوجيه، وتتناول أعلام المسلمين في شتى الميادين.

صدر منها:

١ ـ عبد الله بن المبارك
تأليف محمد عثمان جمال.

٢ ـ الإمام الشافعي
تأليف عبد الغني الدقر.

٣ ـ مصعب بن عمير
تأليف محمد حسن بريغش.

٤ ـ عبد الله بن رواحة
تأليف د. جميل سلطان.

٥ ـ أبو حنيفة النعمان
تأليف وهبي غاوجي الألباني.

٦ ـ عبد الله بن عمر
تأليف محيي الدين مستو.

٧ ـ أنس بن مالك
تأليف عبد الحميد طهماز.

٨ ـ سعيد بن المسيب
تأليف د. وهبة الزحيلي.

٩ ـ السلطان محمد الفاتح
تأليف د. عبد السلام فهمي.

١٠ ـ الإمام النووي
تأليف عبد الغني الدقر.

١١ ـ الشيخ محمد الحامد
تأليف عبد الحميد طهماز.

١٢ ـ السيدة عائشة
تأليف عبد الحميد طهماز.

١٣ ـ الإمام البخاري
تأليف د. تقي الدين الندوي المظاهري.

١٤ ـ عبادة بن الصامت
تأليف د. وهبة الزحيلي.

١٥ ـ عبد الله بن عباس
تأليف د. مصطفى الخن.

١٦ ـ جابر بن عبد الله
تأليف وهبي غاوجي الألباني.

١٧ ـ أحمد بن حنبل
تأليف عبد الغني الدقر.
١٨ ـ كعب بن مالك
تأليف د. سامي مكي العاني.
١٩ ـ أبو داود
تأليف د. تقي الدين الندوي المظاهري.
٢٠ ـ أسامة بن زيد
تأليف د. وهبة الزحيلي.
٢١ ـ معاوية بن أبي سفيان
تأليف منير الغضبان.
٢٢ ـ عدي بن حاتم الطائي
تأليف محيي الدين مستو.
٢٣ ـ مالك بن أنس
تأليف عبد الغني الدقر.
٢٤ ـ عبد الله بن مسعود
تأليف عبد الستار الشيخ.
٢٥ ـ معاذ بن جبل
تأليف عبد الحميد طهماز.
٢٦ ـ الإمام الجويني
تأليف د. محمد الزحيلي.
٢٧ ـ القاضي البيضاوي
تأليف د. محمد الزحيلي.
٢٨ ـ عبد الحميد بن باديس
تأليف مازن مطبقاني.
٢٩ ـ تميم بن أوس الداري
تأليف محمد محمد حسن شراب.
٣٠ ـ السلطان عبد الحميد الثاني
تأليف د. محمد حرب.
٣١ ـ السيدة خديجة
تأليف عبد الحميد طهماز.
٣٢ ـ الإمام أبو جعفر الطبري
تأليف: د. محمد الزحيلي.

تحت الطبع:

٣٣ ـ زيد بن ثابت
تأليف: صفوان داوودي.
٣٤ ـ أبو عبيد قاسم بن سلّام
تأليف: سائد بكداش.